هدى الثقلين

تصدر عن دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة

مجازة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معتمدة لأغراض الترقية العلمية

السنة الأولى المجلد الأول/ العدد (٢)

شهر جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ - كانون الأول ٢٠٢٤م

جُمْهُورِيَّةُ العِرَاقِ
دِيوَانُ الوَقْفِ الشِّيعِيِّ
الأَمَانَةُ العَامَّةُ لِلْعَتَبَةِ الحُسَيْنِيَّةِ المُقَدَّسَةِ

هَدْيُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ نِصْفُ سَنَوِيَّةٍ مُحَكَّمَةٌ تُعْنَى بِتَفْسِيرِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم) لِلْقُرْآنِ الكَرِيـــــم

تَصْدُرُ عَنْ دَارِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي العَتَبَةِ الحُسَيْنِيَّةِ المُقَدَّسَـــةِ

مُجَازَةٌ مِن وِزَارَةِ التَّعْلِيمِ العَالِيّ وَالبَحْثِ العِلْمِيِّ

مُعْتَمَدَةٌ لِأَغْرَاضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيَّةِ

التَّرْقِيمُ الدَّوْلِي ISSN : 3005-415X

العِنْوَان: العِرَاق - كَرْبَلَاء المُقَدَّسَة - دَار القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي العَتَبَةِ الحُسَيْنِيَّةِ المُقَدَّسَةِ

رَقْمُ الإِيدَاعِ فِي دَارِ الكُتُبِ والوَثَائِقِ العِرَاقِيَّةِ ٢٧١٥ لِسَنَةِ ٢٠٢٤م

لِلمَعْلُومَاتِ والاتِّصَالِ: ٠٧٧٣٥٣٠٠٨٣٥

البَرِيدُ الإِلِكتْرُونِي: hudaalalthaqalein@gmail.com

تَسْتَقْبِلُ مَجَلَّةُ (هَدْيُ الثَّقَلَيْنِ) البُحُوثَ الأَكَادِيمِيَّةَ الرَّصِينَةَ غَيرَ المَنْشُورَةِ، بِاللُّغَتَيْنِ العَرَبِيَّةِ والإِنْكِلِيزِيَّةِ.

بطاقة الفهرسة

BP130 .A82 2024 VOL. 1 NO. 0

العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق) دار القرآن الكريم.

هَــدِي الثقلين: مجلة علمية نصف سنوية محكمة تعني بتفسير النبي وأهل بيته (صلوات اللَّه عليه وعليهم) للقرآن الكريم/ تصدر عن دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة – كربلاء، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، دار القرآن الكريم، ٢٠٢٤م/ ١٤٤٥للَّهجرة.

مجلد: ٢٤سم – نصف سنوية، السنة الأولى، المجلد الأول، العدد (صفر)، جُمادى الآخرة ١٤٤٥ للَّهجرة – كانون الثاني ٢٠٢٤م.

(العتبة الحسينية المقدسة؛ ١٣٥٧)، (دار القرآن الكريم).

يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.

تصدر المجلة باللغتين العربية والإنجليزية.

١ .القرآن– تفسير الشيعة الإماميَّة– دوريات.

٢ .القرآن تفاسير مأثورة (الشيعة الإماميَّة)– دوريات.أ.العنوان.

تمَّت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

تَنْويهٌ:

الأَفْكَارُ وَالآرَاءُ الوَارِدَةُ فِي أَبْحَاثِ هَذِهِ المَجَلَّةِ تُعَبِّرُ عَن وِجْهَةِ نَظَرِ كُتَّابِهَا وَلَا تُعَبِّرُ بِالضَّرُورَةِ عَن وِجْهَةِ نَظَرِ العَتَبَةِ الحُسَيْنِيَّةِ المُقَدَّسَةِ.

قَصِيدَةٌ تُؤَرِّخُ فِيهَا مَجَلَّةَ هَدْيُ الثَّقَلَيْنِ وَهِيَ مَجَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ
نِصْفُ سَنَوِيَّةٍ مُحَكَّمَةٌ تُعْنَى بِتَفْسِيرِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ
صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ، صَدَرَتْ عَنْ دَارِ القُرْآنِ
الكَرِيمِ فِي العَتَبَةِ الحُسَيْنِيَّةِ المُقَدَّسَةِ

سِفْرٌ جَمِيلٌ وَبَدَتْ مِثْلُ السَّنَا ... عِنْدَ الحُسَيْنِ فِي الطُّفُوفِ صَدَرَتْ
فِي طَيِّهَا كُلُّ تَفَاسِيرِ الهَنَا ... وَهِيَ بِقَوْلِ الآلِ حَقًّا هَدَرَتْ
آرَاؤُهَا مَزْبُورَةٌ فِيهَا الغِنَى ... سَلْسَلَهَا العِلْمُ وَمِنْهُ انْتَشَرَتْ
مَيْدَانُهَا الآيُ وَمِنْهَا قَدْ دَنَا ... وَاسْتَبَقَتْ بَابَ الهُدَى إِذْ شَمَّرَتْ
مِنْ دَارِ قُرْآنٍ كَرِيمٍ نَحْوَنَا ... بِالخَيْرِ وَالقَوْلِ الجَمِيلِ قَدْ سَرَتْ
وَاللَّيْلُ وَلَّى بَلْ أُصِيبَ بِالفَنَا ... أَسْتَارُهُ قَدْ مُزِّقَتْ وَانْدَثَرَتْ
يَا حُسْنَهَا كُلٌّ إِلَيْهَا أَذْعَنَا ... حِينَ إِلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ نَظَرَتْ
هَا قَدْ أَنَاخَتْ رَكْبَهَا الغَالِي هُنَا ... فَازْدَهَرَتْ أَبْوَابُهَا بَلْ أَثْمَرَتْ
فَاليَوْمَ عِنْدَ السِّبْطِ ذَا أَقْصَى المُنَى ... أَرِّخْ: هَدْيُ الثَّقَلَيْنِ صَدَرَتْ

عَلِيُّ الصَّفَّارُ الكَرْبَلَائِي

١٤٤٤هـ

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education & Scientific Research
Research & Development Department

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
دائرة البحث والتطوير
قسم الشؤون العلمية

No.: ٨٩٤٣/٤٠٥
Date: ٢٠٢٤/٩/١٦

ديوان الوقف الشيعي / الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

م/ مجلة هدى الثقلين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اشارة الى كتابكم ذي الرقم ح٢٥١٤٩/٣٩ بتاريخ ٢٠٢٤/٤/٢٧ بشأن استحداث واعتماد مجلتكم لاغراض النشر والترقيات العلمية وتسجيلها ضمن موقع المجلات الاكاديمية العلمية العراقية وبعد استكمال الملاحظات الخاصة بضوابط الاستحداث بموجب كتابكم المرقم ح٤٧٧١٢/٣٩ في ٢٠٢٤/٨/٢٧، حصلت الموافقة بتاريخ ٢٠٢٤/٩/٨ على أعتماد المجلة المذكورة في الترقيات العلمية والنشاطات العلمية المختلفة الاخرى واعتباراً من المجلد الاول - العدد الاول - كانون الثاني لسنة ٢٠٢٤ لتسجيل المجلة في موقع المجلات الاكاديمية العلمية العراقية.

للتفضل بالاطلاع وابلاغ مخول المجلة لمراجعة دائرتنا لتزويده بأسم المستخدم وكلمة المرور ليتسنى له تسجيل المجلة ضمن موقع المجلات الاكاديمية العلمية العراقية وفهرسة اعدادها ، ويعتبر ذلك شرطاً اساسياً في اعتمادها بموجب الفقرة (٣١) من ضوابط الاستحداث واصدار المجلات العلمية في وزارتنا.

...مع وافر التقدير

ا.د. لبنى خميس مهدي
المدير العام لدائرة البحث والتطوير
٢٠٢٤/ ٩ / ١٢

نسخة منه الى:
- مكتب السيد وكيل الوزارة لشؤون البحث العلمي/ أشارة الى موافقة سيادته بتاريخ ٢٠٢٤/٩/٨ على أصل مذكرتنا المرقمة ب ت م٦٧٩٢/٤ في ٢٠٢٤/٩/٨/ للتفضل بالاطلاع ...مع التقدير.
- قسم الشؤون العلمية/ شعبة التأليف والترجمة و النشر.... مع الاوليات
- الصادره

مهند ابراهيم
١٠/ أيلول

جعفر الصادق
أحيوا أمرنا
رحم الله من أحيا أمرنا
الشرفاوي

رئيس التحرير

أ. د. هاشم جعفر حسين الموسوي

اللغة العربيَّة – اللغة والنحو

جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانيَّة/ العراق

مدير التحرير

م. د. عمَّار حسن عبد الزهرة/ اللغة العربيَّة – لسانيات

وزارة التربية/ مديريَّة تربية كربلاء/ العراق

مدقق النصوص العربية

د. عماد طالب موسى

مدقق النصوص الانكليزية

م.م إباء الدين حسام عباس

العلاقات والتنسيق والإعلام

الأستاذ علي فضيلة خضير الشمري

هيأة التحرير

م. د. الشيخ خير الدِّين علي الهادي

رئيس دار القرآن الكريم في العتبة الحسينيَّة/ العراق

اللغة العربيَّة – لسانيات

أ. د. حميد عبد جواد النَّجدي

رئيس جامعة أهل البيت عليهم السلام _ العراق.

أ.د. مكي محي عيدان الكلابي

اللغة العربية _ دلالة

جامعة كربلاء/ كلية التربية/ العراق

أ. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي

الفقة وأصوله

جامعة كربلاء/ كليَّة العلوم الإسلاميَّة/ العراق

أ. د. سامي ماضي إبراهيم الربيعي

اللغة العربيَّة _ نحو ودلالة

الجامعة المستنصريَّة/ العراق

أ. د. لطيفة عبد الرسول عبد علي الضايف

اللغة العربيَّة _ نحو ودلالة

الجامعة المستنصريَّة/ العراق

أ. د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي
اللغة العربيَّة وآدابها _ أدب إسلامي
جامعة الكوفة – كليَّة التربيَّة الأساسيَّة/ العراق

أ. د. عبد الحميد مدكور
الأمين العام لمجمع اللغة العربيَّة في القاهرة
الفلسفة الإسلاميَّة/ جامعة القاهرة/ مصر

أ. د. عيسى علي عاكوب
عضو مجمع اللغة العربية/ دمشق- سوريا

أ. د. غازي مهدي جاسم الشمري
الفكر الإسلامي وتأريخ الحضارة العربية
جامعة وهران/ الجزائر

أ. د. محمد رضا ستود هنيا
علوم القران والحديث
كلية الإلهيات ومعارف أهل البيت عليهم السلام جامعة
أصفهان/ إيران

أ. م. د. محمَّد عبد الحسن كاطع
تاريخ الحضارة الإسلاميَّة
جامعة المصطفى العالميَّة/ فرع العراق

أ. م. د. سحر ناجي فاضل المشهدي
دلالة ونحو
الكليَّة التربويَّة المفتوحة في النجف الأشرف/ العراق

م. د. حيدر فاضل عباس العزاوي
اللغة العربيَّة_ لسانيات
وزارة التربية/ مديريَّة تربية كربلاء

قواعد النشر في المجلَّة:

تستقبل هديُ الثَّقلينِ البحوث والدراسات الرصينة على وفق القواعد الآتية:

١. يشترط في البحث أن يكون مكتوبًا على وفق منهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميًا .

٢. أن يكون البحث منسجمًا مع المجال المعرفي الذي ترعاه المجلة وتوجهها في نشر الأبحاث التي تختصُّ بتفسير النبي وأهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم .

٣. أن لا يكون البحث منشورًا في مجلَّة، أو مقدّمًا إلى أيَّة وسيلة نشر أخرى، أو مستلًّا من كتابٍ أو رسالةٍ جامعيَّة، أو محمَّلًا على الشبكة العنكبوتيَّة.

٤. أن يكون البحث مبتكرًا في موضوعه، يُعالج قضايا تفسيريَّة مُهِمَّة تتلاءم مع المعطيات المعاصرة للحاجات المعرفيَّة.

٥. يقدَّم البحث مطبوعًا على ورق A4، وبنسخةٍ إلكترونيَّة على قرص مدمج(CD)، أو يُرسل على البريد الإلكتروني، على أن لا يتجاوز ما هو متعارف عليه علميًّا بحدود (٥٠٠٠ – ١٠٠٠٠) كلمة، وبخط Simplified Arabic مع احتفاظ الباحث بنسخة الأصل.

٦. أن يحتوي البحث على ملخَّص باللغة العربية، وآخر باللغة الإنكليزية، كلّ في حدود صفحة مستقلة على أن يحتوي ذلك عنوان البحث، ويكون الملخص بحدود (٣٥٠) كلمة، مع مقدِّمة ومباحث ونتائج، وفهرس مفصَّل بالمصادر.

٧. أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على اسم الباحث/ الباحثين، وعنوانه/ عناوينهم وجهة العمل، والعنوان الوظيفي، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني مع مراعاة عدم ذكر اسم الباحث أو الباحثين في مَتن البحث أو أي إشارة إلى ذلك .

٨. يزوَّد البحث بقائمة المصادر والمراجع منفصلة عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر ومراجع أجنبية تُضاف قائمة خاصَّة بها عن قائمة المراجع والمصادر العربيَّة، ويراعي في إعدادهما الترتيب الألفبائي لأسماء الكتب أو البحوث في المجلَّات.

٩. تُطبع الجداول والصور واللوحات على أوراق مستقلّة ويُشار في أسفل الشكل إلى مصادرها، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن .

١٠. إرفاق نسخة من السيرة العلميَّة إذا كان الباحث ينشر في المجلَّة للمرَّة الأولى، وعليه أن يشير إلى اسم أيَّة جهة علميَّة، أو غير علميَّة قامت بتمويل البحث، أو المساعدة في إعداده.

١١. تخضع البحوث المقدَّمة للنشر لتدقيق نسب الانتحال في ضوء أحد البرامج المعتمدة، والأنظمة المقرَّة من لدن وزارة التعليم العراقيَّة.

١٢. تحتفظ هيأة التحرير بحقِّ حجب نشر البحث الذي لا ينسجم مع سياسة المجلَّة في نشر تفسير النبي وأهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم حصرًا، أو ما لا يتوافق مع منهج البحث العلميّ أو الموضوعيّ، أو ما فيه مسٌّ لجوهر العقائد الإسلاميَّة ورموزها الفكريَّة والدينيَّة .

١٣. تعبِّر الأفكار المنشورة في المجلَّة عن آراء كاتبيها، ولا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة لموجبات فنيَّة صرفة.

١٤. تخضع البحوث لتقويم سري لبيان صلاحيَّتها للنشر، ولا تُعاد البحوث إلى أصحابها سواء أُقبِلَت للنشر أم لم تقبل، وعلى وفق الآليَّة الآتية:

أ- يبلغ الباحث بتسليم المادة المرسلة للنشر.

ب- ثمَّ يُشعر أصحاب البحوث المقبولة للنشر بموافقة هيأة التحرير على نشرها بعد إخضاعها إلى تقييم سري من ذوي الاختصاص .

جـ- البحوث التي يرى المقوِّمون وجوب إجراء تعديلات أو إضافات عليها قبل نشرها تعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات المحددة لكي يعملوا على التعديل في ضوئها، ثمَّ بعد ذلك تُرسل للنشر .

د- البحوث المرفوضة يبلغ أصحابها من دون ضرورة إبداء أسباب الرفض .

هـ- يشترط في قبول النشر موافقة خبراء الفحص .

١٥.ترسل البحوث على البريد الإلكتروني للمجلّة:

hudaalalthaqalein@gmail.com

أو تُسَلَّم مباشرةً إلى مقر المجلة على العنوان الآتي:

كربلاء المقدسة – العتبة الحسينية – دار القرآن الكريم

سياسة النشر

تستقبل مجلَّة (هدي الثقلين) مشاركاتكم من الأبحاث الرصينة، والدِّراسات المبتكرة والبحوث العلميَّة الناتجة عن الندوات والمؤتمرات باللغتين العربيَّة والإنكليزيَّة؛ على وفق سياسة النشر الخاصَّة بها والمتمثِّلة بالآتي:

١- مجلَّة (هدي الثقلين) مجلَّة دورية مُحكَّمَة نصف سنوية.

٢- المجلَّة مختصَّة بنشر الأبحاث المختصَّة بتفسير النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمَّة أهل البيت عليهم السلام.

٣- تحتفظ المجلَّة بحقوق النشر والطبع كافَّة، وآراء المؤلِّفين الواردة جميعًا في البحث أو المادة العلميَّة تعبِّر عن وجهة نظرهم، ولا تُعَدُّ المجلَّة مسؤولة عنها بالضرورة؛ استنادًا لمبدأ استقلاليَّة الرأي.

٤- المجلَّة غير ملزمة بردِّ أصول البحوث سواء نشرت أم لم تنشر، وفي حال سحب البحث من لدن الباحث فعليه الالتزام بردِّ تكاليف التحكيم وتكاليف برنامج الانتحال.

٥- أولويَّة نشر البحوث بحسب أسبقيَّة الحصول على قبول النشر، ويستثنى من ذلك البحوث ذات السبق العلميّ والمادَّة المبتكرة بعد ترشيح من هيأة التحرير.

٦- يشترط بالمادة العلميَّة المراد نشرها بالمجلَّة، أن لا تكون قد سبق نشرها في مجلَّة أو دوريَّة أو مؤتمر علميّ، بتعهد يقدِّمه الباحث، وبخلافه يتحمَّل الباحث المسؤوليَّة القانونيَّة وتكاليف التحكيم وبرنامج الاستلال كافَّة.

٧- يلتزم الباحث بعدم إرسال بحثه أو مادَّته العلميَّة إلى أيِّ جهةٍ أخرى لغرض النشر، حتَّى يصله رد المجلَّة بصلاحيَّة بحثه أو مادَّته العلميَّة للنشر من عدمه بمدَّة لا تتجاوز ثلاثين يومًا من تاريخ استلام المجلَّة للبحث أو المادَّة العلميَّة، وبخلافه تحتفظ المجلَّة بحقوقها القانونيَّة والماليَّة كافَّة.

٨- يتعيَّن على الباحث أن يلتزم بشروط النشر المتاح على موقع المجلَّة الإلكتروني الرسمي، ويتعهد بأنَّه قد اطَّلع عليها.

٩- يجب على الباحث مراعاة الأمانة العلميَّة في البحث العلميّ والدراسة الأكاديميَّة، وفي مقدِّمتها أخلاقيَّات البحث العلميِّ وبنود لجنة أخلاقيات النشر (Committee On Publication Ethics) مثال ذلك، توثيق المراجع والمصادر والنصوص القانونيَّة والعلميَّة، ومراعاة الموضوعيَّة والمنهجيَّة في الكتابة، وبخلافه يتحمَّل الباحث المسؤوليَّة القانونيَّة والإداريَّة والماليَّة الكاملة عن أيِّ انتهاك أو تجاوز لهذه الأخلاقيَّات طبقًا للقوانين والتعليمات الوطنيَّة أو الدَّوليَّة، ومنها قانون حماية المؤلِّف رقم (٣) لسنة ١٩٧١.

١٠- تخضع جميع البحوث العلميَّة المراد نشرها بالمجلَّة لتدقيق نسبة الانتحال (Plagiarism) ضمانًا لعدم نشر البحوث مسروقة النَّصِّ جزئيًّا أو كليًّا، وبخلافه يتحمَّل الباحث المسؤوليَّة القانونيَّة والماليَّة والإداريَّة الكاملة.

١١- تخضع المادَّة العلميَّة التي تنشرها المجلَّة للتحكيم الشفاف والمراجعة العلميَّة المتخصِّصة (Peer-reviewed process) فضلًا عن التدقيق اللغوي (للغة العربية واللغة الإنكليزية)، ويكون للمجلَّة صلاحيَّة الموافقة على النشر فيها من عدمه؛ استنادًا إلى الآراء الأوليَّة لهيأة تحرير المجلَّة أو آراء المحكِّمين المتخصِّصين.

١٢- يقدِّم الباحث مع البحث أو المادَّة العلميَّة المراد نشرها موجزًا بالسيرة العلميَّة للباحث (نبذة تعريفية) مع بريده الإلكتروني الرسمي الذي ينتهي بامتداد (edu.iq) بالنسبة للسادة الباحثين العراقيين أو البريد الشخصي للباحث مع رقم الهاتف.

١٣- يُمنح كلُّ باحثٍ نسخة ورقيَّة من العدد المنشور فيه بحثه، ولا تتحمَّل المجلَّة أجور إرسال النسخة الورقيَّة للباحث.

١٤- تعمل المجلَّة على وفق آليَّة النشر المفتوح وسياسته (Open Access).

١٥- تلتزم المجلَّة بمنح الباحث قبول النشر حين استكمال جميع المتطلَّبات الخاصَّة بالنشر من قبيل استكمال ملاحظات المحكِّمين والتعهد وغير ذلك.

١٦- تستقبل المجلَّة البحوث أو المادَّة العلميَّة المراد نشرها بالطرق الإلكترونيَّة، ووسائل التواصل الخاصَّة برقم المجلَّة مثل الواتساب والتليكرام المتاحين على الموقع الرسمي للمجلَّة، أو يسلِّمها الباحث بصورةٍ شخصيَّة .

نشاط المجلَّة

عمل دار القرآن الكريم في العتبة الحسينيَّة المقدَّسة على رعاية كتاب اللَّه تعالى بشتَّى الجوانب، وبذل الجهود الكبيرة من أجل توثيق الصِّلة بينه وبين المجتمع على اختلاف شرائحه، وكان نتيجة ذلك انبثاق مشاريع كثيرة يطول ذكرها، ومن تلك المشاريع العمل على دراسة تفسير النبيِّ وأهل بيته عليهم السلام للقرآن الكريم، وقد بدأت الدَّار بهذا العمل منذ سنين عدة، فكان نتاجها مشاريع كثيرة أهمُّها إنتاج موسوعة أهل البيت عليهم السلام القرآنيَّة، وقد بلغت ستِّين مجلَّدًا، وهي بمجملها وتفاصيلها لم يُسلَّط عليها الضوء ولم تعمل الأقلام فيها بحثًا، فكان النتاج بكرًا بالهيأة التي انتهت الدَّار إلى صياغتها، وحان الآن أن تُقَنَّن تلك الجهود بمساراتٍ علميَّة فتدخل تلك الثروة المعرفيَّة إلى المؤسسات الأكاديميَّة والمراكز العلميَّة؛ لتأخذ حيِّزها على وفق الوسائل المعترفِ بها أكاديميًّا والمسارات المتَّفق عليها منهجيًّا، ومن هنا شرعت الدار ببناء وسائل توازي الحاجات المعرفيَّة وتتَّفق مع المعطيات المعاصرة، ومن تلك الوسائل العمل على استحداث مجلَّة (هَدْي الثقلين) وتحكيمها بعد تهيئة المادَّة العلميَّة للباحثين، وصولًا إلى الوعي التَّامِّ بجهوزيَّة البناء المعرفي، للإنطلاق بأوَّل مشروعٍ بكرٍ في العالم الإسلامي، وهو مجلَّة علميَّة محكَّمة تُعنى بتفسير النَّبيِّ وأهل بيته عليهم السلام.

لماذا هَدْيُ الثَّقَلَين؟

هذا الاسم مستقى من حديث الثَّقلين الذي اتَّفقت الأمَّة الإسلاميَّة على مَضمونه، وهو قول رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: ((إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْن: كتابَ اللَّهِ وعِتْرتي))، ومن هنا أُريد لهذه المجلَّة أن تكون مصداقًا عمليًّا لتطبيق وصيَّة الرسول صلى الله عليه وآله في التَّمسُّك بالقرآن الكريم والعترة الطَّاهرة، الذي يُنجي من الهلاك ويعصمُ من الضَّلال فكانت (هدي الثَّقلين) .

يقول ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ) في صدد بيان لفظة: (هَدَيَ) في اللغة إنَّ له أَصْلَين: ((أَحَدُهُمَا التَّقَدُّمُ لِـلْإِرْشَادِ، وَالْآخَرُ بَعْثَةُ لَطَف، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ))، وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ وما نريده من لفظة (هدي) في الاسم، هو معنى (التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشَادِ)، وقد قدَّم الرسول صلى الله عليه وآله الثقلين لإرشاد الأمَّة، وجعلهما العاصمين من الضَّلال: ((إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي))، أمَّا المقصود بالثقلين في هذا الحديث فقد نصَّ اللغويون على بيان ذلك، ومنهم: محمد بن أحمد بن الأزهري (ت: ٣٧٠هـ) في تهذيبه قال:((فسَّر النبيّ صلى الله عليه وآله الثَّقَلين فجعلهما: كتاب اللَّه عز وجل وعترته عليهم السلام، وأصل الثَّقَل أنّ العَرَب تَقول لكلِّ شَيْء نَفِيس مَصُون: ثقل))، وبيَّن سبب تسميتهما بالثَّقلين الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ) بما نقله في معاني الأخبار بقوله: ((لأنَّ التمسك بهما ثقيل)) وبيَّن أحمد ابن محمد الهروي (ت: ٤٠١ هـ) في غريبيه سببًا آخر بقوله: ((إِعْظَامًا لقدرهما وتفخيما لشأنهما))، وتابعه ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ) في غريبه، والصَّنعاني (ت:٦٥٠ هـ) في تكملته، وابن منظور (ت: ٧١١هـ) في لسانه، ومرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) في تاجه، أمَّا سبب الإعظام والتفخيم لهما فيفسِّره جمال الدين الكجراتي (ت: ٩٨٦هـ) في مجمعه بقوله: ((إذ يستصلح الدين بهما ويعمر كما عمرت الدنيا بالثقلين)) وهذا ما نريده من التسمية بـ (هدي الثَّقلين) أي متابعة إرشادهما وهديهما، ونقل الشريف الرَّضي (ت: ٤٠٦ هـ) في مجازاته تعليلًا آخر بقوله: ((إنَّما سُمِّيا بذلك؛ لأنَّهما العدَّتانِ اللتانِ يُعَوَّلُ في الدين عليها، ويقوم أمر العالم بهما)).

لماذا التَّخصُّص بتفسير النَّبيِّ وأهل البيت عليهم السلام؟

جاء التَّخصُّص من الملازمة بين القرآن والعترة التي أسَّسها الرسول صلى الله عليه وآله لحفظ الأمَّة من الضلال، وأبان لها طريق الهداية العاصم من الانحراف بوصيَّةٍ لا نستبعد

الإعجاز في حفظها ورعايتها على نسقٍ اتَّفقت الأمَّة الإسلاميَّة بمختلف مشاربها على روايتها وصحَّتها؛ بل تواتر مضمونها وهي وصيَّة رسول اللَّه ﷺ بالتَّمسكِ بالثقلينِ وأنَّهما العاصمانِ من الضلال ولن يفترقا حتَّى يردا عليه الحوض.

وفي ضوء ما تقدَّم يُستبانُ أنَّ القرآن الكريم والنبيَّ الأكرم ﷺ بمعيَّة أهل بيته عليهم السلام هما الطريقان العاصمانِ من الضَّلالة، ولا يمكن لأحدٍ أن يكون أكثر قربًا لكلام اللَّه تعالى منهم بدليل نصِّ الرسول المتقدِّم، ومن هنا فإنَّهم أساس انطلاق الوعي بالقرآن الكريم وفهم محتواه ومضامينه.

وهم نقطة التقاء المسلمين جميعًا؛ إذ لا خلاف في فضلهم وعلوِّ مقامهم وعلمهم وأخذ الدِّين منهم، ومحبَّتهم وموالاتهم، بدليل احتواء كتب المسلمين على اختلاف انتماءاتهم بأحاديثهم ورواياتهم وسيرهم، وإطباقهم على تبجيلهم وتكريمهم.

فضلًا عمَّا سبق فإنَّ هذا الحقل المعرفي (تفسير النَّبيِّ وأهل بيته) لم يُسلَّط عليه الضوء بشكلٍ يُناسب أهميَّته، وكذا لم تُفرد له مجلَّة علميَّة محكَّمة متخصِّصة في رصده ودراسته.

حدود المجلَّة واهتماماتها:

تتبنَّى مجلَّة (هدي الثَّقلين) دراسة تفسير النَّبيِّ الأكرم وأهل بيته عليهم السلام للقرآن الكريم، ولا تتوقَّف عند حدود مدوَّناتٍ بعينها، وإنَّما تراقب آثارهم أينما وُجدت على نسق المعيار الذي أسَّسوه عليهم السلام، وهو عرض الأخبار الواردة عنهم على القرآن الكريم فما وافقه قُبِل وما لم يوافقه يُردُّ، وعلى أساس هذه الضابطة فإنَّ المجلَّة تستقبل الدِّراسات التي تُعنى بتفسيرهم للقرآن الكريم من دون تحديد المدونات أو تصنيفها؛ لأنَّنا قد راقبنا تفسير النبيِّ وأهل بيته عليهم السلام فوجدناه متفرِّعًا من شمولية القرآن الكريم واتِّساعه؛ ليكون هديًا للإنسان في حياته وآخرته.

الرؤية:

تفسير النَّبي وأهل بيته عليهم السلام ضرورة دينيَّة وحاجة معرفيَّة؛ لتلازمهما الشرعي والمعرفي بوصفهم عِدْل القرآن الكريم.

الرِّسالة:

تسعى المجلَّة إلى دراسة تفسير النَّبيِّ وأهل بيته عليهم السلام للقرآن الكريم على وفق المعايير الأكاديمية في المنهج العلميِّ الرَّصين مع الأصول الإسلاميَّة ومبادئها الفكرية، وبما يتوافق مع الحاجات المعرفيَّة المعاصرة؛ وبما يمكن التنبُّؤ به من حاجاتٍ معرفيَّة مستقبليَّة فتهيِّء إجاباتٍ مسبقةً عن أهمِّ تساؤلات المعرفة.

الأهداف:

١. المشاركة الفاعلة في بناء مجتمع المعرفة وتصحيح مساراته بنشر بحوثٍ علميَّةٍ رصينةٍ محكَّمةٍ من لدن خبراء متخصصين.

٢. تلبية حاجات الباحثين في مجال التفسير القرآنيّ على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية كافَّة .

٣. إضافة رصيد علمي متخصص لخدمة الباحثين وإثراء المعرفة في مجال التفسير القرآني.

٤. توثيق الصِّلات المعرفيَّة ومدّ جسور التعاون بين المراكز البحثيَّة والجامعات الأكاديميَّة؛ بغية الارتقاء بالمعرفة التفسيريَّة وإخراجها على نمطٍ يوازي المتطلبات المعاصرة.

٥. بيان رؤية النَّبي وأهل بيته عليهم السلام للخطاب القرآنيّ وأساليب تحليله، وأسس فهمه ومحدِّدات الاجتهاد لمن يتصدَّى لتفسيره.

٦. العمل على إظهار تفسير النَّبيِّ وأهل بيته عليهم السلام للقرآن الكريم، وجعله بوصلةً تنتظم عليه التفاسير الأُخَر؛ بوصفهم عِدْلَ القرآن الكريم بنصِّ الرسول صلى الله عليه وآله.

٧. بيان المعارف القرآنيَّة التي فتق النَّبيِّ وأهل بيته عليهم السلام معادنها، وأهمُّها تأسيسهم لحفظ القرآن وصيانة لغته من اللحن، والعمل على ديمومتها وحفظها من الزوال .

٨. الكشف عن جهود أهل البيت عليهم السلام وأثرهم في مدونات المسلمين وغيرهم ودراستها على وفق رؤيةٍ علميَّةٍ متخصِّصة.

المُحتَوَيات

ص	عنوانُ البَحث	اسمُ الباحِث
٢٧	المرجعيَّاتُ القرآنيَّةُ عندَ الإمَامِ أبي عَبدِ اللهِ الصَّادقِ عليه السلام آيَاتُ (التَّوحِيدِ) أنمُوذَجًا	أ.د. محمد عباس نعمان الجبوري كليَّة الطفِّ الجامعة م. م آيات سالم جبار جامعة الكوفة / كليَّة التربية
٧٥	المعجمُ القرآنيُّ عندَ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام (ألفاظُ الرحمةِ) بين القرآنِ الكريم وكلامِ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام دراسةٌ إحصائيَّةٌ دلاليَّةٌ	أ. د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيار جامعة الكوفة/ مدير مركز التعليم المستمر
١٢٧	مَنزِلَةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام في القُرآنِ الكَريم دِراسةٌ في مضمُونِ الآياتِ التي أَشَارتَ إليهم وَتحليلهَا	أ. د عبد الكريم جديّع نعمه النّفّاخ جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية م. م زهراء أكبر كريمي جامعة زينب الكبرى / الجمهوريَّة الإيرانيَّة
١٨٥	التَّفسِيرُ اللّغويُّ في رِوَاياتِ الإمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام	أ.د. فضيلة عبوسي محسن العامري كليَّة الفقه– جامعة الكوفة

آيَاتُ الأَنفُسِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ
دِرَاسَةٌ تَحلِيلِيَّة

أ. م. د. خالد عبد النبي عيدان الأسدي
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة كربلاء

جَدَلِيَّة جَامِعِيَّة القُرآن الكَرِيم للأَحكَامِ الشرعِيَّة
دِرَاسَةٌ فِي ضَوءِ مَدرَسَةِ أَهلِ البَيتِ عليهم السلام

د. حسين فاضل محسن الحكيم
جامعة الكوفة/ كلية الفقه

رِيَادَةُ أَهلِ البَيتِ عليهم السلام فِي تَفسِيرِ القرآنِ بالقُرآن
دِرَاسَةٌ تَطبِيقِيَّةٌ وَتَحلِيلِيَّةٌ

م. م. سرمد فاضل علي الصفار

مَذهَبُ الثَّقَلَيْنِ فِي تَوحِيدِ اللهِ وَصِفَاتِهِ

الشيخ محمَّد مصطفى مصري العامليِّ
الحوزة العلميَّة في قم المقدَّسة

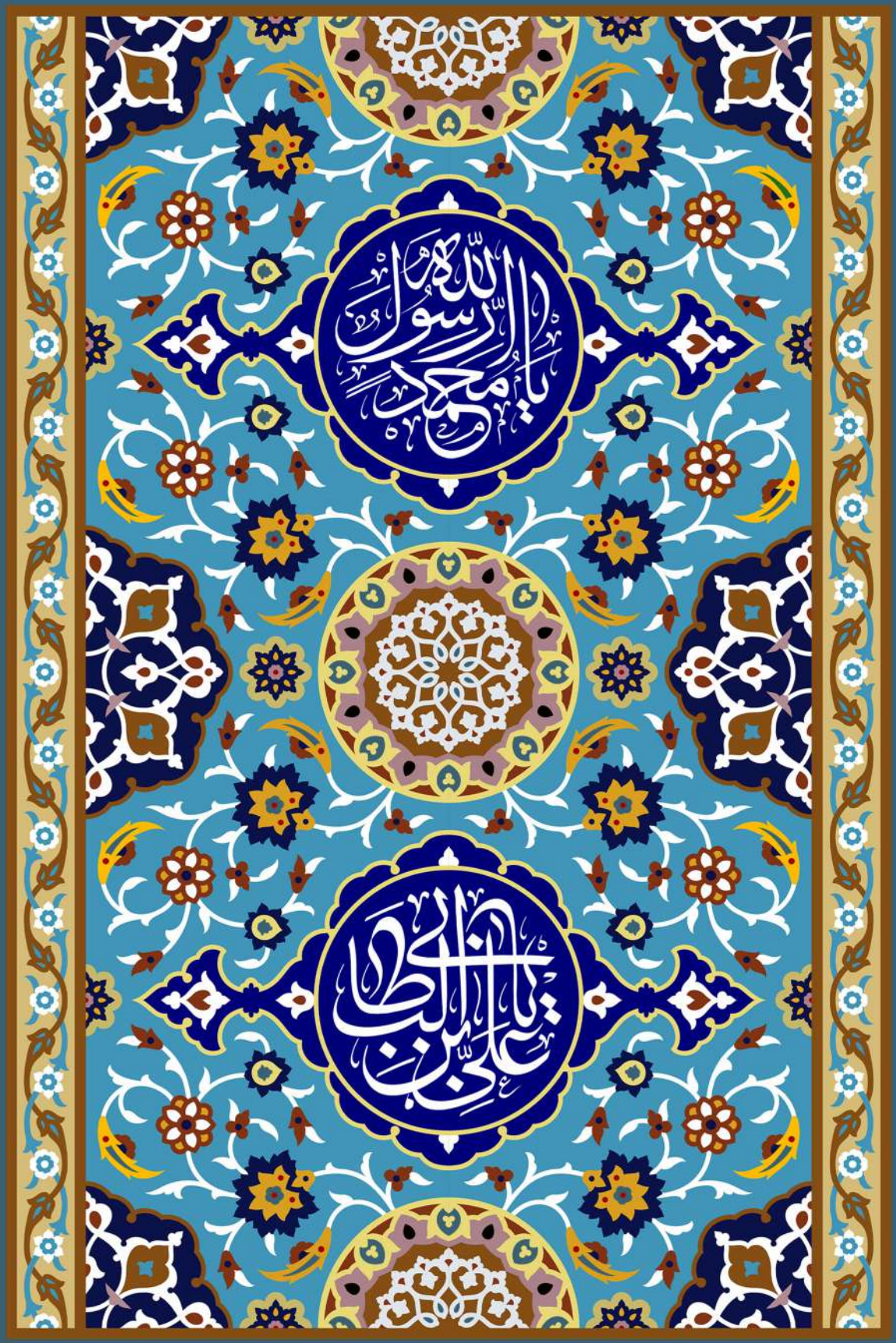
یا محمد رسول الله
یا علی بن ابی طالب

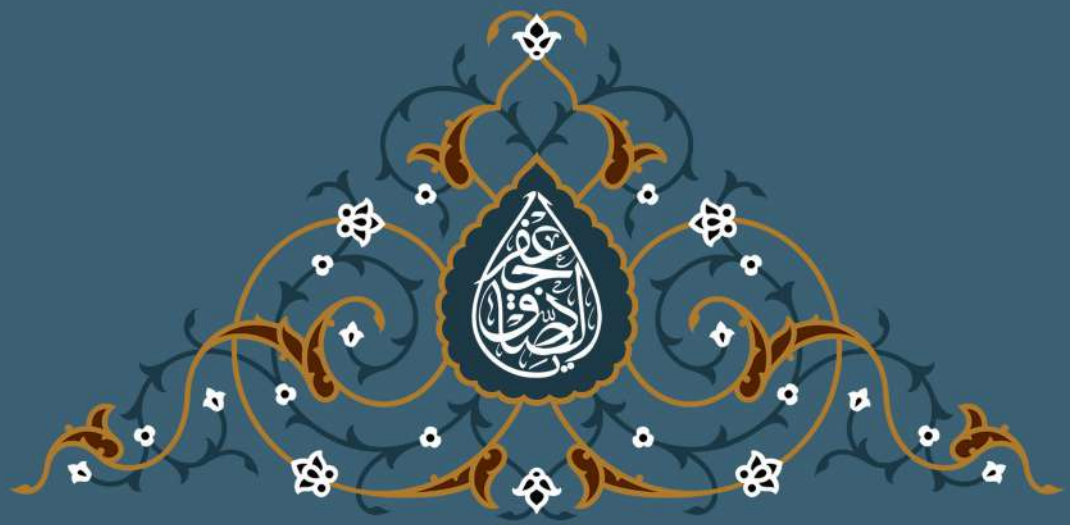

قَالَ الإمام الصَّادقِ عليه السلام: (عليكُم بتلاوة القرآن؛ فإنَّ درجاتِ الجنّة على عَدَد آيات القرآن، فإذا كان يومُ القيامة قيل لقارئ القرآن: اقْرَأ وارقَ. فكلّما قرأ آية يرقى درجة)

وسائل الشيعة: 4/ 842

المرجعيَّاتُ القرآنيَّةُ عندَ الإمَام أبي عَبدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عليه السلام
آيَاتُ (التَّوحِيدِ) أَنمُوذَجًا

الأستاذ المتمرِّس

أ.د. محمد عباس نعمان الجبوري

كليَّة الطفِّ الجامعة

Prof. Dr. Muhammad Abbas Naaman Al-Jubouri

(College of Al Taff University)

م. م آيات سالم جبار

جامعة الكوفة/ كليَّة التربية

Ayat Salem Jabbar

(University of Kufa/College of Education)

الملخَّص:

شكَّلَ القرآنُ الكريمُ رافِدًا أَسَاسِيًّا لدَى أَئِمَّةِ أَهلِ البَيْتِ عليهم السلام، فَكَانَ حُضُورُ النَّصِّ القُرْآنِيِّ في كَلَامِهِم عليهم السلام شَاهِدًا حَيًّا عَلَى عُمْقِ صِلَتِهِم بالقُرآنِ الكَرِيمِ واندماجِهِم بِهِ؛ إِذْ إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ نَزَلَ في بيوتِهِم، وهُمْ أعلمُ بدقائقِهِ وتفاصيلِهِ من غيرِهِم، فَهُم عليهم السلام القائمونَ على الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، ولم يقتَصِرْ عَمَلُهُم على بيانِ مرادِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وأهدافِها السَّاميَةِ فحسب؛ بل دافَعُوا عنِ الْعقيدةِ الصَّحيحةِ، ومن أهمِّ المسائلِ العقديَّةِ التي تصدَّى لها أئمَّةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام هي مسألةُ التَّوحيدِ التي مِنهَا: نَفيُ الجسميَّةِ، وأنَّه (سبحانه) ليس بجوهرٍ ولا عرضٍ، وأنَّه لا يشبهُ أحدًا من المخلوقاتِ، ومُنَزَّهٌ عن جميعِ سماتِ الحدوثِ، ومُنَزَّهٌ عنِ المكانِ؛ فلا مكانَ يحويه، ومُنَزَّهٌ عن الزَّمانِ فلا يجري عليه زمانٌ، والتأكيدُ على نفي رؤيتِهِ عز وجل في الدنيا والآخرة.

الكلمات المفتاحيَّة: الإمام الصادق عليه السلام، المرجعيَّات القرآنيَّة، التوحيد.

Abstract:

The Holy Quran has been a fundamental source for the Imams of Ahl al-Bayt (peace be upon them), with the presence of Quranic texts in their speech serving as a living testimony to their profound connection with and integration into the Quran. The Holy Quran was revealed in their homes, and they are more knowledgeable about its nuances and details than others. They (peace be upon them) were the upholders of Islamic law. Their role was not limited to explaining the intent and noble goals of Islamic teachings but also extended to defending the true creed. One of the most significant theological issues addressed by the Imams of Ahl al-Bayt (peace be upon them) was the matter of monotheism, including: the negation of corporeality, that He (Glorified be He) is neither a substance nor an accident, that He does not resemble any of His creations, that He is free from all attributes of contingency, that He is beyond space and thus is not contained by any place, and that He is beyond time and not subject to its flow, with an emphasis on the denial of seeing Him (Glorified and Exalted) in this world and the Hereafter.

Keywords: Imam Al-Sadiq, Quranic references, monotheism.

مقدِّمة:

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَوْلَاه مَا جَرَى قَلَمٌ، وَلَا تَكَلَّمَ لِسَانٌ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ، أَفْصَحُ النَّاسِ لِسَانًا، وَأَوْضَحُهُمْ بَيَانًا، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

درسَ البحثُ المرجعيَّات القرآنيَّة عندَ الإمام أَبي عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام، فقرأ آيات (التوحيد)؛ إذ تعتقدُ مدرسةُ أهلِ البيت عليهم السلام أنَّ للإمامة الحقَّة ارتباطًا وثيقًا بجميع مفاصل العقيدة الإسلاميَّة، ولا سيَّما مسألةُ التوحيد، فالتوحيدُ الحقُّ لا يُعرَفُ إلَّا من طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّهم عِدلُ القرآن، ولأنَّهم الراسخونَ في العلم؛ ولأنَّ هذه القضيَّةَ بالغةُ الأهميَّة، وتنبعُ أهمِّيَّتُها بتعلُّقها بالإيمان والكفر، وقد انبرى الإمامُ عليه السلام لمعالجتِها؛ إذ بانَت المرجعيَّات القرآنيَّة في كلامه عليه السلام، وهذا يعودُ إلى اندماج روح الإمام عليه السلام بالقرآن الكريم، فكانَ عليه السلام عالمًا بظاهر القرآن وباطنه، واعيًا بالعلاقات التركيبيَّة التي بُنيت عليها الجملةُ القرآنيَّةُ، وقد تعدَّدَت الآياتُ القرآنيَّةُ التي استقى منها الإمامُ عليه السلام وجوهَ الدَّلالة على أنَّ صفاتِ اللَّه تعالى هي عينُ ذاته، وتنزيهه تعالى عن الجسميَّة، والحيِّز، والمكان، وغير ذلك.

لذا تطلَّع الباحثان إلى دراسة المرجعيَّات القرآنيَّة عند أحد أعلام الهدى، ومؤسِّس المذهب الشيعيِّ الإمام جعفر بن محمَّد الصَّادق(ت:١٤٨هـ)؛ ليرتشفَا جانبًا من جوانب علمه، ويُسهما في نشر مضامين الكتاب الكريم الصحيحة، وإبراز فكر الإمام عليه السلام الذي طالما استنار به متَّبعوه، واستَهدَى بهديه مُحبُّوه.

لمَّا كانت مسألةُ التوحيد تضمُّ كثيرًا من المسائل، اقتضت طبيعةُ البحث تتبُّعَ بعضِ هذه المسائل التي وردَت عندَ الإمام الصَّادق عليه السلام فانتظمَ البحثُ في مقدِّمةٍ

وثلاثةِ مباحثَ، حملَ المبحثُ الأوَّلُ عنوانَ أسماء اللَّهِ تعالى وصفات أفعاله، وخُصِّصَ المبحثُ الثاني لإبطال رؤية اللَّه تعالى، واتَّسمَ المبحثُ الثالثُ بعنوانِ نفي الزمان والمكان، ثمّ خُتِمَ العملُ بخاتمةٍ ضمَّت أهمَّ النتائجِ التي توصَّلَ إليها البحثُ.

المبحث الأوَّل- أسماءُ اللَّهِ تعالى وصفاتُ أفعاله:

شكَّلَت أسماءُ اللَّهِ الحسنى عنوانًا دالًّا على الذَّاتِ المقدَّسةِ، وطريقًا موصلًا إلى حضرتِه الإلهيَّة المكرَّمةِ، وأحدُ معاني الأسماءِ هي العلامةُ، وأسماءُ اللَّه سبحانه هي علاماتٌ على ذاتِهِ المقدَّسةِ[1]، ولا سبيلَ لمعرفةِ الحقِّ سبحانه وتعالى إلَّا من طريقِ تلكَ الأسماءِ والصِّفاتِ، فلمَّا كانَ الحقُّ سبحانه وتعالى بسيطًا لا ماهيَّةَ له، ولمَّا كانَ العقلُ لا يَكتَنِهُ إلَّا الماهيَّاتِ فحسب، فقد استحالَتْ على العقلِ معرفةُ اللَّهِ تعالى، والعقلُ يعرفُ اللَّهَ سبحانه بأسمائِه وصفاتِه الذَّاتيَّةِ والفعليَّةِ[2]؛ إذ روى محمَّد بن يعقوب الكليني(ت: ٣٢٩هـ) بسندِه عن ابنِ رئاب، وعن غيرِ واحد، عن أبي عبدِ اللَّهِ عليه السلام قالَ: ((مَن عبدَ اللَّهَ بالتَّوهُّم فقد كفرَ، ومَن عبدَ الاسمَ دونَ المعنى فقد كفرَ، ومَن عبدَ الاسمَ والمعنى فقد أشركَ، ومَن عبدَ المعنى بإيقاعِ الأسماءِ عليه بصفاتِه الَّتي وصفَ بها نفسَه فعقدَ عليه قلبَه ونطقَ به لسانُه في سرائرِه وعلانيَّتِه، فأوَّلئك أصحابُ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام حقًّا، وفي حديثٍ آخرَ أوَّلئك هم المؤمنون حقًّا))[3].

فقد ركنَ أبو عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام إلى صفاتِ أفعالِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وأسمائِه التي وردَت في القرآنِ الكريم، فضمَّنَها في بعضٍ من مواضعِ كلامِه، ذاكرًا ومبيِّنًا لمَا أخفَى وأشكَلَ، بوصفِها مرجعيَّاتٍ قرآنيَّةً لمعطياتِ خطابِه؛ إذ روى محمَّد بن يعقوب الكليني بسندِه عن عبدِ اللَّهِ بنِ سنانٍ، عن أبي عبدِ اللَّهِ عليه السلام أنَّه قالَ: ((اللَّهُ إلهُ كلِّ شيءٍ، الرَّحمنُ بجميعِ خلقِه، والرَّحيمُ بالمؤمنين خاصّة))[4] وممَّا يُعضِّدُ ذلك في المعنى ذاتِه ما وردَ عنه عليه السلام عندما سألَه هشامُ بنُ الحكمِ عن

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل:٩/ ١٧٧.

(٢) ينظر: تعليقة على نهاية الحكمة:٨٦.

(٣) الكافي: ١/ ٨٧.

(٤) الكافي: ١/ ١١٤، وينظر: التوحيد: ٢٥٢، ومعاني الأخبار: ١/ ٤٠.

(اسم اللَّه واشتقاقه) ممَّا اشتُقَّ؟ قال: ((فقال له: يا هشام اللَّه مشتقٌّ من إله، والإله يقتضي مألوهًا، والاسم غير المسمَّى، فمَن عبدَ الاسم دونَ المعنى فقد كفرَ، ولم يعبدْ شيئًا، ومَن عبدَ الاسمَ والمعنى فقد كفرَ، وعبدَ اثنين، ومَن عبدَ المعنى دون الاسم فذاك التّوحيد، أفهمتَ ياهشام؟ قال: فقلتُ: زدني...))[١].

(فاللَّه) أشملُ أسماء ربِّ العالمينَ، وكلُّ اسم وردَ للَّه (سبحانه) في الكتاب الكريم، وسائر المصادر الإسلاميَّة، يشيرُ إلى جانب معيَّن من صفات اللَّه (سبحانه) والاسمُ الوحيدُ الجامعُ لكلِّ الصِّفات والكمالات الإلهيَّة، أو الجامعُ لكلِّ صفات الجلال والجمال هو(اللَّه)؛ لذلكَ عُدَّت الأسماءُ الأخرى صفات لكلمة (اللَّه) فهي وحدها الجامعةُ، ومن هنا اتخذَت هذه الكلمةُ صفات عدَّةً في آية كريمة واحدة؛ إذ يقولُ تعالى في كتابه:﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر: ٢٣) فأحدُ شواهد جامعيَّة هذا الاسم أنَّ التوحيدَ لا يمكنُ إعلانُهُ إلَّا بعبارة (لا إلهَ إلَّا اللَّهُ) ولهذا السبب يُشارُ في الأديان الأخرى إلى معبود المسلمينَ باسم(اللَّه) وهذه التسميةُ الشاملةُ خاصَّة بالمسلمينَ، وقد اهتمَّ الإمامُ السَّجادُ بلفظ الجلالة (اللَّه) من دون غيره من الأسماء الحسنى؛ لأنَّه الاسمُ الأعظمُ والأشملُ والجامعُ[٢].

وقد ذهبَ العلَّامةُ الطباطبائيُّ في بيان معنى (اللَّه) قائلًا: ((وأمَّا لفظُ الجلالة، فاللَّهُ أصلُه الإله، حُذفت الهمزةُ لكثرة الاستعمال، وإله من أله الرجل يأله بمعني عبد، أو من إله الرجل أو وله الرجل أي تحيَّر، فهو فِعال بكسر الفاء بمعنى المفعول، ككتاب بمعنى المكتوب سُمِّي إلها؛ لأنَّه معبود، أو لأنَّه مما تحيَّرت في ذاته العقولُ، والظاهر أنَّه علم بالغلبة، وقد كان مستعملًا دائرًا في

(١) الكافي: ١/ ٨٧.

(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل:١/ ٣٠-٣١.

الألسن قبل نزول القرآن، يعرفه العرب الجاهلي))[١] كما يشعرُ به قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: ٨٧)، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٦) و((ممَّا يدلُّ على كونِه علمًا أنَّه يُوصَفُ بجميعِ الأسماءِ الحسنى، وسائرِ أفعالِه المأخوذةِ من تلك الأسماءِ من غيرِ عكسٍ، فيقال: اللَّه الرحمن الرحيم، ويقال: رحم اللَّه، وعلم اللَّه، ورزق اللَّه، ولا يقعُ لفظُ الجلالةِ صفةً لشيءٍ منها، ولا يُؤخذُ منه ما يُوصفُ به شيءٌ منها، ولمَّا كانَ وجودُه سبحانه، وهو إله كلِّ شيء يهدي إلى اتِّصافه بجميع الصفات الكماليَّة، كانت الجميع مدلولا عليها به بالالتزام، وصحَّ ما قيل إنَّ لفظَ الجلالة اسم للذات الواجب الوجود، المستجمع لجميع صفات الكمال، وإلَّا فهو علم بالغلبة لم تعمل فيه عناية غير ما يدلُّ عليه مادَّة إله))[٢] وإلى هذا المعنى ذهبَ جلُّ مفسِّري الشيعةِ الإماميَّةِ إلى أنَّ اسمَ اللَّه هو أعظمُ الأسماءِ وأشهرُها، وأعلاها محلًّا، وأكثرُها ذكرًا، والاسمُ الجامعُ لجميع الصِّفاتِ الإلهيَّة[٣]، إلاَّ أنَّ مفسِّري أهلِ العامَّةِ والسُّنَّة قد اختلفوا في أنَّه الاسمُ الجامعُ للصِّفَاتِ الإلهيَّة[٤]. أمَّا الرحمن، الرحيم فبيَّنها عليه السلام في قوله: ((الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة))[٥] وأمَّا الوصفان:(الرحمن الرحيم)

---

(١) الميزان في تفسير القرآن:١/ ١٧، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن:١/ ٥٠-٥١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن:١/ ١٧، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن:١/ ٥٠-٥١.

(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن:١/ ٧٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن:١/ ٥٠-٥١، والميزان في تفسير القرآن:١/ ١٧، والأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١/ ٣٠-٣١.

(٤) ينظر: النكت والعيون:١/ ٥٠، والزاد المسير: ١/ ١٨، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٦٩، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٣، وفتح القدير:١/ ٣١.

(٥) الكافي: ١/ ١١٤، وينظر: التوحيد: ٢٥٢، ومعاني الأخبار: ١/ ٤٠.

فهما اسمان وضِعَا للمبالغةِ، واشتُقَّا من الرحمةِ الَّتي لا نَظِيرَ لَهُ فِيها، وهي النعمةُ، إلَّا أنَّ (فعلانَ) أشُّدُ مبالغةٍ من (فعيلٍ) وهو وصفٌ انفعاليٌّ ينمُّ عن تأثُّرٍ خاصٍّ يلمُّ بالقلبِ عند مشاهدةِ من يُفقَدُ، أو يحتاج إلى ما يتمُّ به أمرُه، فيبعثُ الإنسانَ إلى تتميمِ نقصِه، ورفعِ حاجتِه، وهذا المعنى يرجعُ - بحسبِ التحليلِ - إلى الإعطاءِ والإفاضةِ؛ لرفعِ الحاجةِ، وبهذا المعنى يتَّصفُ سبحانه بالرحيم[1].

وقد اشتهرَ بينَ جماعةٍ من المفسِّرينَ أنَّ صفةَ (الرحمن) تشيرُ إلى الرحمةِ الإلهيَّةِ العامَّةِ، وهي تشملُ الأوَّلياءَ والأعداءَ، والمؤمنينَ والكافرينَ، والمحسنينَ والمسيئينَ، فرحمتُهُ تعمُّ المخلوقاتِ، وخوان فضله ممدودٌ أمامَ جميعِ الموجوداتِ، وكلُّ العبادِ يتمتَّعونَ بموهبةِ الحياةِ، وينالونَ حظَّهم من مائدةِ نعمِه اللامتناهية، وهذه هي رحمتُهُ العامَّةُ الشاملةُ لعالمِ الوجودِ كافَّة، وما تسبحُ فيه من كائناتٍ، وصفة (الرحيم) إشارة إلى رحمتِه الخاصَّةِ بعبادِه الصالحينَ المطيعينَ، قد استحقُّوها بإيمانِهم وعملِهم الصالحِ، وحُرِمَ منها المنحرفونَ والمجرمونَ، وهو أمرٌ يشيرُ إلى هذا المعنى أنَّ صفةَ (الرحمن) ذُكِرت بصورةٍ مطلقةٍ في القرآنِ الكريم ممَّا يدلُّ على عموميَّتِها، لكنَّ صفةَ (الرحيم) ذُكِرت -أحيانًا- مقيَّدةٌ؛ لدلالتِها الخاصَّة، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٣) وأحيانًا أخرى مطلقة كما في سورة الأحزاب[2]، وإنَّما قدَّم (الرحمن) على (الرحيم)؛ لأنَّ الرحمنَ بمنزلةِ اسمِ العلمِ بلحاظِ أنَّه لا يُوصفُ به إلَّا اللَّهُ سبحانه، فوجبَ لذلك تقديمه، بخلاف (الرحيم) لأنَّه يُطلقُ عليه سبحانه، وعلى غيره[3]،

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٥٢، والزاد المسير: ١/ ١٨، والميزان في تفسير القرآن:١/ ١٨.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٥٢، ومعالم التنزيل:١/ ٣٨، والأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل:١/ ٣٢.

(٣) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٥٢.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أنَّ كلمة (الرحمن) عدُّوها صيغةَ مبالغةٍ، ولذلك كانت دليلًا آخرَ على عموميَّة رحمته، وعدُّوا (الرحيم) صفةً مشبَّهةً تدلُّ على الدوامِ والثباتِ، وهي خاصَّة بالمؤمنين[١]، وثَمَّ دليل آخر مفاده؛ أنَّ (الرحمن) من الأسماء الخاصَّة باللَّه سبحانه، ولا تستعمل لغيره، بينما (الرحيم) صفة تنسب للَّه سبحانه وللعباد، فالقرآن الكريم وصف بها الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة: ١٢٨) وإلى هذا المعنى أشارَ أبو عبد اللَّه عليه السلام بحسب ما بيَّنَّاه من طريق مرويَّاته[٢]؛ إذ نلحظُ أنَّ الدليلَ القرآنيَّ صريحٌ في كلامه عليه السلام من طريق قوله: إنَّ (الرحيم) خاصَّة بالمؤمنين كما ورد في سورة الأحزاب والتوبة، ومع كلِّ هذا، نجد كلمة (الرحيم) تستعمل أحيانا في مواطن الوصف العام، وهذا يشير إلى أنَّ التمييز المذكور بين الكلمتين، إنَّما هو في جذور كلٍّ منهما، ولا يخلو من استثناء، وفي دعاء عرفة – المنقول عن سيِّد الشهداء أبي عبد اللَّه الحسين بن علي عليهما السلام وردت عبارة: ((يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما))[٣] فورد لفظ (الرحمن) في الكتاب الكريم منفردًا تارة، وأخرى منضمًّا إلى لفظ الجلالة في قوله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١) فيه دلالة على أنَّه اسمٌ عَلَمٌ للَّهِ عز وجل، ويتجلَّى ذلك بوضوح عند إفرادِه لهذا الاسم؛ إذ وردَ في أكثر من موضعٍ في القرانِ الكريم منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥)، وقال تعالى:﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ١-٢).

---

(١) ينظر: الأمثل في كتاب اللَّه المنزل: ١/ ٣٢.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٥٢، والميزان في تفسير القرآن: ١/ ١٨، والأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزَّل: ١/ ٣٢.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٥٤.

نختمُ ما عرضْنَاه بحديثٍ عميقِ المعنى أوردَه أمينُ الإسلام الطبرسي عن خاتم الأنبياءِ والمرسلينَ محمدٍ ﷺ قال: ((إنَّ للَّهِ ﷻ مائةُ رحمةٍ، وإنَّه أَنزلَ منها واحدةً إلى الأرضِ، فقسمَها بين خلقِه، بها يتعاطفون ويتراحمون، وأخَّر تسعًا وتسعينَ لنفسِه يرحمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ))[1].

من يتتبَّعُ النصوصَ القرآنيَّةَ الكريمةَ يجدُ كثيرًا منها تشيرُ إلى الأدِلَّةِ على وجودِه تعالى، وفي الوقتِ ذاتِه لا يجدُ آيةً واحدةً تشيرُ إلى تحديدِ ذاتِه القُدسيَّةِ، وبيانِ كنهِها وحقيقتِها، فاللَّهُ ﷻ يُوصفُ بكلِّ ما وصفَ به نفسَه في كتابِه، قالَ شيخُ الطائفةِ الطوسيُّ(ت: ٤٦٠هـ): ((وإذا ثبتَ بذلك كونه قادرًا عالمًا بنفسه، لوجبَ أن يكونَ قادرًا على جميعِ الأجناسِ، ومن كلِّ جنسٍ على ما لا يتناهى؛ لأنَّه لا مُخصِّصَ له بقدرٍ دون قدرٍ، ويجبُ مثل ذلك في كونه عالمًا أن يكون عالمًا بجميع المعلومات، إذ لا مُخصِّصَ له ببعضِها دون بعض، فيجبُ من ذلك كونه عالمًا قادرًا على ما لا يتناهى، وإذا ثبت كونه قادرًا عالمًا في الأزل وجبَ كونه حيًّا موجودًا في الأزل؛ إذ القادر العالم لا بدَّ أن يكون حيًّا موجودًا))[2].

فمدرسةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام تذهبُ إلى أنَّ صفاتِه هي عينُ ذاتِه، أي إنَّها تثبتُ الصفاتِ، لكن من دونِ تشبيهٍ، وتنزِّهُه تعالى عن صفاتِ المخلوقينَ، و((نعتقدُ أنَّ اللَّه تعالى واحد أحد ليس كمثله شيء، قديم لم يزل ولا يزال، هو الأوَّل والآخر، عليم، حكيم، عادل، حيٌّ، قادر، غنيٌّ، سميع، بصير، ولا يُوصف بما تُوصف به المخلوقاتُ، فليس هو بجسمٍ ولا صورة، وليس جوهرًا ولا عرضًا، وليس له ثقل أو خفة، ولا حركة أو سكون، ولا مكان ولا زمان، ولا يشار إليه، كما لا ندَّ له، ولا شبه، ولا ضدَّ، ولا صاحبة له ولا ولد، ولا شريك، ولم يكن له كفوا

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٤، وينظر: تفسير الصافي:١/ ٨٢.
(٢) الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد:٣٤.

أحد، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار))[١] هذا ما تؤكِّده الرواياتُ الواردةُ عن أهلِ البيتِ عليهم السلام بخلاف ما ذهب إليه بعض المسلمين أنَّ صفاتِه تعالى غيرُ ذاتِه وزائدةٌ عليها، ونُسِب مثل هذا القول إلى الأشاعرة، وقد ردَّ عليهم العلَّامة الحليُّ(ت: ٧٢٦هـ) بعد أن ذكرَ معتقدَهم، قائلًا: ((وقالت الأشاعرة: إنَّه تعالى يستحقُّها، لمعان قديم قائم بذاته، فلزمهم المحال من وجوده: يلزم افتقار اللَّه تعالى إلى غيره، في كونه: قادرًا، عالمًا، حيًّا، وغير ذلك من الصفات؛ لأنَّ المعاني أمور مغايرة لذاتِه، وكلُّ مفتقرٍ ممكنٌ، واللَّهُ تعالى ليس بممكنٍ، فلا يكونُ مفتقرًا، ولا تكونُ صفاتُه تعالى معلَّلَةً بغيرِه، ويلزمُ أن يكونَ مع اللَّهِ تعالى في الأزلِ قدماء كُثر، بقدر صفاته، وهو محال لاختصاصه سبحانه وتعالى بالقدم))[٢] فينبغي نفي الصفاتِ عنه تعالى؛ لأنَّها صفاتٌ لذاتِ اللَّهِ سبحانه، بل هي نفسُ الذَّاتِ القدسيَّة التي تقدرُ على كلِّ شيءٍ، وقد أكَّدَ الإمامُ الصَّادق على ذلك بقولِه عليه السلام عن أبان بن عثمان الأحمر، قال: قلت للصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام: أخبرني عن اللَّه تبارك وتعالى لم يزل سميعًا بصيرًا عليمًا قادرًا، قال: ((نعم فقلت له: إنَّ رجلًا ينتحل موالاتكم أهل البيت، يقول: إنَّ اللَّه تبارك وتعالى لم يزل سميعًا بسمع وبصيرًا ببصر وعليمًا بعلم، وقادرًا بقدرة، فغضب عليه السلام ثم قال: من قال ذلك ودان به فهو مشرك، وليس من ولايتنا على شيء، إنَّ اللَّه تبارك وتعالى ذات علامة سميعة بصيرة قادرة))[٣] ومرجع الإمام عليه السلام في ذلك إلى أنَّه السميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذَّات، ولا اختلاف المعنى، مستوحى من القرآن الكريم، وهذا ما نجده في مناظرته مع زنديق حينما سأله عن ذلك فأجابه عليه السلام: ((أنَّه قال له أتقول:

(١) عقائد الإماميَّة: ٣٦، وينظر: قلائد الخرائد في أصول العقائد: ٥٠، ومعراج اليقين في شرح نهج المسترشدين في أصول الدين: ٤٥-٤٧، ومجالس الموحدين في بيان أصول الدين وأحوال الحجج المعصومين: ٢١.

(٢) الرسالة السعدية: ٥٠-٥١.

(٣) التوحيد: ١٤٤، وينظر: الأمالي، للصدوق: ٧٠٨.

إنَّه سميع بصير، فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: هو سميع بصير، سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه، ويبصر بنفسه، وليس قولي: إنَّه سميع بنفسه، أنّه شيء والنَّفس شيء آخر، ولكنِّي أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولا وإفهاما لك؛ إذ كنت سائلا، فأقول: يسمع بكلِّه لا أنَّ كلَّه له بعض؛ لأنَّ الكلَّ لنا له بعض، ولكن أردت إفهامَك والتّعبير عن نفسي وليس مرجعي في ذلك كلِّه، إلَّا أنَّه السَّميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذَّات و لا اختلاف معنى))[1].

فالإمامُ الصَّادقُ عليه السلام يستندُ إلى القرآن الكريم في بيانِ صفاتِ أفعالِ اللَّهِ تعالى وأسمائِه في المواضعِ التي تخفَى ويشكلُ أمرُها على الآخرينَ، ولا امتراءَ في أنَّ أباعبد اللَّه عليه السلام -كآبائه الكرام- قد عرضَ لهذه الأسماءِ والصفاتِ التي وردَت في القرآنِ الكريمِ، والتي تحتاجُ إلى الإبانةِ والتوضيحِ، لمَا تركَّزَ في الأذهانِ منذُ نزولِ القرآنِ الكريمِ من مفاهيمَ ماديَّةٍ ترسَّخَت فيها من محدوديَّةِ معبودِهم؛ لذا نجدُ الإمامَ عليه السلام قد تعمَّدَ بيانَ هذه الأسماءِ والصفاتِ الكريمةِ بعيدًا عن العالمِ الماديِّ الذي ألفَه العرب واعتادوه قديمًا، كما كان آباؤه الكرام الذين نقلوا المفاهيمَ من العالمِ الحسيِّ إلى الغيبيِّ، أسمَى وأرحبَ، ولا سيَّما أنَّ هذه الأسماءَ قد ارتبطَت بمفاهيمِ الحسِّ والمشاهدةِ.

لهذا المعنى تذهبُ مدرسةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام إلى أنَّ صفاتِه عينُ ذاتِه، أي تكثرُ في المفاهيم من دونِ المصاديقِ، وهذا يعني أنَّه تعالى سميعٌ بصيرٌ قادرٌ حيٌّ، وهذه الصفاتُ كثيرةُ المعاني دون الوسائلِ، أي ليس له آلة للسمع أو البصر، بل ذاتُه بسيطةٌ متَّصفةٌ بجميعِ صفاتِ الكمالِ والجمالِ، وقد تأمَّلَ الإمامُ عليه السلام بعضًا من أسماءِ اللَّهِ الحسنى، وصفاتِ أفعالِه التي وردَت في القرآنِ الكريمِ التي منها(السميع) و(البصير) وغيرهما، التي وردَت كثيرًا في القرآنِ الكريمِ في وصفِ

(١) التوحيد: ١٤٤، وينظر: الكافي: ١/ ٨٣.

الذَّاتِ المقدَّسةِ؛ إذ أخرجَ الكليني بسنده عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: ((لم يزل اللَّه عزّ وجلّ ربَّنا والعلم ذاته، ولا معلوم والسّمع ذاته، ولا مسموع والبصر ذاته، ولا مبصر والقدرة ذاته، ولا مقدور، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم، والسَّمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور، قال: قلت: فلم يزل اللَّه متحرِّكا؟ قال: فقال تعالى اللَّه عن ذلك:إنّ الحركة صفة محدثة بالفعل، قال: قلت: فلم يزل اللَّه متكلِّما قال: فقال: إنَّ الكلام صفة محدثة ليست بأزليَّة كان اللَّه عزّ وجلّ ولا متكلِّم))[1] فبيَّن الإمام عليه السلام- في النصِّ السابق- أنَّ السمع مختصٌّ بالأجسام الماديَّةِ الحيَّةِ، فالسَّمع بهذا النحو لا ينطبق بصفته على اللَّه تعالى، وهذا يعني أنَّه سميع بصير، وهذه الصِّفات كثيرة في المعاني من دون الوسائل، أي ليس له آلة للسمع أو البصر، بل ذاته بسيطة متصفة بجميع صفات الكمال والجمال، واستشفَ الإمامُ عليه السلام ذلك من قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وهذا ما نجده جليًّا في مرويَّات الإمام عليه السلام؛ إذ أخرجَ الصدوقُ بسنده: ((كلّ شيءٍ حسَّته الحواس، أو جسَّته الجواسُ، أو لمسته الأيدي فهو مخلوقٌ، واللَّهُ هو العليُّ، حيث ما يبتغى يُوجد، والحمدُ للَّهِ الذي كانَ قبلَ أن يكونَ كانٌ، لم يُوجد لوصفه كانٌ؛ بل كانَ أوَّلًا كائنًا لم يُكوِّنْهُ مُكوِّنٌ جلَّ ثناؤه، بل كوَّنَ الأشياءَ قبلَ كونها فكانَت كمَا كوَّنَها، علمَ ما كانَ وما هو كائنٌ كان إذ لم يكنْ شيء، ولم ينطقْ فيه ناطقٌ فكانَ إذ لا كانَ))[2].

تتضمَّنُ الآية الكريمةُ حقيقةً أساسيَّةً في معرفةِ صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ الأخر، ومن دونِها لا يمكنُ التوصُّلُ إلى أيِّ صفةٍ من صفاتِه تعالى؛ لأنَّ أكبرَ منزلقٍ يواجهُ السائرينَ

(١) الكافي: ١/ ١٠٧.

(٢) التوحيد: ٦٠.

في طريقِ معرفةِ اللَّهﷻ يتمثَّلُ في (التشبيه)؛ إذ يُشبِّهون اللَّهﷻ بصفاتِ مخلوقاته، وهو أمرٌ يؤدِّي بهم إلى السقوطِ في الشركِ[١]، وهذا ما بيَّنَّاه في الرواية المتقدِّمة، أي: ((أن يكون المراد لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في ماهيَّات الذات، أو أن يكونَ المرادُ ليس كمثلِه في الصفات شيء، والثاني باطل؛ لأنَّ العباد يُوصفون بكونِهم عالمينَ قادرينَ، كما أنَّ اللَّه تعالى يُوصف بذلك، وكذلك يُوصفون بكونِهم معلومينَ مذكورين، مع أنَّ اللَّه تعالى يُوصف بذلك، فثبت أنَّ المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أنَّ شيئًا من الذوات لا يساوي اللَّه تعالى في الذاتيَّة، فلو كان اللَّهُ تعالى جسمًا، لكان كونُه جسمًا ذاتًا لا صفة، فإذا كان سائرُ الأجسام مساويةً له في الجسميَّة، أعني في كونِها متحيِّزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذ تَكون سائرُ الأجسام مماثلةً لذاتِ اللَّه تعالى في كونِه ذاتًا، والنصُّ ينفي ذلك فوجبَ أن لا يكونَ جسمًا))[٢].

وإلى المعنى ذاتِه ذهبَ جلُّ مفسِّري الفريقينِ منهم الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)[٣]، والطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)[٤]، والبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)[٥]، والطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)[٦]، والعلَّامة الطباطبائي[٧]؛ إذ فسَّر الإمام الصادقعليه السلام قوله: (السميع البصير) في مناظرته مع زنديق حينما سأله عن ذلك فأجابهعليه السلام: ((أنَّه قال له: أتقول: إنَّه سميع بصير؟ فقال أبو عبد اللَّه: هو سميع بصير، سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة؛ بل يسمع بنفسه و يبصر بنفسه ...))[٨].

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١٥/ ٤٨٠.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٧٥٠.
(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ١٤٩.
(٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٩/ ٤١.
(٥) ينظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٣٦٠.
(٦) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٣٨٤٩.
(٧) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٨/ ٢٦.
(٨) الكافي: ١/ ٨٣، والتوحيد: ١٤٤.

فالسميع تُطلقُ على اللَّهِ تعالى مجازًا، وحقيقتُه العلمُ؛ لأنَّ السمعَ أحدُ أسبابِ العلم، فـ ((اللَّه سبحانه وتعالى سميعٌ يعودُ إلى علمِه بالمسموعاتِ))[1]، أمَّا لفظُ (البصير) فهو بمعنى ((الفاعل من البصر، والبصر حقيقة في حاسَّة العين؛ ولكنَّها تُطلقُ على اللَّه تعالى مجازًا في القوَّةِ التي بها العلم، وقد نقلَها الإمام عليه السلام من الفهم المألوفِ لآلةِ البصرِ إلى معنى أبعدَ وأشملَ يليقُ بصفةِ الربوبيَّة؛ لأنَّ آلةَ البصرِ محدودةٌ تتبيَّن الأشياءَ بوساطةِ ما يُلقى عليها من إضاءةٍ، وتعمى بذهابِ النورِ عنها))[2]، فيكون معناه أنَّه على ((صفةٍ يجب أن يسمعَ المسموعاتِ إذا وُجِدَت، ويبصرَ المبصراتِ إذا وجِدَت، وذلك يرجع إلى كونِه حيًّا لا آفةَ به، وفائدة ذكره هو أنَّه لما نفى أن يكون له شبه على وجه الحقيقة والمجاز، وعلى وجه من الوجوه، بيَّن أنَّه مع ذلك سميع بصير، لئلا يتوهَّم نفي هذه الصفة له على الحقيقة فقط، فإنَّه لا مدحة في كونه ممَّا لا مثلَ له على الانفراد؛ لأنَّ القدرةَ لا مثلَ لها، وإنَّما المدحة في أنَّه لا مثلَ له مع كونِه سميعًا بصيرًا، وذلك يدلُّ على التفرُّد الحقيق))[3].

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ دليل على نفي كون اللَّه تعالى جسمًا مركَّبًا من الأعضاء والأجزاء، وحاصلًا في المكان والجهة، وقالوا: لو كان جسمًا لكان مثلًا لسائر الأجسام في تمام الماهيَّة، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل؛ بصريح الآية الكريمة[4].

وقد ذهبَ الإمامُ عليه السلام إلى إثباتِ الصِّفاتِ، لكن من دونِ تشبيهٍ، وتنزيه اللَّه تعالى عن صفاتِ المخلوقينَ بحسب ما ورد عنه في الرواية الشريفة- وغيرها-

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٧٠.
(٢) الأثر القرآني في نهج البلاغة: ٢٩٦ .
(٣) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ١٤٩-١٥٠.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٥٠.

التي أخرجها محمد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩ هـ)، بسنده عن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ((إنَّ اللَّه تبارك وتعالى خلق اسمًا بالحروف غير متصوِّت، وباللَّفظ غير منطق، وبالشَّخص غير مجسَّد، وبالتَّشبيه غير موصوف، وباللَّون غير مصبوغ، منفيٌّ عنه الأقطار، مبعَّد عنه الحدود، محجوب عنه حسّ كلّ متوهّم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامَّة على أربعة أجزاء معًا ليس منها واحد قبل الآخر))[1]؛ أي إثبات الصفات الكماليَّة ولكن من دون تشبيه بخلقه عزّ وجلّ.

إنَّ وجودَ اللَّه تعالى ليس له نهاية ولا يُحدُّ بحدٍّ، وكلُّ شيء غيره له نهاية في كلِّ شيء، وهذا هو خطُّ تنزيه الخالق من نقائص الممكنات، لذا فإنَّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه وتعالى)، ولا ينطبق على ذاته المنزَّهة؛ بل ولا معنى له[2]؛ إذ بَيَّنَ عليه السلام بأنَّ اللَّه تعالى شيءٌ ليس كالأشياء؛ إذ أوردَ رئيسُ المحدِّثين الصدوق (ت: ٣٨١ هـ) قال: حدَّثنا علي بن إبراهيم بسنده، عن هارون بن عبد الملك، قال: سُئل أبو عبد اللَّه عن التوحيد، فقال: ((هو عزّ وجلّ مثبت موجود، لا مبطل ولا معدود، ولا في شيء من صفة المخلوقين، وله عزّ وجلّ نعوت وصفات، فالصفات له وأسماؤها جارية على المخلوقين، مثل السميع والبصير والرؤوف والرحيم وأشباه ذلك، والنعوت نعوت الذات لا تليق إلَّا باللَّه تبارك وتعالى، واللَّه نور لا ظلام فيه، و حيٌّ لا موت له، وعالم لا جهل فيه، وصمد لا مدخل فيه، ربُّنا نوريُّ الذَّاتِ، حيُّ الذَّاتِ، عالمُ الذاتِ، صمدي الذات))[3] فبَيَّنَ الإمامُ عليه السلام التوحيدَ الخالصَ، وروى الكليني بسنده، عن الحسن بن محمَّد بن خالد، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ((اسم اللَّه غيره، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا اللَّه، فأمَّا ما عبَّرته الألسن أو عملت

(١) الكافي: ١/ ١١٢، وينظر: الأمالي، للصدوق: ٢٢٤.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١٥/ ٤٨١.
(٣) التوحيد: ١٤٠، وينظر: الأمالي، للصدوق: ٣٥٣.

الأيدي فهو مخلوق، واللَّه غاية من غاياته، والمغيَّا غير الغاية، والغاية موصوفة، وكلُّ موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحدٍّ مسمًّى، لم يتكوَّن فيعرف كينونيَّته بصنع غيره، ولم يتناه إلى غاية إلَّا كانت غيره لا يزلّ من فهم هذا الحكم أبدًا، وهو التَّوحيد الخالص، فارعوه وصدِّقوه، وتفهَّموه بإذن اللَّه))[1].

ومن طريق الاطلاع على الروايات الواردة عن أبي عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام في صفات أفعاله تعالى، نلحظ أنَّه عليه السلام يقسِّم الناس في التوحيد بلحاظ صفات اللَّه عزوجل على ثلاثة مذاهب، وهي: إثبات بتشبيه، أي إثبات الصفات للَّه تعالى مع التشبيه بالمخلوق، ومذهب النفي أي: نفي الصفات عنه تعالى وهو مذهب التعطيل، ومذهب إثبات بلا تشبيه، أي إثبات الصفات للَّه تعالى مع السمع والبصر وغيرها من الصفات من دون تشبيه بالمخلوق[2].

استمد الإمام عليه السلام من القرآن الكريم معاني تنزيهه عزوجل؛ إذ استقى إيحاءات المعنى ليصل إلى أدقِّ المعاني التي يريد إيصالها إلى المتلقي، وهذه من معاني ألفاظ القرآن الكريم، قال تعالى في محكم كتابه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣) ففي معرض تفسيره للآية الكريمة قال: ((هو الأوَّل والآخر، وقلت: أمَّا الأوَّل فقد عرفناه، وأمَّا الآخر فبيَّن لنا تفسيره، فقال: إنَّه ليس شيء إلَّا يبيد أو يتغيَّر، أو يدخله التَّغيُّر والزَّوال، أو ينتقل من لون إلى لون، ومن هيأة إلى هيأة ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان ومن نقصان إلى زيادة إلّا ربّ العالمين، فإنَّه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأوَّل قبل كلِّ شيء، وهو الآخر على ما لم يزل، ولا تختلف عليه الصِّفات والأسماء، كما تختلف على غيره مثل الإنسان الَّذي يكون ترابًا مرَّة، ومرّة لحمًا ودمًا، ومرَّة رفاتًا ورميمًا، وكالبسر الّذي يكون مرَّة بلحًا ومرّة بسرًا ومرَّة رطبًا ومرَّة تمرًا، فتتبدَّل عليه الأسماء

(١) الكافي: ١/ ١١٣.

(٢) ينظر: التوحيد: ١٠/ ٦٦.

والصّفات، واللَّهﷻ بخلاف ذلك))[١]، وفي رواية أخرى تحمل المعنى نفسه ما أوردَه الكلينيُّ بسندِه، عن محمَّد بن حكيم، عن ميمون اللبَّان قال: ((سمعت أبا عبد اللَّهعليه السلام وقد سُئل عن الأوَّل والآخر فقال: الأوَّل لا عن أوَّل قبله ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية، كما يعقل من صفة المخلوقين؛ ولكن قديم أوَّل، آخر لم يزل، ولا يزول بلا بدء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث، ولا يحول من حال إلى حال، خالق كلّ شيء))[٢]. فـ((لما كان تعالى قديرًا على كلِّ شيء مفروض، كان محيطًا بقدرتِه على كلِّ شيءٍ من كلِّ جهةٍ، فكلّ ما فُرِض أوَّلا فهو قبلُه، فهو الأوَّل دون الشيء المفروض أوَّلا، وكلُّ ما فُرِضَ آخرا فهو بعده؛ لإحاطة قدرته به من كلِّ جهة، فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرًا، وكلُّ شيء فُرض ظاهرًا فهو أظهر منه؛ لإحاطة قدرته به من فوقه، فهو الظاهر دون المفروض ظاهرًا، وكلُّ شيء فُرض أنَّه باطن فهو تعالى أبطن منه؛ لإحاطته به من ورائه، فهو الباطن دون المفروض باطنًا، فهو تعالى الأوَّل والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق، وما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافيَّة نسبيَّة))[٣] وليست ((أوَّليَّته تعالى ولا آخريَّته ولا ظهوره ولا بطونه زمانيَّة ولا مكانيَّة بمعنى مظروفيَّته لهما، وإلَّا لم يتقدمهما ولا تنزه عنهما سبحانه؛ بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت وكيفما تصوَّرت))[٤].

قال ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) في تفسير الآية: ((﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ قبل كلِّ شيء بغير حدّ، ﴿وَالآخِرُ﴾ بعد كلِّ شيء بغير نهاية، وإنَّما قيل ذلك كذلك؛ لأنَّه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨))[٥].

(١) الكافي: ١/ ١١٥.
(٢) الكافي: ١/ ١١٦، وينظر: معاني الأخبار: ١٢.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ١٤٥.
(٤) المصدر نفسه: ١٩/ ١٤٥.
(٥) جامع البيان: ٢٣/ ٦٨، وينظر: الكشَّاف: ٤/ ٧٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٤/ ٢١٤.

وذهب الطوسيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ قيل في معناه قولانِ: أحدهما ((إنَّه كقول القائل: فلان أوَّل هذا الأمر، وآخره وظاهره وباطنه، أي عليه يدور الأمر وبه يتم، الثاني: هو أوَّل الموجودات؛ لأنَّه قديم سابق لجميع الموجودات، وما عداه محدث، والقديم يسبق المحدث بما لا يتناهي من تقدير الأوقات، والآخر بعد فناء كلِّ شيء؛ لأنَّه يفني الأجسام كلَّها وما فيها من الأعراض، ويبقي وحده، ففي الآية دلالة على فناء الأجسام))[1].

ولم يبتعد ابن عاشور عمَّا سبقه من المفسِّرين في بيان المعنى؛ إذ قال: ((﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾ الَّذِي لَيْسَ لِوُجُودِهِ بِدايَةٌ مُفْتَتَحَةٌ، ﴿والآخِرُ﴾: أيِ الدّائِمُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نِهايَةٌ مُنْقَضِيَةٌ. وقِيلَ: الأوَّل الَّذِي كانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، والآخِرُ الَّذِي يَبْقى بَعْدَ هَلاكِ كُلِّ شَيْءٍ))[2]، وبعد الاطِّلاع على جملةٍ من كتب التفسير نلحظ جلَّ المفسِّرين من الفريقينِ قد ذهبوا إلى المعنى نفسه من المتقدِّمين والمتأخِّرين منهم: الثعلبي (ت: ٤٢٧ هـ)[3]، والماوردي (ت: ٤٥٠ هـ)[4]، وابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ)[5] والحويزي (ت: ١١١٢ هـ)[6]، والمرجع المعاصر الشيرازي[7].

وذهب المفسِّرون في تفسير ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ إلى معانٍ عدَّة منها ما ذكره ابن جرير الطبري قال: ((﴿وَالظَّاهِرُ﴾: وهو الظاهر على كلِّ شيء دونه، وهو العالي فوق كلِّ شيء، فلا شيء أعلى منه، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ وهو الباطن جميع الأشياء، فلا شيء

(١) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٥١٨-٥١٩.
(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ٢١٦.
(٣) ينظر: الكشف والبيان: ٣/ ١٢٥.
(٤) ينظر: النكت والعيون: ٤/ ٢٣١.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٢٥٧.
(٦) ينظر: تفسير نور الثقلين: ٩/ ٢٤٧.
(٧) ينظر: الأمثل في كتاب اللَّه المنزل: ١٨/ ١٣.

أقرب إلى شيء منه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦))[١] وقال الطوسيُّ: إنَّ في معنى (الظَّاهِرُ وَالباطِنُ) قولين: أحدهما ((إنَّه العالم بما ظهر وما بطن، الثاني: إنَّه القاهر لما ظهر و ما بطن من قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤)، ومنه قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، و قيل: المعنى إنَّه الظاهر بأدلَّته، الباطن من إحساس خلقه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣)، ما يصح أن يكون معلومًا، لأنَّه عالم لنفسه))[٢]، وذهب الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ((وَالظَّاهِرُ بالأدلة الدالة عليه وَالْباطِنُ لكونه غير مدرك بالحواس))[٣] ويرى البيضاويُّ (ت: ٦٨٥هـ) ((الظَّاهِرُ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ دَلائِلِهِ والباطِنُ حَقِيقَةُ ذاتِهِ فَلا تَكْتَنِهُها العُقُولُ، أوالغالِبُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ والعالِمُ بِباطِنِهِ والواوُ الأولى والأخِيرَةُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ، والمُتَوَسِّطَةُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ المَجْمُوعَيْنِ))[٤].

وقال أبو حيان (ت: ٧٤٥هـ): (((والظَّاهِرُ) بِالأدِلَّةِ ونَظَرِ العُقُولِ في صِفَتِهِ، (والباطِنُ) لِكَوْنِهِ غَيْرَ مُدْرَكٍ بِالحَواسِّ))[٥] ولم يبتعد أبو السعود (ت: ٩٨٢هـ) عمَّا ذهب إليه من سبقه من المفسِّرين في بيان معنى الآية؛ إذ قال: ((﴿والظَّاهِرُ﴾ وُجُودًا لِكَثْرَةِ دَلائِلِهِ الواضِحَةِ، ﴿والباطِنُ﴾ حَقِيقَةً فَلا تَحُومُ حَوْلَهُ العُقُولُ، والواوُ الأولى والأخِيرَةُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ المُكْتَنِفَيْنِ بِهِما والوُسْطى لِلْجَمْعِ بَيْنَ المَجْمُوعِينَ، فَهو مُتَّصِفٌ بِاسْتِمْرارِ الوُجُودِ في جَمِيعِ الأوْقاتِ والظُّهُورِ والخَفاءِ))[٦].

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٦٨.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ٩/ ٥١٩.
(٣) الكشَّاف: ٤/ ٧٢، وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٤/ ٢١٤.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥/ ٢٩٦.
(٥) البحر المحيط: ٨/ ٢١٦.
(٦) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٧١.

وذهب العلامة الطباطبائي إلى أنَّ هذه الأسماء الأربعة الأوَّل والآخر والظاهر والباطن ((من فروع اسمه المحيط، وهو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطة بكلِّ شيء، ويمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكلِّ شيء، فإنَّه تعالى ثابت قبل ثبوت كلِّ شيء، وثابت بعد فناء كلِّ شيء، وأقرب من كلِّ شيء ظاهر، وأبطن من الأوهام والعقول من كلِّ شيء خفي باطن، وكذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى ويناسبه تذييل الآية بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣))[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ١٤٥.

المبحث الثاني: نفي رؤية اللَّه تعالى

ذهب الأماميَّة[١]، والمعتزلة[٢]، ومن ذهب إلى تنزيه اللَّه عن هذه الفرية من باقي المسلمين إلى أنَّ اللَّه تعالى لا يُدرك بالأبصار، ولا تقع عليه الرؤية بالعين الباصرة لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنَّ الرؤية لا تقع إلَّا على ما هو جسم، ومادي، وفي جهة، وهذه تتنافى مع الحقيقية الإلهيَّة البسيطة المجرَّدة، قال العلامة الحليُّ: ((إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة التزموا برؤية اللَّه تعالى، وهذا اعتقاد مخالف لما قضت به بديهيَّة العقل، فإنَّ الضرورة قاضية بأنَّ الرؤية إنَّما تكون للمقابل أوفي حكمه، وهو مخصوص بذوات الأوضاع، فما لا وضع له لا يمكن رؤيته بضرورة العقل، وكيف يحكم عاقل بأن ترى ما ليس في جهة، ولا يشار إليه إشارة حسيَّة إنَّه هنا أو هناك))[٣].

أمَّا علماء العامَّة[٤] فذهبوا إلى إمكان رؤية اللَّه تعالى، وقد قسَّموا رؤية اللَّه ﷻ على أقسام، منها رؤية في الآخرة، وفي الدنيا، وفي المنام، ونقل عضد الدين الإيجي(ت: ٧٥٦ هـ) عن الآمدي(ت: ٧٥٦هـ) قوله: ((واجتمعت الأئمَّة من أصحابنا على أنَّ رؤيته تعالى في الدنيا والآخرة جائزة عقلًا، واختلفوا في جوازها سمعًا في الدنيا، فأثبته بعضهم ونفاه آخرون، وهل يجوز أن يُرى في المنام فقيل لا، وقيل نعم))[٥]، وقد أوردوا روايات موضوعة عن رسول اللَّه ﷺ تشير إلى هذا

(١) ينظر: أوائل المقالات في المذاهب المختارات: ٥٧، والرسالة السعدية: ٣٧-٣٩، والأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ٢/ ٨٢-٨٣.

(٢) ينظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ١٥٧، وشرح الأصول الخمسة: ٢٣٢، والاقتصاد في الاعتقاد: ١٩.

(٣) تذكرة الفقهاء: ٤٧٠.

(٤) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة: ٣٧، والتنبيه والرد على أهل الأهواء والبداء: ١١٦-١١٧، والأسس الدينية للاتجاهات السلفية: ١٧١- ١٧٢.

(٥) المواقف: ٣/ ١٧٢.

المعنى، ثمَّ أنَّهم تأوَّلوا الآيات المحكمة لصالح الآيات المتشابه؛ لإثبات رؤية اللَّه عزَّ وجلَّ، حتى أنَّ الأشاعرة[١] حاولوا إثبات ذلك من طريق العقل أيضًا، وأنَّى لهم ذلك، فالعقل آلة تنزيه اللَّه عزَّ وجلَّ، والبوصلة التي تعصمنا من التشبيه والتجسيم.

وقد نفى أبو عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام ما ذهب إليه علماء العامَّة حينما سُئل عن إمكان رؤية اللَّه تعالى بالعين الباصرة، فنفى ذلك الإمامُ عليه السلام حتى في المعاد؛ إذ لا يمكن رؤية اللَّه تعالى، روى ذلك الكلينيُّ بسنده عن إسماعيل بن الفضل، قال: سألت أبا عبد اللَّه جعفر بن محمد الصَّادق عليهما السلام عن اللَّه تبارك وتعالى، هل يُرى في المعاد؟ فقال: ((سبحان اللَّه وتعالى علوًّا كبيرًا، يا ابن الفضل إنَّ الأبصار لا تدرك إلَّا ما له لون و كيفيَّة، واللَّه خالق الألوان و الكيفيَّة))[٢].

وقد حفلَ كلامُ الإمام الصَّادق عليه السلام- وآبائه عليهم السلام أيضا- بالتوحيد، فالمسائل المتعلقة باللَّه تعالى وما وراء الطبيعة من أساسيَّات كلام أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، وقد نُقل عنه عليه السلام في إبطال رؤية اللَّه سبحانه بالعين الباصرة، على حين أنَّ قراءتنا لما أوردَه الصدوقُ عن الإمام الصَّادق عليه السلام يُبيِّن القول بأنَّ المراد من (الإبصار) في النص الكريم حاسَّة البصر (العين)؛ ذلك بأنَّ هذه الدلالة التبادريَّة ليست هي الدلالة المطلوبة البتَّة؛ بل إنَّ الأمرَ أبعد من ذلك، وأنَّ الدلالة المرادة أقصى من أن نتصوَّرها، وقد أخرج الصدوق بسنده عن أبيه قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار، بسنده عن عبد اللَّه بن سنان، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: ((إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٤) ليس بمعنى بصر العيونِ (فمن أبصر فلنفسه) ليس يعني من البصر بعينه (ومن عمي فعليها) لم يعنِ عمي العيون، إنَّما عنى إحاطةَ الوهمِ كما يقال: فلانٌ بصيرٌ بالشِّعر،

(١) ينظر: المواقف: ٣/ ١٧٣.

(٢) الكافي: ١/ ١٤٦.

وفلانٌ بصيرٌ بالفقهِ، وفلانٌ بصيرٌ بالدراهم، وفلانٌ بصيرٌ بالثِّيابِ، اللَّهُ أعظمُ من أن يُرَى بالعينِ))[١]؛ إذ كشف الإمامُ عليه السلام في مقولتِهِ هذه من طريقِ توظيفه منهج تفسير القرآن بالقرآن أنَّ المراد بدلالة الأبصار ليس البصرَ العينيَّ الحسيَّ؛ بل المبتغى هو البصرُ الذهنيُّ، وهذا جليٌّ من استدلاله بالنصوص الثلاثة من الآية في سورة الأنعام، فجميع ما أورده الإمام عليه السلام من استشهاد يدلُّ على أنَّ المراد من لفظة (الأبصار) هو البصر الذهني، والبصيرة بحسب ما يرى المفسِّرون ((نور القلب الذي به يستبصر كما أنَّ البصر نور العين الذي به تبصر))[٢] وذهب أبو حيَّان الأندلسي أنّ المعنى ((لا تُدْرِكُهُ الخَلْقُ وهو يُدْرِكُهم، أوْ يَكُونُ المَعْنى إبْصارَ القَلْبِ أيْ لا تُدْرِكُهُ عُلُومُ الخَلْقِ وهو يُدْرِكُ عُلُومَهم وذَواتَهم؛ لِأنَّهُ غَيْرُ مُحاطٍ بِهِ، وهو عَلى هَذا مُسْتَحِيلٌ عَلى اللَّهِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، ولا تُنافِي الرُّؤْيَةُ انْتِفاءَ الإدْراكِ))[٣]، من هنا تكون ((البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن سميت بها لدلالة لأنها تجلي لها الحق وتبصرها به))[٤] .

وقد ناقش الإمامُ عليه السلام إشارات الإدراك الحسِّي التي ذكرها القرآن الكريم، وعمل على إقامة أكثر من دليل ينفي به إمكان رؤية اللَّه عزَّ وجلَّ، أو إدراكه إدراكًا بصريًّا، بحسب ما جاء في محكم كتابه في آيات عدَّة[٥]، وأكَّد الإمامُ الصَّادق عليه السلام على ذلك؛ إذ أخرج رئيسُ المحدِّثين الصدوق بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ((قلت له: أخبرني عن اللَّه عزَّ وجلَّ، هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ثم سكت ساعة، ثم قال: وإنَّ المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه

(١) التوحيد: ٢١١، وينظر: الكافي: ١/ ٨٩.
(٢) الكشَّاف: ٢/ ٥٢، وينظر: روح المعاني: ٧/ ٢٤٨.
(٣) البحر المحيط: ٤/ ٦٠٥.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٤٣٩.
(٥) منها سورة الأنعام: ١٠٣، وغيرها من الآيات المباركة.

في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال لا، فإنَّك إذا حدَّثت به فأنكر منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدَّر أنَّ ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى اللَّه عما يصفه المشبهون والملحدون))[1].

فإنَّ الإمامَ عليه السلام لم يَفُتْه القولُ بأنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى يُدرَكُ بالسبيلِ الذي استخلفَ مخلوقَه المميِّزَ، وهو العقل؛ إذ أخرج الكليني بسنده عن أبي الحسن الموصلي، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ((جاء حبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربَّك حين عبدته؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد ربًّا لم أره، قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان))[2].

يُبْثُّ الإمامُ الصَّادقُ عليه السلام -على وفق مضامين الكتاب الكريم- في النفس حقائقَ أخرى للإدراك، تسمو عن مرامي الأبصارِ الحسِّيَّة، وقد استندَ الإمامُ عليه السلام إلى المرجعيَّات القرآنيَّة في إثبات نفي رؤيةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بالعينِ الباصرةِ، مستشهدًا بالآيات القرآنيَّةِ في كلامه؛ إذ إنَّ الذي لا يكونُ جسمًا، ولا حالًا في جسم، ولا واقعًا في جهة، أو مكانًا أو حيزًا، ولا يكون مقابلًا، لا يمكنُ رؤيتَه، فالأبصارُ عندَه لا تدركُ اللَّهَ تعالى؛ لأنَّه ليس في جهةٍ أصلًا، ولا تابعًا كالأجسام والهيئات، وجمعَ السيدُ شرفُ الدِّين الموسويُّ(ت: ١٣٧٧هـ) أطرافَ الاستدلال بالآيةِ الكريمةِ على نفي الرؤيةِ بقوله: ((ولنا من الكتاب الحكيم آياتٌ محكماتٌ تؤيِّدُ حكمَ العقلِ بامتناعِ الرؤيةِ))[3] منها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، فأخرج مخرج التمدُّح، وهذا يفيد

(١) التوحيد: ١١٧.

(٢) الكافي: ١/ ٩٨.

(٣) كلمة حول الرؤية: ٢٩٨.

عموم السَّلب منعًا لمن يقول: إنَّ هذا السَّلبَ سلبُ العموم، لا عموم السَّلب[١]، وروي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في تفسير الآية المتقدِّمة، أنَّه قال: ((إنَّ اللَّهَ عظيمٌ رفيعٌ لا يقدرُ العبادُ على صفتِه، ولا يبلغون كنهَ عظمتِه، لا تدركُه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ، وهو اللطيفُ الخبيرُ، ولا يُوصفُ بكيفٍ ولا أين، ولا حيث، فكيفَ أصفُه بكيفٍ وهو الذي كيَّفَ الكيفَ حتى صارَ كيفًا، فعرفتُ الكيفَ بما كيَّفَ لنا من الكيفِ، أم كيفَ أصفُه بأينٍ وهو الذي أيَّنَ الأينُ حتى صار أينًا فعرفتُ الأينَ بما أيَّنَ لنا من الأينِ، أم كيفَ أصفُه بحيثٍ وهو الذي حيَّثَ الحيثَ حتى صار حيثًا، فعرفتُ الحيثَ بما حيَّثَ لنا من الحيثِ، فاللَّهُ تباركَ وتعالى داخلٌ في كلِّ مكان، وخارجٌ من كلِّ شيءٍ، لا تدركُهُ الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ، لا إلهَ إلا هو العليُّ العظيمُ، وهو اللطيفُ الخبيرُ))[٢].

فقد ذهبَ جملةٌ من علماءِ التفسيرِ إلى أنَّ الدَّلالةَ التفسيريَّةَ للفظةِ (الإبصار) في قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ تنصُّ على حاسَّةِ البصرِ، أي إنَّ المراد لا تدركُه العيونُ ببصرِها[٣]؛ فالقارئُ لهذه الآيةِ يخطرُ في بالِه تبادُرٌ أنَّ دلالةَ (الأبصار) فيها منصبَّةٌ على معنى البصرِ (الحاسَّة المعروفة) فيكونُ المعنى أنَّ اللَّهَ تعالى لا يمكنُ لأيِّ عينٍ أنْ تبصرَه وتراه؛ لأنَّه لا يُحدُّ ولا يُشخَّصُ عيانًا من أيِّ إنسانٍ، مهما بلغَتْ درجتُه، ومهما علَا شأنُه عندَه سبحانه؛ إذ ((إنَّ الأبصارَ لا تتعلَّقُ به ولا تدركُه؛ لأنَّه متعال أن يكون مُبصَرًا في ذاتِه؛ لأنَّ الأبصارَ إنَّما تتعلَّقُ بما كان في جهةٍ أصلًا أو تابعًا، كالأجسام والهيئات وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ، وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك، وَهُوَ اللَّطِيفُ يلطف عن أن تدركه الأبصار، الْخَبِيرُ بكل لطيف فهو يدرك

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، هادي كمال الدين الحلي: ٦٥-٦٦.
(٢) الكافي: ١/ ١٠٣، وينظر: التوحيد: ١١٥.
(٣) ينظر: معالم التنزيل: ١/ ١٧٣.

الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف))[1] وذهب المفسِّرون منهم البغوي(ت: ٥١٦ هـ)[2]، وابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ)[3]، والبيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ)[4]، والثعالبي (ت: ٨٧٥ هـ)[5]، وأبو السعود (ت:٩٨٢ هـ)[6]، والآلوسي (ت:١٢٧٠هـ)[7] إلى أنَّ المرادَ بالبصرِ هو حاسَّةُ النظرِ، وأنَّها تُطلقُ على العينِ الباصرةِ، من حيث إنَّها محلُّها، وإدراكُ الشيءِ في الوصولِ إليه والإحاطةِ به؛ أيْ: لا تصِلُ إلَيْهِ الأبصارُ ولا تحيطُ بِهِ، وتبعَهم في ذلك محمدُ الطاهر بن عاشور إذ قال في بيان الآية :((والأبصار جمع بصر، وهو اسم للقوَّة التي بها النظر المنتشرة في إنسان العين، الذي في وسط الحدقة وبه إدراك المبصرات، والمعنى: لا تُحيطُ به أبصار المبصرين؛ لأنَّ الـمُدرك في الحقيقة هو الـمُبصر لا الجارحة وإنما الجارحة وسيلة للإدراك؛ لأنَّها تُوصِل الصورة إلى الحسِّ المشترك في الدماغ؛ والمقصود من هذا بيان مخالفة خصوصيَّة الإله الحقِّ عن خصوصيَّات آلهتهم في هذا العالم؛ فإنَّ اللَّه لا يُرى وأصنامهم تُرى؛ وتلك الخصوصيَّة مناسبة لعظمته تعالى، فإنَّ عدم إحاطة الأبصار بالشيء يكون من عظمته، فلا تطيقه الأبصار، فعموم النكرة في سياق النفي يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أبصار المبصرين))[8].

(١) الكشَّاف: ٢/ ٥٤.
(٢) ينظر: معالم التنزيل: ١/ ١٧٣.
(٣) ينظر: زاد المسير:٣/ ٩٨.
(٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٤٣٨.
(٥) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن:١/ ٥٤٩.
(٦) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧٠.
(٧) ينظر: روح المعاني: ٧/ ٢٤٥.
(٨) التحرير والتنوير: ١/ ١٣٧٩.

ويبدو أنَّ الطبرسيَّ قد سبقَ المفسِّرينَ في هذا التوجيه الدلالي- إذ لم يبتعدوا كثيرًا عمَّا قرَّره في هذا الشأن- إذ يقول في بيان معنى ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: ((لا تراه العيون؛ لأنَّ الإدراك متى قُرِن بالبصر، لم يُفهم منه إلَّا الرؤية، كما أنَّه إذا قُرِن بآلة السَّمع، فقيل: أدركت بأذني، لم يفهم منه إلَّا السَّماع، وكذلك إذا أُضيف إلى كلِّ واحد من الحواس، أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه، فقولهم: أدركته بفمي، معناه: وجدت طعمه، وأدركته بأنفي معناه : وجدت رائحته))[1]

بهذا ننتهي إلى أنَّ المقولات التفسيريَّة التي أدلى بها المفسِّرون كلَّها تتسالم للتنصيص على أنَّ المبتغى من دلالة (الإبصار) في النص القرآني هو النظر العيني للإنسان لا غير ذلك، بينما بيَّن الإمامُ عليه السلام دلالة قوله تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ من طريق الآيات القرآنيَّة ففسَّر الآية المباركة بأنَّه ليس المراد (إبصار العيون) وإنَّما إبصار العقول، فكأنَّ الإمام عليه السلام بهذا الاستدلال قد بيَّن مكانة اللَّه سبحانه وتعالى وعظمته وعلو شأنه عن الإدراك بأيِّ صورة من الصورة، فهو لم يُفسِّر النص بإبصار العيون كما يظنُّه الناس؛ بل فسَّرها بإبصار العقول؛ لأنَّ الذي لا يستطيع أنْ يرى اللَّه سبحانه بعينه فلرُبَّما يخطر في باله أنَّه قادر على أنْ يراه في تصوِّره وعقله (تشخيصًا) أو قد يحسب بعض الناس أنَّ اللَّه تعالى نفى إبصاره بالعيون ولم ينفِ إبصاره بالعقول، ومن ثَمَّ فإنَّ مسألة تصوّره والنظر إليه في الخيال الذهني أمر ممكن، وقد تكون إحدى تلك التصوِّرات مُعبِّرة عنه فعلًا كما هو في الحقيقة الوجوديَّة له، ومن أجل أنْ لا يحدث هذا الاضطراب الدلالي أو الاستدلالي بأسره،وقد بادر الإمام عليه السلام في تفسيره للفظة (الأبصار) إلى إسنادها بدلالة آية أخرى فأقرَّ المتلقي على أنَّ معناها هو (الإبصار الذهني)؛ ذلك أنَّ نفي الإبصار الذهني أبلغ في إبعاد مراد رؤية اللَّه تعالى من نفي الإبصار العَيني؛ لأنَّ العين ترى أشياء ومجسَّمات مُشخَّصة وظاهريَّة فحسب، فهي محدودة ومحكومة

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤ / ١٢٧.

بالموجود الخارجي، على حين أنَّ البصيرة (العقل أو التصوّر الذهني) بمقدرته أنْ يتصوَّر أشياء أكثر من التي تراها العين (الباصرة) ومن ثَمَّ يكون التصوُّر على اللَّه تعالى جاريًا عقلًا، إذا ما حملنا لفظة (الأبصار) على العين الباصرة من دون البصيرة العقلية الباطنة، وهذا ما نجده جليًّا في رواياته الواردة في هذا المضمار، فأثبت أبو عبد اللَّه عليه السلام انتفاء رؤية اللَّه عزَّ وجلَّ من طريق النصوص القرآنيَّة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠)، قال السيد شرف الدين الموسوي: ((فإنَّها في معناها على حدِّ الآية الأولى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾))[1].

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ❋وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٤ – ٥٥).

قال السيد شرف الدين الموسوي: ((هاتان آيتان متصلتان – كما أوردناهما– والحجة على ما نحن فيه من امتناع الرؤية إنَّما هي الآية الثانيَّة، وإنَّما أوردنا الأولى؛ لأنَّ لها دخلًا في بيان الوجه في الاحتجاج بوضوح، وذلك أنَّ أولاهما نصَّت على عقوبةِ متَّخذي العجلِ بقتل أنفسهم، ونصَّت الثَّانية على عقوبة الطالبين رؤية اللَّه سبحانه جهرة بالصَّاعقة تأخذهم وهم ينظرون. وهذا يوجب القطع بتساوي الجرمين في الكفر؛ لتساويهما في العقوبة من اللَّه تعالى الملك الحق العدل المبين، وليس شيء أدلُّ من هذا على امتناع الرؤية، ووجوب الإنكار على القائلين بها؛ بل وجوب كفرهم إذا أصرُّوا عليها عنادًا بعد أن تتمَّ عليهم الحجَّة بامتناعها، كما تمَّت على أصحاب الصاعقة من قوم موسى عليه السلام، فإنَّه

(١) كلمة حول الرؤية: ٣٠٥.

عليه الصَّلاة والسَّلام حين سألوه الرؤية أخبرهم بامتناعها، فألحُّوا عليه ولجُّوا في طغيانهم، فعرَّفهم أنَّ رؤية اللَّهﷻ تستلزم تحيِّزه وتكيُّفه، والإشارة إليه، واللَّه تعالى منزَّه عن ذلك، وأوضح لهم أنَّ من استجاز الرؤية على اللَّهﷻ فقد جهله وجعله من جملة الأجسام أو الأعراض، فعتوا وأصرُّوا على طلبها عنادًا، فكانوا بذلك كعبدة العجل، فأخذتهم الصاعقة بأمر اللَّهﷻ، كما أخذ القتل أولئك بأمره تعالى لتساوي الجرمين))[1]، فتبيَّن من طريق الاستدلال بالآيتين في توجيه امتناع الرؤية، وقال أبو حيان الأندلسي: ((إذْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ ويَسْألُوا الرُّؤْيَةَ إلّا عَلى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ، وقِيلَ: سَبَبُ أخْذِ الصّاعِقَةِ إيّاهم هو غَيْرُ هَذا القَوْلِ مِن كُفْرِهِمْ بِمُوسى، أوْ تَكْذِيبِهِمْ إيّاهُ لَمّا جاءَهم بِالتَّوْراةِ أوْ عِبادَةِ العِجْلِ، واسْتَعْظَمَ سُؤالَ الرُّؤْيَةِ حَيْثُ وقَعَ؛ لِأنَّ رُؤْيَتَهُ لا تَحْصُلُ إلّا في الآخِرَةِ، فَطَلَبُها في الدُّنْيا هو مُسْتَنْكَرٌ، أوْ لِأنَّ حُكْمَ اللَّهِ أنْ يُزِيلَ التَّكْلِيفَ عَنِ العَبْدِ حالَ ما يَراهُ، فَكانَ طَلَبُها طَلَبًا لِإزالَةِ التَّكْلِيفِ، أوْ لِأنَّهُ لَمّا دَلَّتِ الدَّلائِلُ عَلى صِدْقِ المُدَّعِي كانَ طَلَبُ الدَّلائِلِ الزّائِدَةِ تَعَنُّتًا ولِأنَّ في مَنعِ الرُّؤْيَةِ في الدُّنْيا ضَرْبًا مِنَ المَصْلَحَةِ المُهِمَّةِ لِلْخَلْقِ، فَلِذَلِكَ اسْتُنْكِرَ))[2] وقال ابن عاشور: ((أيْ عُقُوبَةً لَهم عَمّا بَدا مِنهم مِنَ العَجْرَفَةِ وقِلَّةِ الِاكْتِراثِ بِالمُعْجِزاتِ. وهَذِهِ عُقُوبَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ لا تَدُلُّ عَلى أنَّ المُعاقَبَ عَلَيْهِ حَرامٌ أوْ كُفْرٌ لا سِيَّما وقَدْ قُدِّرَ أنَّ مَوْتَهم بِالصّاعِقَةِ لا يَدُومُ إلّا قَلِيلًا فَلَمْ تَكُنْ مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ، وبِهِ تَعْلَمُ أنْ لَيْسَ في إصابَةِ الصّاعِقَةِ لَهم دَلالَةٌ عَلى أنَّ رُؤْيَةَ اللَّهِ تَعالى مُسْتَحِيلَةٌ، وأنَّ سُؤالَها والإلْحاحَ فِيهِ كُفْرٌ))[3].

(١) كلمة حول الرؤية: ٣٠٨.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٣٧٢.

(٣) التحرير والتنوير: ١/ ٥٠٧.

وما يُعضِّد نفي الرؤية أيضًا قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، فالطبرسي لم يكتفِ بنفي الرؤية فقط؛ بل ذهب إلى استحالتها أيضًا عند تفسيره للآية الكريمة قال: ((﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ هذا جواب من اللَّه تعالى، ومعناه: لا تراني أبدًا؛ لأنَّ (لن) ينفي على وجه التأبيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فعلَّق رؤيته باستقرار الجبل الذي علمنا أنَّه لم يستقر، وهذه طريقة معروفة في استبعاد الشيء؛ لأنَّهم يعلِّقونه مما يعلم أنَّه لا يكون، ومتى قيل: إنَّه لو كان الغرض بذلك التبعيد، لعلَّقه سبحانه بأمر يستحيل، كما علق دخول الجنَّة بأمر مستحيل، ومن ولوج الجمل في سم الخياط؟ فجوابه: إنه سبحانه علق جواز الرؤية باستقرار الجبل في تلك الحال التي جعله فيها دكًّا، وذلك مستحيل لما فيه من اجتماع الضدَّين))[1] هذه الأدلَّة كلُّها تسير على وفق رأي مدرسة أهلِ البيت عليهم السلام، التي عرض البحث جزءًا منها

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٥٢. وكأنَّ قول الطبرسيّ فيه ردٌّ على توجيه ابن الجوزي الذي قال: ((تَعَلَّقَ بِهَذا نُفاةُ الرُّؤْيَةِ وقالُوا: «لنْ» لَنَفْيِ الأبَدِ، وذَلِكَ غَلَطٌ، لأنَّها قَدْ وَرَدَتْ ولَيْسَ المُرادُ بِها الأبد في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ثمَّ أخبر عنهم بتمنِّيه في النار بقوله تعالى: ﴿يامالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾، وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية؛ لأنَّ موسى مع علمه باللَّه تعالى، سألها، ولو كانت ممَّا يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك، لأنَّ معرفة الأنبياء للَّه ليس فيها نقص؛ ولأنَّ اللَّه تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنَّما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: «لا أُرى»، ألا ترى أنَّ نوحًا لما قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أنكر عليه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وممَّا يدلُّ على جواز الرؤية أنَّه علَّقها باستقرار الجبل، وذلك جائز غير مستحيل، فدل على أنَّها جائزة، ألا ترى أنَّ دخول الكفار الجنَّة؛ لما استحال علَّقه بمستحيل فقال: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾)). زاد المسير: ٣/ ٩٨.

فمنها ما اعتمد فيه على العقل والنقل من قبيل القول: إنَّ استحالة رؤيته تعالى في الدنيا تؤكِّد عدم حصول ذلك في الآخرة أيضًا؛ لأنَّ اللَّه لا يتغيَّر، وكذا استدلاله بالقرآن الكريم، وردَّ من تأوَّل بعض الآيات القرآنية.

وفي ضوء ما تقدَّم استحالة رؤية اللَّهﷻ، وهو منطبق تمام الانطباق مع بيان الإمامعليه السلام لهذه القضيَّة الهامَّة، وما يؤكِّد ذلك أيضًا الأدلَّة العقليَّة منها والنقليَّة الواردة في هذا المضمار، وعلى هذا سار أتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام وتبعهم في ذلك المعتزلة، وخالفهم في ذلك الأشاعرة كما أسلفنا، مع اعتقادهم أنَّه ليس بجسم، وأنَّهم يرونه في الآخرة، وأنَّه ينكشف لعباده المؤمنين انكشاف القمر ليلة البدر.

المبحث الثالث- نفي الزَّمان والمكان:

إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في وجود ذاته سبحانه عز وجل، وهو كمال أكبر من الوجود الزماني والمكاني، له كمال الوجود الأعلى من الزمان؛ إذ هو الأوَّل من دون ابتداء، وهو الآخر من دون انتهاء، فوجوده سبحانه وتعالى قبل الزمان وبعد انقضائه أيضًا، وله كمال الوجود الأعلى من المكان فهو الظاهر ليس فوقه شيء، والباطن ليس دونه شيء، فوجوده قبل المكان؛ إذ هو خالقه فكيف يحويه المكان وهو بكل شيء محيط!، فاللَّه سبحانه وتعالى موجود إلَّا أنَّ وجوده ليس له مثيل ولا شبيه وليس له مثال يُقاس عليه؛ لأنَّ للَّه تعالى كمال الوجود المطلق المنزه عن المكان، فلا مكان يحويه، والمنزه عن الزمان فلا يجري عليه زمان، والإمام عليه السلام لديه المعرفة المطلقة بهذه الكليات للخالق في نفي الزمان والمكان عنه تعالى، من طريق الآيات القرآنيَّة التي تعنى بتنزيهه تعالى؛ إذ أخرج الصدوق بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام قال: ((إنَّ اللَّه تبارك وتعالى لا يُوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا انتقال ولا سكون، بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا))[1].

إنَّ الإمامَ عليه السلام قد استندَ على مرجعيته القرآنيَّة في نفي المكان والزمان عنه سبحانه؛ إذ نلحظ كلامه مستمدًّا من القرآن الكريم (بالمعنى) وهذه من معاني ألفاظ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥) فالآية تعد من الدلائل المطلقة على نفي التجسيم، ونفي أن يحده زمان ومكان، وإثبات التنزيه للَّه تعالى، ويكون المعنى هو بيانٌ لشمول ملكوته لجميع الآفاق، المتسبِّب عنه سعة علمه[2]، أي: ((لَهُ كُلُّ الأَرْضِ الَّتِي هي عِبارَةٌ عَنْ ناحِيَتَي المَشْرِقِ؛ والمَغْرِبِ؛ لا يَخْتَصُّ بِهِ؛ مِن

(١) التوحيد: ١٨٤.

(٢) ينظر: محاسن التأويل، القاسمي: ١/ ٣٨٠.

حَيْثُ المِلْكُ؛ والتَّصَرُّفُ؛ ومِن حَيْثُ المَحَلِّيَّةُ؛ لِعبادَتِه مَكانٌ مِنها دُونَ مَكانٍ))[١] والمقصود بالمشرق والمغرب في الآية المباركة ليس هو الجهتين الخاصَّتين، بل هو كناية عن كلِّ الجهات، وعلَّل الشيرازي سبب شيوع استعمال الشرق والغرب في الكلام أنَّ الإنسانَ يتعرَّفُ أوَّلًا على هاتين الجهتين، ثم يعرف بقيَّةَ الجهات من طريق هاتين الجهتين[٢]، قالَ اللَّهُ تعالى في محكم كتابه في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧).

وقد ذهب العلَّامةُ الطباطبائيُّ إلى أنَّ المشرقَ والمغربَ وكلَّ جهةٍ من الجهاتِ حيث كانت، فهي ((للَّه بحقيقة الملك التي لا تقبل التبدل والانتقال، لا كالملك الذي بيننا معاشر أهل الاجتماع، وحيث إنَّ ملكه تعالى مستقر على ذات الشيء محيط بنفسه وأثره، لا كمُلْكِنا المستقر على أثر الأشياء ومنافعها، لا على ذاتها، والملك لا يقوم من جهة انه ملك إلا بمالكه فاللَّه سبحانه قائم على هذه الجهات محيطها وهو معها، فالمتوجه إلى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى))[٣] ولمَّا ((كان المشرق والمغرب جهتين إضافيتين شملتا ساير الجهات تقريبا؛ إذ لا يبقى خارجًا منهما إلَّا نقطتا الجنوب والشمال، ولذلك لم يقيِّد إطلاق قوله (فأينما) بهما بأن يقال: (أينما تولوا منهما) فكأنَّ الإنسان أينما ولَّى وجهه فهناك إمَّا مشرق أو مغرب، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بمنزلة قولنا: وللَّه الجهات جميعا، وإنَّما أخذ بهما؛ لأنَّ الجهاتِ التي يقصدها الإنسانُ بوجهه، إنَّما تتعيَّنُ بشروقِ الشَّمس وغروبها وسائر الأجرام العلويَّة المنيرة))[٤] فـ ((أراد أنَّ المشرق والمغرب للَّه مُلْكًا))[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٥٠.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١/ ٣٤٩.
(٣) الميزان في التفسير القرآن: ١/ ٢٥٨ -٢٥٩.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٢٥٩.
(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٨.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ردٌّ على من يقول: ((إِنَّهُ فِي حَيِّزٍ وَجِهَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا خُيِّرَ فِي اسْتِقْبَالِ جَمِيعِ الْجِهَاتِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ وَلَا حَيِّزٍ، وَلَوْ كَانَ فِي حَيِّزٍ لَكَانَ اسْتِقْبَالُهُ وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِ أَحَقَّ مِنْ جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ. فَحَيْثُ لَمْ يُخَصِّصْ مَكَانًا، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا فِي جِهَةٍ وَلَا حَيِّزٍ، بَلْ جَمِيعُ الْجِهَاتِ فِي مُلْكِهِ وَتَحْتَ مُلْكِهِ، فَأَيُّ جِهَةٍ تَوَجَّهْنَا إِلَيْهِ فِيهَا عَلَى وَجْهِ الْخُضُوعِ كُنَّا مُعَظِّمِينَ لَهُ مُمْتَثِلِينَ لِأَمْرِهِ))[1].

وتحدَّث الإمامُ عليه السلام عن تنزيه اللَّه تعالى بمحدوديَّة الزمان والمكان موظِّفًا ما ورد في الكتاب الكريم من عمق هذه المعاني، فقد حدَّث الكليني بسنده عن محمَّد، عن عيسى بن يونس، قال ابن أبي العوجاء لأبي عبد اللَّه عليه السلام: ((في بعض ما كان يحاوره ذكرت اللَّه فأحلت على غائب، فقال أبو عبد اللَّه: ويلك! كيف يكون غائبًا من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم، فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كلِّ مكان؟ أليس إذا كان في السّماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السّماء؟ فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: إنَّما وصفت المخلوق الّذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الّذي صار إليه ما يحدث في المكان الّذي كان فيه، فأمَّا اللَّه العظيم الشَّأن الملك الدَّيَّان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان))[2].

وهذه الحقيقة استمدَّهاالإمام من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧).

(١) البحر المحيط: ١/ ٥٧٨.

(٢) الكافي: ١/ ١٢٦، وينظر: الاحتجاج: ٢/ ٧٥.

تقدَّم آنفا أنَّ اللَّه تعالى ليس بجسم، وليست له عوارض جسمانيَّة، ومن هنا فلا يمكن أن نتصوَّر أنَّ للَّه تعالى زمانًا أو مكانًا؛ إذ إنَّ توهُّمَ وجودِ مكانٍ لا يكونُ اللَّهﷻ فيه حاضرًا وناظرًا يستلزمُ القولِ بتحديده سبحانه؛ إذ أورد الصدوق بسنده عن المفضَّل بن عمر، عن أبي عبد اللَّهؑ، قال: ((من زعم أنَّ اللَّه في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، لو كان اللَّهﷻ على شيء لكان محمولًا، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان محدثًا))[١]؛ بل أبطلَ الإمامُؑ قولَ من زعمَ أنَّ اللَّهﷻ في شيءٍ أو من شيءٍ أو على شيء؛ إذ قالؑ: ((كذَّبَ من زعمَ أنَّ اللَّهَﷻ في شيء أو من شيء أو على شيء))[٢].

فإنَّ للَّه سبحانه إحاطةً علميَّةً بكلِّ شيء في الوقت الذي لا يكون له مكان، و(النجوى) مصدر بمعنى التناجي وهو المسارَّة، وضمائر الإفراد للَّه سبحانه، والمراد بقوله: ((«رابعهم» و «سادسهم» جاعل الثلاثة أربعة، وجاعل الخمسة ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه، ومعيَّته لهم في الاطلاع على ما يسارُّون فيه، كما يشهد به ما احتف بالكلام في أوَّل الآية، وفي آخرها))[٣] وقال ابن كثير: ((أَيْ: يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ وَسَمْعِهِ لَهُمْ))[٤]، وذكر أبو السعود ((أيْ: ما يَقَعُ مِن تَناجِي ثَلاثَةِ نَفَرٍ أيْ: مِن مُسارَّتِهِمْ))[٥] والمقصود من أنَّ اللَّه تعالى رابعهم أو سادسهم هو ((أنَّ اللَّهﷻ موجود حاضر وناظر في كلِّ مكان وعالم بكلِّ شيء، وإلَّا فإنَّ ذاته المقدَّسة لا مكان لها، ولا يوصف بالعدد أبدًا،

(١) التوحيد: ١٧٨، وينظر: الأمالي، للصدوق: ٦٤.
(٢) التوحيد: ١٧٨.
(٣) الميزان في تفسير القران: ١٩/ ١٨٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٧٨.
(٥) إرشاد العقل السليم: ٨/ ٢١٨.

ووحدانيَّته أيضًا ليست وحدة عدديَّة، بل بمعنى أنَّه لا شبيه له، ولا نظير ولا مثيل))[١] وقال ابن الجزي عن بيان المعنى ((بعلمه وإحاطته، وكذلك سادسهم، وهو معهم أينما كانوا))[٢] وبيَّن ابن عاشور ((أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلى ما يَتَناجَوْنَ فِيهِ فَكَأَنَّهُ تَعالى نَجِيٌّ مَعَهم))[٣].

وقد ذهب الطبرسيُّ إلى أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ هو نفي صفات الأجسام عنه فقال في تفسير الآية: ((إنَّه عالم بأحوالهم، وجميع متصرفاتهم، فرادى وعند الاجتماع، لا يخفى عليه شيء منها. فكأنَّما هو معهم، ومشاهد لهم. وعلى هذا يقال: إنَّ اللَّه مع الإنسان حيثما كان؛ لأنَّه إذا كان عالمًا به، لا يخفى عليه شيء من أمره، حسن هذا الإطلاق لما فيه من البيان، فأمَّا أن يكون معهم على طريق المجاورة، فذلك محال؛ لأنَّه من صفات الأجسام، وقد دلت الأدلَّة على أنَّه ليس بصفات الأجسام))[٤]، وقال الزمخشري: ((إنَّه يعلم ما يتناجون به، ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنَّه مشاهدهم ومحاضرهم، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة))[٥] وذكر القنُّوجيُّ (ت: ١٣٠٧هـ) في بيانِ نفي صفاتِ الأجسام: ((أي مصاحب لهم بعلمه، يعلم ما يتناجون به، لا يخفى عليه شيء منه))[٦]، و(أين كانوا): ((معناه إحاطة علمه بكلِّ تناجٍ يكون معهم في أيِّ مكان من الأمكنة، ولو كانوا تحت الأرض، فإنَّ علمه بالأشياء ليس لقرب

(١) الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١٨/ ١١٩.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ٤/ ١٠٣.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٣٤٩.
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٩/ ٤١٤.
(٥) الكشَّاف: ٤/ ٤٩٠.
(٦) فتح البيان: ١٤/ ١٨.

مكان حتى يتفاوت بقرب الأمكنة وبعدها))[1]، والجدير بالذكر أنَّ الحديث في ذيل الآية يتجاوز النجوى؛ إذ تؤكِّد الآية الكريمة على ((أنَّ اللَّه مع الإنسان في كلِّ مكان، وسوف يطَّلع الإنسانُ على أعمالِه يوم القيامة، وتنتهي الآية بالإحاطة العلميَّة للَّه سبحانه، كما ابتدأت بالإحاطة العلميَّة بالنسبة لكلِّ شيء))[2]، و((توبيخًا لهم وتبكيتًا وإلزامًا للحجَّة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء كائنًا ما كان))[3].

(١) فتح البيان: ١٤/ ١٨.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل: ١٨/ ١١٩.
(٣) فتح البيان: ١٤/ ١٨.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة مع المرجعيَّات القرآنيَّة عند الإمام الصَّادق عليه السلام، توصَّل البحثُ إلى الآتي:

١- يُعدُّ القرآن الكريم المرجع الأساس في كلام أئمَّة أهلِ البيتِ عليهم السلام، بوصفه شاهدًا حيًّا على عمق صلتهم بالقرآن الكريم وانصهارهم به؛ بل أصبح توظيف النصِّ القرآني عندهم عليهم السلام سمة بارزة في بيان التشريع الإسلامي، ودليلًا في المحاججة والبرهان.

٢- عالج الإمام أبي عبد اللَّه الصَّادق عليه السلام قضية التوحيد في كلامه عليه السلام من طريق المقابلة بين الآيات القرآنيَّة التي تفسِّر بعضها بعضا، وهذا ما يُعرف بتفسير القرآن بالقرآن، فأثبت وحدانيَّة اللَّه سبحانه، ونفى عنه الرؤية والجسميَّة، والمكان والزمان، بأدلَّة قرآنيَّة دقيقة.

٣- كشف البحث أنَّ معرفة اللَّه تعالى الحقَّة محصورة في أهل البيت عليهم السلام لأنَّهم عدل القرآن، والراسخون في العلم، من عرفهم عرف اللَّه تعالى، ومن جهلهم جهل اللَّه، ومن ثَمَّ فالتوحيد الحق لا يُعرف إلاَّ منهم.

٤- اشتمل كلام الإمام عليه السلام على استدلالات عقليَّة ومنطقيَّة تتناغم وتتجاوب مع الفطرة الإنسانيَّة، ممَّا تجعل المتلقِّي يسلِّم ويذعن لتلك الاستدلالات.

٥- نلحظ أنَّ الإمام عليه السلام قد استعمل اللفظ والمعنى الدقيقين في كلامه، وكانت إفادته في سياق المفردة القرآنيَّة الضمنيَّة، وأخرى في سياق التصريح بالنصِّ القرآني، وكان استعماله للمفردة القرآنيَّة الضمنيَّة أكثر من استعماله للنصِّ الصريح بحسب ما بيَّنه الباحثان.

المصادر والمراجع

١- الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد اللَّه بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، تحقيق: د. فوقيَّة حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، ط١، د.ت.

٢- الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس علي الفحام، منشورات الفجر للطباعة والنشر، ٢٠١٠م.

٣- الاحتجاج، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي(ت: ٥٤٨هـ)، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة النشر، النجف الأشرف، (د. ط)، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد أبو السعود أفندي بن محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى عماد الدين العمادي الحنفي(ت: ٩٥١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، (د. ط)، (د.ت).

٥- الأسس الدينيَّة للاتجاهات السلفية، كريم السراجي، دار السلام، ط١، (د. ت).

٦- الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت: ٤٦٠هـ)، مكتبة جامع چهلستون، ١٩٧٩م.

٧- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه: عبد اللَّه محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٨- الأمالي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميَّة - مؤسَّسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ.

٩- الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط١،١٤١٣هـ.

١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد اللَّه بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ.

١١- أوائل المقالات في المذاهب المختارات، أبو عبد اللَّه محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد (ت: ٤١٣هـ)، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف – العراق، ط٣، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٣م.

١٢- البحر المحيط في التفسير،أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: شيخ عادل أحمد وآخرون، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،ط١،١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٣- التبيان في تفسير القران، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتبة الإعلام العربي، مطبعة قم، قم- إيران، ط١،١٣٧٩هـ.

١٤- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت: ١٣٩٣هـ)، دار التونسية للنشر، تونس، (د. ط)، ١٩٨٤م.

١٥- تذكرة الفقهاء، حسن بن يوسف بن المطهر الحلي المعروف بالعلَّامة الحلي(ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر، قم - إيران، ط١، ١٤١٤هـ.

١٦- أبو القاسم محمَّد بن أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي الكلبي(ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: عبد اللَّه الخالدي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ .

١٧- تعليقة على نهاية الحكمة، محمد تقي مصباح اليزدي، دار الحكمة، قم، ط١، ١٩٨٥م.

١٨- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١ هـ)، مؤسَّسة الهادي، نشر مكتبة الصدر، قم – إيران، ط٢، ١٤١٦هـ

١٩- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٠-تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي(ت: ١١١٢هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيِّد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسَّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم- إيران، ط٤، ١٤١٢هـ.

٢١- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني (ت: ٣٧٧هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث – مصر، (د. ت).

٢٢- التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي(ت: ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، قم – إيران، (د. ت).

٢٣- جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جريربن يزيد بن كثير بن غالب الطبري(ت: ٣١٠هـ)،دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٤٠٥هـ .

٢٤- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما يتضمنه من السنة وآي الفرقان، أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي(ت: ٦١٨هـ)، تحقيق: د. عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، مؤسَّسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ.

٢٥- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي المالكي الملقب بالثعالبي(ت:٨٧٥هـ)،تحقيق:علي معوض - عادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٦- الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه الصدوق(ت: ٣٨١هـ)، تحقيق وتعليق: علي أكبر غفاري، مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم – إيران،١٤٠٣هـ.

٢٧- الرسالة السعديَّة، جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي المعروف العلَّامة الحلِّي (ت: ٧٢٦هـ)، إشراف: محمود المرعشي، إخراج وتعليق وتحقيق: عبد الحسين محمد علي بقال، مطبعة بهمن، قم- إيران، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم وسبع المثاني، محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي(ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلميَّة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ.

٢٩- الزاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي(ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد اللّه، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٣٠- شرح الأصول الخمسة، القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد اللّها لمعتزلي الأسد آبادي الهمداني (ت: ٤١٥هـ)، تحقيق: عبد كريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٣١- شرح نهج البلاغة، عز الدين بن هبة اللّه بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني(ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٨هـ.

٣٢- شرح نهج البلاغة، هادي كمال الدين الحلي، تحقيق: كريم حمزة حميد، مؤسَّسة علوم نهج البلاغة إلى العتبة الحسينية المقدسة، العراق،(د.ت).

٣٣- عقائد الإماميَّة، الشيخ محمد رضا المظفر(ت: ١٣٨١هـ)، مركز الأبحاث العقائدية، (د. ط)،١٤٢٢هـ.

٣٤- فتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف اللّه الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدَّم له وراجعه: خادم العلم عَبد اللّه بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٥- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد اللّه الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٤هـ

٣٦- قلائد الخرائد في أصول العقائد، معز الدين محمد المهدي الحسيني المشهور بالقزويني (ت: ١٣٠٠هـ)، تحقيق: جودت كاظم القزويني، طباعة ونشر الإرشاد، (د. ط)، بغداد- العراق، ١٩٧١هـ.

٣٧- الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني(ت: ٣٢٩هـ)، منشورات الفجر، ط١، بيروت – لبنان، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٣٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٩- الكشف والبيان في تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد الثعلبي(ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

٤٠- كلمة حول الرؤية، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي(ت: ١٣٧٧هـ)، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

٤١- مجالس الموحدين في بيان أصول الدين وأحوال الحجج المعصومين، محمد صادق الحسيني الطباطبائي(ت:١٣٣٧هـ)، بيروت – لبنان، (د. ت).

٤٢- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو الفضل علي الطبرسي(ت: ٥٤٨هـ)، مطبعة دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٣٧٩هـ.

٤٣- محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي(ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد اللَّه بن أحمد بن محمود بن حافظ الدين النسفي(ت: ٧١٠هـ)، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩م.

٤٦- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي(ت: ٥١٦هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، (د.ت).

٤٧- معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، ١٣٣٨هـ.

٤٨- معراج اليقين في شرح نهج المسترشدين في أصول الدين، محمَّد بن الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي، العتبة العباسيَّة المقدَّسة، العراق، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٤٩- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد اللَّه محمَّد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٥٠- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، تحقيق: هلموت ريتر وجنبا، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

٥١- المواقف، عبد الرحمن بن أحمد عبد الغفار عضد الدين الايجي(ت: ٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م

٥٢- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي(ت: ١٤٠٢هـ)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميَّة، قم- إيران، (د. ت).

٥٣- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت: ٤٥٠هـ)، راجعه وعلَّق عليه السيِّد عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسَّسة الكتب الثقافيَّة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط٣، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٥٤- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

المعجمُ القرآنيُّ عندَ أميرِ المؤمنينَ عليه السلام

(ألفاظُ الرحمةِ) بين القرآنِ الكريم وكلام أميرِ المؤمنينَ عليه السلام

دراسةٌ إحصائيَّةٌ دلاليَّةٌ

أ. د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيار

جامعة الكوفة/ مدير مركز التعليم المستمر

Prof. Dr. Razzaq Abdul Amir Mahdi Al-Tayar

(University of Kufa /

Director of the Center of Continuous Education)

الملخَّص:

يمكن أن نصف لغة الفرد بأنَّها الجزء الخاصّ من لغةٍ مجتمعةٍ، وأنَّها مساحة ما يتقنه ذلك الفرد من تلك اللغة، ومنها يمكننا أن نتلمَّس ثقافته ومقدرته المعرفيَّة وقابليَّته العقليَّة، فاللغة وعاء تفكيره وآلته لمعالجة بياناته التي يكتسبها من محيطة، ومن هنا كانت لغة الأفراد دليلًا واضحًا يكشف قابلياتهم العقليَّة ومستوياتهم الفكريَّة.

وإذا أردنا أن نقيس قدرة الفرد اللغويَّة فيمكننا أن نتلمَّس ذلك في معجمه اللغويِّ، ومقدار ما يُتقنه من استعمالٍ للمفردات في سياقاتٍ مختلفةٍ فيضفي عليها معانٍ دقيقةٍ وزياداتٍ هامشيَّةٍ على معانيها المركزيَّة من طريق تركيبٍ فريدٍ واستعمالٍ خاصٍّ به هو، وقد تكشف لنا مقايسة النصوص بعضها ببعض ما ينماز به كلُّ نصٍّ منها من خصائص فريدة.

يحاول هذا البحث أن يكشف النقاب عن خصائص المعجم اللغويِّ لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام من طريق النظر في استعماله لمفردة (الرحمة)، وتحديد المعاني التي وردت فيها في سياقات كلامه عليه السلام ومقايسة تلك المعاني بمعاني المفردة نفسها التي وردت في القرآن الكريم، مستكشفين من طريق هذه المقايسة بين النصيين البليغين مقدار التوافق والفرادة في معاني مفردة (الرحمة)، وقد اعتمدنا المنهج الإحصائيّ التحليليّ للمفردات بين النصَّين، ثمَّ دراستها دلاليًّا وصولًا إلى النتائج الختاميَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: أمير المؤمنينَ عليه السلام، المعجم القرآني، ألفاظ الرحمة، دراسة، إحصائيَّة دلاليَّة.

Abstract:

An individual's language can be described as their personal part of a collective language, representing the scope of what they master from that language. Through this, one can discern their culture, intellectual capacity, and cognitive ability. Language serves as the vessel of thought and the tool for processing data acquired from their surroundings. Therefore, an individual's language is a clear indicator of their intellectual capabilities and level of thought. To measure an individual's linguistic ability, one can examine their lexicon and the extent of their proficiency in using words within various contexts, imparting precise meanings and marginal enhancements to their core meanings through unique composition and personal usage. Comparing texts with one another can reveal the unique characteristics of each text.

This research seeks to uncover the characteristics of the linguistic lexicon of the Commander of the Faithful, Ali (peace be upon him), by examining his use of the term "mercy" and identifying the meanings in which it appeared in his speech. The study also compares these meanings with the meanings of the same term in the Holy Quran, exploring the degree of agreement and distinctiveness between the two eloquent texts. The analytical statistical method for the vocabulary was employed to compare the two texts, followed by a semantic study to reach final conclusions.

Keywords: Commander of the Faithful (peace be upon him), Quranic lexicon, terms of mercy, statistical study, semantic analysis.

المقدِّمة:

يمثِّل المعجم اللغويُّ للمتكلِّم مقياسًا دقيقًا لقدرته على التعبير والتفكير، ويعكس سعة الوعاء الذي يجري فيه تفكيره ويعالج فيه مدخلاته الحسِّيَّة، ولمَّا كانت اللغة وعاء التفكير، وأداته التي لا يتمُّ إلَّا من طريقها؛ فإنَّ سعة معجم المتكلِّم تكشف لنا قدرة عالية على معالجة الأفكار والتعبير عنها بوضوح ودقَّة ويمكن للباحث أن يطَّلع على المعجم اللغويِّ لأيِّ فرد ويقيس من طريقه قدرته الفكريَّة والتواصليَّة مع الآخرين.

يمثِّل القرآن الكريم المستوى الأعلى بلحاظ لغة العرب من ناحية الأداء اللغوي بوصفه نصًّا لغويًّا سماويًّا مقدَّسًا أُنزل بلغة العرب؛ لأهداف سماويَّة رساليَّة، لكنَّ ذلك لم يمنع من أن يكون القرآن الكريم مقياسًا ثابتًا يُقاس بالنسبة له كلام البشر، فكلَّما قارب المتكلِّم لغة القرآن وأساليبه كان كلامه مقدَّمًا بين الأفراد ومحلَّ قبول وتأثير فيهم.

لقد أجمع الباحثون أنَّ كلام أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب عليه السلام يقع في الطبقة الأولى من الكلام البليغ في لغة العرب، ويأتي بعد القرآن الكريم وفي رتبة حديث النبيِّ صلى الله عليه وآله وهو أنموذج بشريٌّ لـ(لغة العرب) متفرِّد في أدائه بين لغة عصره، بل بقي محافظًا على فرادته وبلاغته في العصور كلِّها.

وقد اجتهد هذا البحث بأن يستكشف سعة المعجم اللغويِّ لأمير المؤمنين عليه السلام من طريق إحصاء ألفاظ (الرحمة) في كلامه وتنوِّعها واستعمالاتها ودلالاتها ومقايسة تلك الألفاظ بما جاء في القرآن الكريم من ألفاظ مماثلة لنستكشف سعة استعمالها في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام، ونقارنها بالنصِّ السماويِّ، ونستخلص من تلك المقارنة النتائج التي تتكشَّف لنا في البحث، وقد اعتمد البحث المنهج الإحصائيَّ التحليليَّ للمفردات، ثم دراستها دلاليًّا وصولًا إلى النتائج.

توطئة- الرحمة لغة:

لم يضع الفراهيديُّ (ت: ١٧٠هـ) في معجمه معنًى بسيطًا يشرح فيه دلالة كلمة (الرحمة) أو يكون مكافئًا لها في الدلالة؛ إذ نجده يبدأ حديثه في مادَّة (رحم) في معجمه بقوله: ((الرحمن الرحيم: اسمانِ مُشتَقّانِ من الرَّحْمة، ورَحْمةُ اللَّه وسعت كلَّ شيء، وهو أرحم الراحمين))[١] ثمَّ بيَّن تقلُّبات الجذر والمفردات المشتقَّة منه من غير أن يبيِّن ما معنى (الرحمة)، وكذلك فعل الأزديُّ (ت: ٣٢١هـ) فهو يُرجِع الكلمات المشتقَّة من هذا الجذر (ر ح م) على معنى الرحمة من دون أن يشرح هذا المعنى[٢]، ومثلهما فعل الأزهريّ (ت: ٣٧٠هـ)، فقد أرجع تقلُّبات هذا الجذر اللغويُّ إلى معنى (الرحمة) من دون أن يشرح ما المقصود بمعنى هذه الكلمة[٣]، وقد يكون سبب ذلك أنَّهم عدُّوا كلمة (الرحم) هي أبسط وحدة دلاليَّة تحمل هذا المعنى المفهوم عند المتلقِّي، وأنَّ معناها من البساطة والوضوح بمقدار لا يتطلَّب الشرح والبيان، ونجد المعجميِّين الأوائل قد بيَّنوا معاني بعض الكلمات بـ(الرحمة) فمثلًا: نجد الفراهيديَّ يقول: ((الحَنانُ: الرحمةُ، والفعل: التَحُنُّن، واللَّه الحَنّانُ المنَّان الرَّحيم بعباده، وَحَنانًا مِنْ لَدُنَّا؛ أي رحمةً من عندنا))[٤]، ويقول في مادَّة أخرى: ((رأف: الرّأفة الرَّحْمَةُ))[٥]، وكذلك قال أبو بكر الأنباريُّ (ت: ٣٢٨هـ): ((قال أهل اللغة: الرؤوف معناه في كلامهم: الشديد الرحمة))[٦]، وقال أيضًا: ((الحنان: الرحمة؛ من قولك: فلان يتحنَّن على فلان؛ أي يترحَّم))[٧]، وهكذا يتبيَّن أنَّ معنى مفردتَي (الحنان) و(الرأفة) قد فسِّرتا بأنَّهما (الرحمة).

(١) كتاب العين: مادة (رحم): ٢٢٤/٣.
(٢) ينظر: جمهرة اللغة: مادة (رحم): ٥٢٣/١.
(٣) ينظر: تهذيب اللغة: مادة (رحم): ٣٣/٥.
(٤) كتاب العين: مادة (حنَّ): ٢٩١٣.
(٥) المصدر نفسه: مادة (رأف): ٢٩/٣.
(٦) الزاهر في معاني كلمات الناس: ٩٧/١.
(٧) المصدر نفسه: ١٠٤/١.

ونجد الأزديَّ يقول: ((والرقَّة: الرَّحْمَة فِي الْقلب))[١] فقد فسَّر معنى الرقَّة بأنَّه الرحمة، على حين لم يفسِّر هؤلاء الرحمة بشيء آخر، وهذا يبيِّن أنَّها في نظرهم أبسط كلمة تحمل هذا المعنى المعروف الذي لا يتطلَّب بيانًا أكثر ممَّا تكشف عنه كلمة (الرحمة) نفسها.

وفسَّر الأزهريُّ بعض المفردات بأنَّها (الرحمة) فنجده يقول: ((الحَنَان: الرَّحْمَة، وَالْفِعْل التحنُّن. قَالَ: وَاللَّه الحَنَّان المنَّان الرَّحِيم بعباده وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (مريَم: ١٣)؛ أَي رَحْمَة من لدنَّا))[٢] وقال أيضًا: ((قَالَ الْفرَّاء: الرّأفة، والرآفة: الرحْمة: مثل الكأبَة والكَآبة. وَقَالَ الزجَّاج: معنى (لَا تأخذكم بهما رأفة)، أَي لَا تَرحموهما))[٣] ومنه يتبيَّن أنَّ كلمة (الرحمة) عند هؤلاء المعجميِّين تحمل دلالة بسيطة لا يمكن تفسيرها بما هو أبسط منها، بل يُفسَّر بها معنى الكلمات الأُخر مثل (الحنان والرأفة).

ولعلَّ أوَّل المعجميِّين الذين فسَّروا كلمة (الرحمة) بما يعادلها هو الفارابيُّ (ت: ٣٩٣هـ)؛ إذ نجده يقول: ((الرَحْمَةُ: الرِقَّةُ والتعطُّفُ))[٤] ثمَّ يستمرُّ في الحديث في هذه المادَّة مُرجعًا تقلُّباتها إلى معنى (الرحم) الذي قرَّره في بداية مستهلِّ حديثه عن هذه المادَّة اللغويَّة، أمَّا عند حديثه في مادة (رأف) فنجده يقول: ((الرَأْفَةُ: أشدُّ الرحمة))[٥] وكذلك في مادَّة (حنن) قال: ((والحَنانُ: الرحمةُ؛ يقال منه: حَنَّ عليه يَحِنُّ حَنانًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾))[٦]، وبهذا يكون الفارابيُّ قد تميَّز عمَّن سبقه من المعجميِّين بأنَّه بيَّن دلالة كلمة (الرحمة) المعجميَّة بأنَّها (الرقَّة والتعطُّف)، وأنَّه خصَّص معنى (الرأفة) بأنَّه (أشدُّ الرحمة).

---

(١) جمهرة اللغة: مادة (رق ق): ١/١٢٥.
(٢) تهذيب اللغة: مادة (ح ن ن): ٣/٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه: مادة (رأف): ١٥/١٧٢.
(٤) تاج اللغة وصحاح العربية: مادة (رحم): ٥/١٩٢٩.
(٥) المصدر نفسه: مادة (رأف): ٤/١٣٦٢.
(٦) المصدر نفسه: مادة (حنن): ٥/٢١٠٤.

ومن جاء بعد الفارابيُّ من المعجميِّين نجدهم يفسِّرون كلمة (الرحمة) بمثل ما فسَّرها الفارابيُّ أو قد يزيدون عليه قليلًا، فنجد ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) يقول: ((رَحِمَ: الرَّاءُ وَالْحَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، وَالرُّحْمُ وَالْمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بِمَعْنًى))[١].

ونجد ابن سيده (ت: ٤٥٨هـ) يقول: ((الرحمَةُ: الرقَّة، والرحمَةُ الْمَغْفِرَة))[٢] وأعتقد أنَّ إضافة ابن سيده لفظة (المغفرة) إلى معنى الرحمة هي إضافة سياقيَّة لمعنى الكلمة وليست دلالة لغويَّة معجميَّة؛ ففي بعض سياقات الآيات الكريمة أفادت كلمة (الرحمة) معنى (المغفرة)، فالمغفرة نتيجة للرحمة التي هي العطف والرقَّة والتلطُّف.

وإذا وصلنا إلى ابن منظور (ت: ٧١١هـ) نجده يقول: ((رحم: الرَّحْمة: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمرْحَمَةُ مِثْلُهُ، وَقَدْ رَحِمْتُهُ وتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ، وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، والرَّحْمَةُ: الْمَغْفِرَةُ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ القرآن: ﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أَي فَصَّلْناه هَادِيًا وَذَا رَحْمَةٍ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾؛ أي هُوَ رَحْمةٌ لأَنَّه كَانَ سَبَبَ إِيمانهم))[٣].

يتَّضح من كلامه أنَّه يكرِّر ما قاله الفارابي وابن فارس من أنَّ معنى (الرحمة) هو (الرقَّة والتعطُّف) وأعتقد أنَّ هذا المعنى هو معنى لغويٌّ مركزيٌّ يصاحب كلمة (الرحمة) في سياقاتها اللغويَّة المختلفة، فالرحمة هي (اللطف) و(العطف) المتأتِّي من (الرقَّة)، أمَّا إضافة ابن منظور معنى (المغفرة) إلى معنى (الرحمة) فقد ذكرت قبل قليل أنَّ هذا المعنى ليس دلالة مركزيَّة تدلُّ عليها هذه الكلمة في سياقاتها كلِّها؛ بل هو معنى سياقيٌّ خاصٌّ بكلمة (الرحمة) في بعض الآيات

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (ر ح م): ٤٩٨/٢.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم: مادة (ر ح م): ٣٣٦/٣.
(٣) لسان العرب: مادة (ر ح م): ٢٣٠/١٢.

القرآنيَّة التي سنشير إليها في محلِّها، فالمغفرة نتيجة حاصلة عن الرحمة التي هي (اللطف والتعطُّف) وسببهما (الرقَّة).

ونجد ابن منظور كذلك يقول في معنى الرأفة: ((الرأْفة: الرَّحْمَةُ، وَقِيلَ: أَشد الرَّحْمَة؛ رَأَفَ بِهِ يَرْأَفُ... والرَّأْفَةُ أَخصُّ مِنَ الرحمةِ وأَرَقُّ))[1] وبهذا يتبيَّن أنَّ الرحمة أعمُّ والرأفة أخصُّ منها؛ فالكلمتان خاصٌّ وعامٌّ، وهذه إشارة لطيفة من ابن منظور للتفريق بين دلالة الكلمتَيْن.

ولبيان علاقة (الرحمة) بـ(الرقَّة) نجد ابن منظور يقول في بيان معنى (الرقَّة): ((رَجُلٌ رَقِيقٌ؛ أَي ضَعِيفٌ هَيِّن؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (أَهلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقُّ قُلُوبًا)؛ أَي أَلْيَن وأَقبل للمَوْعِظة، وَالْمُرَادُ بالرِّقَّة ضِدُّ القَسوة والشدَّة... والرِّقَّةُ: الرَّحْمَةُ، ورقَقْت لَهُ أَرِقُّ: رحِمْتُه))[2] الرقَّة إذن هي الضعف واللين.

ممَّا تقدَّم يتبيَّن لنا المعنى المعجميِّ للرحمة هي: لطفٌ، وعطفٌ، وتلطُّفٌ، متأتٍّ عن ضعفٍ، أو رقَّة، أو لينٍ، مراعاةً لحال شيء ما أو فرد ما، وأحسب أنَّ هذا المعنى المركزيَّ لكلمة (الرحمة) يبقى مصاحبًا لها في السياقات اللغويَّة التي ترد فيها كلَّها، لكن قد يضاف لهذا المعنى دلالات سياقيَّة أُخر، وقد تطغى الدلالات السياقيَّة على هذا المعنى أحيانًا، لكن عند التأمُّل في دلالة النصِّ نجد المعنى الدلاليَّ المعجميَّ باقيًا بنسبة معيَّنة؛ مصاحبا للمعنى السياقيِّ للكلمة، وهذا ما سنبيِّنه في صفحات البحث.

(١) لسان العرب: مادة (رأف): ١١٢/٩.
(٢) المصدر السابق نفسه: مادة (رق ق): ١٢٢/١٠.

المبحث الأوَّل: الدراسة الإحصائيَّة لألفاظ (الرحمة)

بدأت الدراسة بإحصاء عدد مرَّات استعمال المفردات المشتقَّة من الجذر اللغوي (ر ح م) في كلٍّ من النصَّيْن محلِّ الدراسة (القرآن الكريم) و(كلام أمير المؤمنين عليه السلام)، وذلك بغية تحديد انتشار المفاهيم التي تدلُّ عليها هذه المفردات في النصَّيْن، وقياس سعة استعمال هذه المفردات في القرآن الكريم وفي كلام الإمام عليٍّ عليه السلام ومقايسة كلٍّ من الاشتقاقات مع بعضها؛ لنتلمَّس مدى توظيف الإمام عليٍّ عليه السلام لألفاظ القرآن الكريمِ، وكانت النتائج التي توصَّل إليها البحث على النحو الآتي:

ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم:

بعد إحصاء الألفاظ المشتقَّة من الجذر اللغويِّ (ر ح م) الواردة في القرآن الكريم وتصنيفها، تحصَّلنا على النتائج المبيَّنة في الجدول رقم(١):

جدول رقم (١) استعمال ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم

ت	المفردة	مرات التكرار	النـــصّ	النسبة المئويَّة
١	رَحِمَ	٤	هود:٤٣، ١١٩، يوسف:٥٣، الدخان:٤٢	١,١٨٪
٢	رَحِمَنَا	١	الملك:٢٨	٠,٢٩٪
٣	رَحِمْنَاهُم	١	المؤمنون:٧٥	٠,٢٩٪
٤	رَحِمَهُ	١	الأنعام:١٦	٠,٢٩٪
٥	رحِمْتَهُ	١	غافر:٩	٠,٢٩٪
٦	يَرْحَمُ	١	العنكبوت:٢١	٠,٢٩٪
٧	يَرْحَمكُم	٢	الإسراء:٨، ٥٤	٠,٥٩٪
٨	يَرْحَمَنَا	١	الأعراف:١٤٩	٠,٢٩٪

٩	سَيَرْحَمُهُم	١	التوبة:٧١	٠,٢٩٪
١٠	تَرْحَمْنَا	١	الأعراف:٢٣	٠,٢٩٪
١١	تَرْحَمَنِي	١	هود:٤٧	٠,٢٩٪
١٢	تُرْحَمُوْنَ	٨	آل عمران:١٣٢، الأنعام:١٥٥، الأعراف:٦٣، ٢٠٤، النور:٥٦، النمل:٤٦، يس:٤٥، الحجرات:١٠	٢,٣٩٪
١٣	اِرْحَمْ	١	المؤمنون:١١٨	٠,٢٩٪
١٤	اِرْحَمْنَا	٣	البقرة:٢٨٦، الأعراف:١٥٥، المؤمنون:١٠٩	٠,٨٨٪
١٥	اِرْحَمْهُمَا	١	الإسراء:٢٤	٠,٢٩٪
١٦	رحمة الرَّحْمَة	٧٩	البقرة:١٧٥، ١٧٨، ٢١٨، آل عمران:٨، ١٠٧، ١٥٧، ١٥٩، النساء:٩٦، ١٧٥، الأنعام:٥٤،١٢، ١٣٣، ١٤٧، ١٥٤، ١٥٧، الأعراف:٤٩، ٥٢، ٥٦، ٧٢، ١٥٤، ٢٠٣، التوبة:٢١، ٦١، ٧١،يونس:٢١، ٥٧، هود:٩، ١٧، ٢٨، ٥٨، ٦٣، ٦٦، ٧٣، ٩٤، يوسف:١١١، الحجر:٥٦، النحل:٦٤، ٨٩،الإسراء:٢٤، ٢٨، ٨٢، ٨٧، ١٠٠، الكهف:١٠، ٥٨، ٦٥، ٨٢، ٩٨، مريم:٢،٢١، الأنبياء:٨٤، ١٠٧،النمل:٧٧، القصص:٤٣، ٤٦، ٨٦، العنكبوت:٥١، الروم:٢١، ٣٣، ٣٦، ٥٠، لقمان:٣، الأحزاب:١٧، فاطر:٢، يس:٤٤،ص:٩، ٤٣، الزمر:٥٣،٣٨،٩، غافر:٧، فصلت:٥٠، الشورى:٤٨، الزخرف:٣٢، الدخان:٦، الجاثية:٢٠، الأحقاف:١٢، الحديد:١٣، ٢٧	٢٣,٣٠٪
١٧	رَحْمَتِكَ	٣	الأعراف:١٥١، يونس:٨٦، النمل:١٩	٠,٨٨٪
١٨	رَحْمَتِنَا	٥	يوسف:٥٦، مريم:٥٠، ٥٣، الأنبياء:٧٥، ٨٦	١,٤٧٪

١٩	رَحْمَته	٢٥	البقرة:٦٤، ١٠٥، آل عمران:٧٤، النساء:٨٣، ١١٣، الأعراف:٥٧، التوبة:٩٩، يونس:٥٨، الإسراء:٥٧، الكهف:١٦، النور:٢٠،١٤،١٠، ٢١، الفرقان:٤٨، النمل:٦٣، القصص:٧٣، الروم:٤٦، الزمر:٣٨، الشورى:٨، ٢٨، الجاثية:٣٠، الفتح:٢٥، الحديد:٢٨، الإنسان:٣١	٪٧,٣٧
٢٠	رَحْمَتِي	٢	الأعراف:١٥٦، العنكبوت:٢٣	٪٠,٥٩
٢١	رَحِيْمٌ الرحيم	٩٥	الفاتحة:١،٣، البقرة:٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٤٣، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٣، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٦، آل عمران:٣١، ٨٩،١٢٩، النساء:٢٥، المائدة:٣، ٣٤، ٣٩، ٧٤، ٩٨، الأنعام:٥٤، ١٤٥، ١٦٥، الأعراف:١٥٣، ١٦٧، الأنفال:٦٩، ٧٠، التوبة:٥، ٢٧، ٩١، ٩٩، ١٠٢، ١٠٤، ١١٧، ١٢٨،١١٨، يونس:١٠٧، هود:٤١، ٩٠، يوسف:٥٣، ٩٨، إبراهيم:٣٦، الحجر:٤٩، النحل:٧، ١٨، ٤٧، ١١٠، ١١٥، ١١٩، الحج:٦٥، النور:٥، ٢٠، ٢٢، ٣٣، ٦٢، الشعرا:٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١، ٢١٧، النمل:٣٠،١١، القصص:١٦، الروم:٥، السجدة:٦، سبأ:٢، يس:٥، ٥٨، الزمر:٥٣، فصلت:٢، ٣٢، الشورى:٥، الدخان:٤٢، الأحقاف:٨، الحجرات:٥، ١٢، ١٤، الطور:٢٨، الحديد:٩، ٢٨، المجادلة:١٢، الحشر:١٠، ٢٢، الممتحنة:٧، ١٢، التغابن:١٤، التحريم:١، المزمل:٢٠	٪٢٨,٠٢
٢٢	رَحِيْمًا	٢٠	النساء:١٦، ٢٣، ٢٩،٦٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠٦، ١١٠، ١٢٩، ١٥٢، الإسراء:٦٦، الفرقان:٦، ٧٠، الأحزاب:٥، ٢٤، ٤٣، ٥٠، ٥٩، ٧٣، الفتح:١٤	٪٥,٩٠

٢٣	الرَّحْمنِ	٥٧	الفاتحة:١، ٣، البقرة:١٦٣، الرعد:٣٠، الإسراء:١١٠، مريم:١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، طه:٥، ٩٠، ١٠٨، ١٠٩، الأنبياء:٢٦، ٣٦، ٤٢، ١١٢، الفرقان:٢٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، الشعراء:٥، النمل:٣٠، يس:١١، ١٥، ٢٣، ٥٢، فصلت:٢، الزخرف:١٧، ١٩، ٢٠، ٣٣، ٤٥، ٨١، ق:٣٣، الرحمن:١، الحشر:٢٢، الملك:٣، ١٩، ٢٠، ٢٩، النبأ:٣٧، ٣٨	٪١٦,٨١
٢٤	أَرْحَمَ	٤	الأعراف:١٥١، يوسف:٦٤، ٩٢، الأنبياء:٨٣	٪١,١٨
٢٥	الرَّاحِمِيْنَ	٦	الأعراف:١٥١، يوسف:٦٤، ٩٢، الأنبياء:٨٣، المؤمنون:١٠٩، ١١٨	٪١,٧٧
٢٦	الأَرْحَام	٩	آل عمران:٦، النساء:١، الأنعام:١٤٣، ١٤٤، الأنفال:٧٥، الرعد:٨، الحج:٥، لقمان:٣٤، الأحزاب:٦	٪٢,٦٥
٢٧	أَرْحَامَكُمْ	٢	محمد:٢٢، الممتحنة:٣	٪٠,٥٩
٢٨	أَرْحَامَهُنَّ	١	البقرة:٢٢٨	٪٠,٢٩
٢٩	رُحَمَاءُ	١	الفتح:٢٩	٪٠,٢٩
٣٠	المَرْحَمَةُ	١	البلد:١٧	٪٠,٢٩
٣١	رُحْمًا	١	الكهف:٨١	٪٠,٢٩
مجموع الصيغ		٣١	مجموع الاستعمال للمفردات	٣٣٩ ٪١٠٠

عند تحليل نتائج الجدول السالف يتبيَّن لنا:

أوَّلًا: بلغ مجموع استعمال ألفاظ (الرحمة) الواردة في القرآن الكريم (٣٣٩) ثلاثمئة وتسعًا وثلاثين مرَّة، وتنوَّعت صيغ هذه الألفاظ المشتقَّة من الجذر (ر ح م) فكانت على (٣١) إحدى وثلاثين صيغة.

ثانيًا: كانت الصيغ المستعملة متنوِّعة ومتباينة في سعة الاستعمال، ويمكن وصفها على النحو الآتي:

هناك (١٥) خمس عشرة صيغة من صيغ (ر ح م) قد وردت في القرآن الكريم مرَّة واحدة لكلٍّ منها، وهي ألفاظ: (رَحِمَنَا، رَحِمْنَاهُم، رَحِمَهُ، رّحِمْتَهُ، يَرْحَمُ، يَرْحَمَنَا، سَيَرْحَمُهُم، تَرْحَمْنَا، تَرْحَمَنِي، اِرْحَمْ، اِرْحَمْهُمَا، أَرْحَامَهُنَّ، رُحَمَاءُ، المَرْحَمَةُ، رُحْمًا)، وإذا تذكَّرنا أنَّ مجموع استعمال كلِّ المفردات المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في القرآن الكريم هو (٣٣٩) مرَّة ستكون النسبة المئويَّة لاستعمال كلٍّ من هذه الصيغ إلى مجموع الاستعمال الكلِّيِّ للمفردات هي: (٢٩ , ٠٪)؛ أي تقريبًا ثلاث مرَّات كلّ ألف استعمال لمفردات (الرحمة).

هناك (٣) ثلاث صيغ استُعمل كلٌّ منها مرَّتين في القرآن الكريم وهي: (يَرْحَمُكُم، رَحْمَتِي، أَرْحَامَكُمْ) وبذلك تكون النسبة المئويَّة لاستعمال كلٍّ منها إلى مجموع الاستعمالات الكلية (٥٩ , ٠٪)؛ أي قرابة ستٍّ مرَّات كلّ ألف مرَّة ترد فيها مفردات الرحمة.

هناك صيغتان استُعمل كلٌّ منهما ثلاث مرَّات في القرآن الكريم وهما: (اِرْحَمْنَا، رَحْمَتِكَ)؛ لتكون النسبة المئويَّة لاستعمال كلٍّ من هذه الألفاظ قياسًا إلى المجموع الكلِّيِّ (٨٨ , ٠٪)؛ أي استُعمِل كلٌّ من هذه الألفاظ تسع مرات تقريبا كلّ ألف استعمال لمفردات (الرحمة).

رصدنا صيغتَيْن استُعملَت كلٌّ منهما أربع مرَّات في القرآن الكريم؛ هما: (رَحِمَ، أَرْحَمَ)، وبذا تكون النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا للمجموع الكلِّيِّ لمرَّات الاستعمال (١٨ , ١٪) واحد بالمئة أو عشر مرَّات كلّ ألف مرَّة تتكرَّر فيها ألفاظ (الرحمة).

رصدنا صيغة واحدة استُعمِلت (٥) خمس مرات في القرآن الكريم وهي: (رَحْمَتِنَا)؛ أي إنَّ النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع الاستعمال الكلِّيِّ بلغت (٤٧ , ١٪).

وهناك صيغة واحدة استُعمِلت (٦) ست مرَّات في القرآن الكريم، وهي (الرَّاحِمِيْنَ)؛ لتكون النسبة المئويَّة لاستعمالها (١,٧٧٪).

وهناك صيغة واحدة استُعمِلت (٨) ثمان مرَّات في القرآن الكريم، وهي (تُرْحَمُوْنَ)، ونسبتها المئويَّة في الاستعمال الكلِّيِّ (٢,٣٩٪)؛ أي تتكرَّر مرَّتين كلَّ مئة استعمال.

وهناك صيغة واحدة استُعمِلت (٩) تسع مرَّات في القرآن الكريم، وهي (الأرْحَام)؛ أي إنَّ النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع الاستعمالات الكلِّيَّة بلغت (٢,٦٥٪).

رصدنا في البحث صيغة واحدة استُعمِلت (٢٠) عشرين مرَّة في القرآن الكريم وهي (رَحِيْمًا)؛ لتكون النسبة المئويَّة لاستعمالها (٥,٩٠٪)؛ أي تتكرَّر ستَّ مرَّات تقريبًا كلَّ مئة مرَّة ترد فيها ألفاظ (الرحمة).

رصدنا صيغة واحدة استُعمِلت (٢٥) خمسًا وعشرين مرَّة في القرآن الكريم وهي (رَحْمَته)؛ لتكون النسبة المئويَّة لاستعمالها (٧,٣٧٪)؛ أي سنجدها تتكرَّر سبع مرَّات كلَّ مئة استعمال لمفردات (الرحمة) في القرآن الكريم.

رصدنا صيغة واحدة استُعمِلت (٥٧) سبعًا وخمسين مرَّة في القرآن الكريم وهي (الرَّحْمنِ)، وبذا تكون النسبة المئويَّة لاستعمالها في القرآن الكريم قياسًا إلى مجموع استعمالات ألفاظ (الرحمة) (١٦,٨١٪).

رصدنا صيغة واحدة استُعمِلت (٧٩) تسعًا وسبعين مرَّة في القرآن الكريم وهي (رحمة الرَّحْمَة)، وهذا يعني أنَّ النسبة المئويَّة لاستعمال هذه المفردة في القرآن الكريم (٢٣,٣٠٪)؛ أي كلُّ مئة استعمال لألفاظ الرحمة نجد لفظة (الرحمة) تتكرَّر (٢٣) مرَّة.

رصدنا صيغة واحدة استُعمِلت (٩٥) خمسًا وتسعين مرَّة في القرآن الكريم وهي (رَحِيْمٌ الرحيم)، وهذا يعني أنَّ نسبة استعمالها المئويَّة قياسًا بالمجموع الكلِّي لاستعمال ألفاظ الرحمة بلغت (٢٨,٠٢٪)؛ أي إنَّ صيغة (الرحيم أو رحيم) تتكرَّرت كلَّ (٢٨) مرَّة كلّ مئة استعمال لمفردات الرحمة.

ثالثًا: إذا أردنا أن نرتِّب الصيغ الأكثر استعمالًا في القرآن الكريم فالأكثر، تكون على النحو الآتي: صيغة (رحيم- الرحيم) التي بلغت استعمالاتها (٩٥) مرَّة، وإذا أردنا أن نضيف إليها (رحيمًا) بالنصب، يكون مجموع ورود هذه الألفاظ (١١٥) مئة وخمس عشرة مرَّة؛ لتكون النِّسَب المئويَّة لتكرار هذه الصيغة قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم (٩٢,٣٣٪)؛ أي نجد لفظة (الرحيم، أو رحيم، أو رحيمًا) ترد -تقريبا- (٣٤) مرَّة كلَّ مئة مرَّة تتكرَّر فيها ألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم، ثمَّ تأتي بعدها صيغة (الرحمة - الرحمة) بنسبة (٢٣٪) ثمَّ صيغة (الرحمن) بنسبة (١٦٪) ثمَّ صيغة (رحمته) مضافة لضمير الغيبة بنسبة (٧٪)، ثمَّ ترد الصيغ الأُخر بنِسَب قليلة (الأرحام) ثمَّ (ترحمون) ثمَّ (الراحمين) وبقيَّة الألفاظ بنِسَبٍ تقلُّ عن مرَّة واحدة كلِّ مئة استعمال.

ومن هنا يتبيَّن أنَّ لفظتي (الرحيم) و(الرحمة) لوحدهما تتجاوز نسبة استعمالهما (٥٧٪) من مجموع استعمال ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم، وإذا أردنا أن نضيف إليهما لفظة (الرحمن) تكون النسبة المئويَّة لاستعمال هذه الصيغ الثلاثة قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة (٧٤,٠٣٪)؛ أي ثلاثة أرباع مجموع الاستعمالات الكلِّيَّة لألفاظ الرحمة في القرآن الكريم.

رابعًا: وردت الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) بثلاث عشرة صيغة هي:

فعل ماضٍ (رَحِمَ) وردت هذه الصيغة أربع مرات، لتكون النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع الاستعمالات (١٨,١٪).

فعل ماضٍ (رَحِمَ) متَّصل بضمير نصب (نا) (رَحِمَنا) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل ماض (رَحِمَ) متَّصل بضمير رفع (نا) ثمَّ ضمير نصب (هم) (رحِمناهم) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل ماض (رَحِمَ) متَّصل بضمير نصب (ـه) (رَحِمَه) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل ماض (رَحِمَ) متَّصل بضمير رفع (تَ) ثمَّ ضمير نصب (ـه) (رحِمتَه) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) ورد مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير نصب (كم) (يرحمكم) وردت هذه الصيغة مرَّتين وبنسبة مئويَّة مقدراها (٥٩ , ٠٪) تقريبًا ستَّة بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير نصب (نا) (يرحمنا) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير نصب (ي) وقبلها نون الوقاية (تَرْحَمَنِي) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل مضارع على صيغة الأفعال الخمسة (ترحمون) وردت هذه الصيغة ثمان مرَّات ونسبتها المئويَّة (٣٩ , ٢٪).

فعل أمر (ارْحَمْ) ورد مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

فعل أمر (ارْحَمْ) متَّصل بضمير نصب (نا) وردت هذه الصيغة ثلاث مرَّات ونسبتها المئويَّة (٨٨ , ٠٪) ثمان مرَّات بالألف.

فعل أمر (اِرْحَمْ) متَّصل بضمير نصب (هما) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٢٩ , ٠٪) اثنين بالألف.

وبذا يكون مجموع صيغ الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) الواردة في القرآن الكريم (١٥) خمس عشرة صيغة، خمس صيغ منها كانت للفعل الماضي، ومجموع استعمالات الفعل الماضي (رَحِمَ) بكلِّ صِيَغِه (٨) ثمان مرَّات.

أمَّا الفعل المضارع (يرحم) فقد ورد على (٧) سبع صِيَغ وبلغ مجموع استعمالاته (١٥) خمس عشرة مرَّة، على حين كانت الصِّيَغ التي ورد بها فعل الأمر ثلاثة، ومجموع استعمالاته (٥) خمس مرَّات.

وإذا أردنا أن نقيس مجموع استعمالات الأفعال بكلِّ صيغها ستكون (٢٨) ثمان وعشرين مرَّة من أصل (٣٣٩) استعمالًا لألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم لتكون النسبة المئويَّة لاستعمال الأفعال قياسًا إلى مجموع الاستعمالات الكلِّيِّ (٨٪)؛ أي ثمان مرَّات يردنا فعل في كلِّ مئة مرَّة تتكرَّر فيها ألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم.

خامسًا: ممَّا تقدَّم يكون التكرار الأكثر للمفردات المشتقَّة من الجذر (ر ح م) قد وردت على صيغ أسماء، وقد بلغ مجموع تكرار هذه الأسماء (٣١١) مرَّة من مجموع الاستعمالات القرآنيَّة، وتكون النسبة المئويَّة لاستعمال الأسماء المشتقَّة من (ر ح م) (٩٢٪).

هذا تفصيل الدراسة الإحصائية لألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم ونسبها المئويَّة.

ألفاظ الرحمة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

اختار البحث أن يعتمد كلام أمير المؤمنين عليِّ ابن أبي طالب عليه السلام الذي جمعه الشريف الرضيُّ (ت٤٦٤هـ) في كتاب نهج البلاغة؛ لوثاقته ولكونه نصًّا محدَّدا يمكن دراسته وإجراء الإحصاء على ألفاظه، وبعد إحصاء الألفاظ المشتقَّة من الجذر اللغويِّ (ر ح م) الواردة في نصوص نهج البلاغة تحصَّلت لنا البيانات المبيَّنة في الجدول رقم (٢):

جدول رقم (٢) إحصاء ألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليِّ ابن أبي طالب عليه السلام

ت	المفردة	مرَّات التكرار	النصّ	النسبة المئويَّة
١	رَحِمَ	٦	رحم اللَّه امرءًا سمع حكمًا فوعى (الخطبة ٧٦-١) رحم اللَّه امرءا تفكَّر فاعتبر واعتبر فأبصر (الخطبة ١٠٣-٤) فرحم اللَّه امرءًا استقبل توبته واستقال خطيئته (الخطبة ١٤٣-٥) فرحم اللَّه امرءًا نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه (الخطبة١٧٦-٣) رحم اللَّه رجلًا رأى حقًّا فأعان عليه أو رأى جورًا فردَّه (الخطبة ٢٠٥-٩) فإنَّ النفس إلاَّ ما رحم اللَّه (الكتاب ٥٣-٤)	٥,٦١٪
٢	رَحِمَكَ	١	فاربع أبا العبَّاس رحمك اللَّه فيما جرى على لسانك ويدك من خيرٍ ومن شرٍّ (الكتاب ١٨-٤)	٠,٩٣٪

٣	رَحِمَكُمُ	٥	اعملوا رحمكم اللَّه على إعلام بيِّنةٍ (الخطبة ٩٤-٨) فسابقوا رحمكم اللَّه إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها (الخطبة ٢٠٤-١) تجهَّزوا رحمكم اللَّه فقد نودي فيكم بالرحيل (الخطبة٢٣٣-٢) واعلموا رحمكم اللَّه أنَّكم في زمان القائل فيه بالحقِّ قليل (الخطبة٢٣٣-٢) انفروا رحمكم اللَّه إلى قتال عدوِّكم (الكتاب ٦٢-١٣)	٤,٦٧٪
٤	رَحِمَهُ	٢	(مالك بن الحارث الأشتر) فرحمه اللَّه فلقد استكمل أيَّامه (الكتاب ٣٤-٣) فإنَّ مصر قد افتُتِحت ومحمَّد ابن أبي بكر رحمه اللَّه قد استشهد (الكتاب ٣٥-١)	١,٨٧٪
٥	رَحِمْتَ	١	لقد استهام بك (عاصم بن زياد) الخبيث، أما رحمتَ أهلك وولدك (الخطبة ٢٠٩-٣)	٠,٩٣٪
٦	يَرْحَمُ	١	يرحم اللَّه الخبَّاب بن الأرتَ فلقد أسلمَ راغبا (قصار الحكم ٤٣)	٠,٩٣٪
٧	يَرْحَمْكَ	١	(اللَّه تعالى) أمركَ أن تسأله ليعطيكَ وتَسْترحمه لـ(يرحمكَ) (الكتاب ٣١-٦٤)	٠,٩٣٪
٨	يَرْحَمُهُ	١	من كبير كان يعظمه أو صغير كان يرحمه (الخطبة ٢٢١-٣٤)	٠,٩٣٪
٩	يَرْحَمُوا	١	وأما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية (الخطبة ١٤٠-١)	٠,٩٣٪
١٠	تَرْحَمُ	٢	أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك (الخطبة ٢٢٣-٣)	١,٨٧٪

١١	تَسْتَرْحِمَهُ	١	(اللَّه تعالى) أمركَ أن تسأله ليعطيكَ وتَسْترحمه ليرحمكَ (الكتاب ٣١-٦٤)	٠,٩٣٪
١٢	اِرْحَمْ	٢	اللَّهمَّ فارحم أنينَ الآنَّةِ وحنين الحانَّةِ اللَّهمَّ فارحم حيرتها في مذاهبها (الخطبة ١١٥-٢)	١,٨٧٪
١٣	اِرْحَمُوا	١	فارحموا نفوسكم فإنَّكم قد جرَّبتموها في مصائب الدنيا (الخطبة ١٨٣-١٥)	٠,٩٣٪

١٤	رحمة الرَّحْمَة	٢٢	والشاخص عنكم (أهل البصرة) متدارك برحمة (الخطبة ١٣-٢) الحمد للَّه الذي لا تبرح منه رحمةٌ (الخطبة ٤٥-١) وقد رجوتك دليلًا على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة (الخطبة ٩١-١٠٣) ورسولك بالحقِّ رحمةً (الخطبة ١٠٦-٧) ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة (الخطبة ١٠٩-٣٨) (أمر الحكمين) أوَّله رحمة وآخره ندامة (الخطبة ١٢٢-٥) وقد جعل اللَّه سبحانه الاستغفار سببًا لدرور الرزق ورحمة الخلق (الخطبة ١٤٣-٤) أمره قضاء وحكمة ورضاه أمان ورحمة (الخطبة ١٦٠-١) فكم خصَّكم بنعمة وتداركم برحمة (الخطبة ١٨٨-٢) (المتَّقي) يبيت حذرًا ويصبح فرحًا حذرًا من الغفلة وفرحًا بما أصاب من الفضل والرحمة (الخطبة ١٩٣-١٩) ودنوِّه ممَّن دنا منه لينٌ ورحمةٌ (الخطبة١٩٣-٢٧) ولا يشغله غضب عن رحمة (الخطبة ١٩٥-٧) ولا تولهه رحمة عن عقاب (الخطبة ١٩٥-٧) فمن أخذ بالتقوى... وتحدَّبت عليه الرحمة بعد نفورها (الخطبة ١٩٨-١٠) أو ترى المبتلى بألم بمضِّ جسده فتبكي رحمة له (الخطبة٢٢٣-٤) (القيامة) دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة (الكتاب 10-27) ولم يناقشك بالجريمة ولم يؤيسك من الرحمة (الكتاب ٣١-٦٧) (يا مالك) وأشعر قلبك الرحمة للرعيَّة (الكتاب ٥٣-٨) الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة اللَّه (قصار الحكم٩٠) (الدنيا) اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة (الحكم ١٣١-٧) ابنك سرُّك وهو بلاء وفتنة وحزنك وهو ثواب ورحمة (الحكم ٢٩١-١) فارجُ لمن مضى رحمة اللَّه ولمن بقي رزق اللَّه (الحكم ٤١٦-٥)	٪٢٠,٥٦

١٥	رَحْمَتِكَ	٤	(اللَّهمَّ) فإنَّك تنشر الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد (الخطبة ١١٥-١١) اللَّهمَّ... وانشر علينا رحمتكَ بالسحاب المنبعق (الخطبة ١١٥-٥) اللَّهمَّ إنَّا خرجنا إليك ... راغبين في رحمتك .... اللَّهمَّ انشر علينا غيثك وبركتك ورزقك ورحمتك (الخطبة ١٤٣-٦ و١٠)	٣,٧٤٪

			فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته (الخطبة ١-٣)	
			(آدم عليه السلام) ولقَّاه كلمة رحمته (الخطبة١-٣٣)	
			الحمد للَّه غير مقنوط من رحمته (الخطبة (٤٥-١)	
			واتَّسعت رحمته لأوليائه في شدَّة نقمته (الخطبة ٩٠-٦)	
			هو الذي اشتدَّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته (٩٠-٦)	
			(المؤمنون) أولئك يفتح اللَّه لهم أبواب رحمته (الخطبة ١٠٩-١٠)	
			(قال رسول اللَّه ص) يا عليُّ إنَّ القوم سيفتنون بأموالهم ويمنُّون بدينهم على ربهم ويتمنُّون رحمته (الخطبة١٥٦-١٥)	
			جعلنا اللَّه وغياكم ممَّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته (الخطبة ١٦٥-٣٥)	
١٦	رَحْمَتِهِ	١٨	(رسول اللَّه ص) أمين وحيه وخاتم رُسُله وبشير رحمته (الخطبة ١٧٣-١)	٪١٦,٨٢
			وعفا عنَّا وعنكم بفضل رحمته (الخطبة١٩٠-١٦)	
			(الكعبة) جعله اللَّه سببًا لرحمته (الخطبة ١٩٢-٦٠)	
			سفير وحيه ورسول رحمته (الخطبة ١٩٨-٢)	
			فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته (الكتاب٣١-٧١)	
			وسألته خزائن رحمته (الكتاب ٣١-٦٩)	
			ولا غنى بك عن عفوه (تعالى) ورحمته (الكتاب ٥٣-١٢)	
			ونحِّ عنهم (الضعفاء) الضيق والأنف يبسط اللَّه عليك بذلك أكناف رحمته (الكتاب ٥٣-١١٢)	
			وقد جعل اللَّه عهده وذمَّته أمنا أفضاه بين العباد برحمته (الكتاب ٥٣-١٣٧)	
			وأمَّا أسال اللَّه بسعة رحمته (الكتاب ٥٣-١٥٥)	

١٧	الإسْتِرْحَام	١	بلغني أنَّ الرجل منهم (أهل الشام) كان يدخل على المرأة المسلمة ... ما تمتنع منه إلَّا بالاسترجاع والاسترحام (الخطبة ٢٧-٧)	٠,٩٣٪
١٨	رَحِيْمٌ	٢	ربٌّ رحيمٌ ودينٌ قويمٌ (الخطبة ١٤٩-٤) رحيمٌ لا يوصف بالرِّقَّة (الخطبة ١٧٩-٣)	١,٨٧٪
١٩	رَحِيْمًا	١	وكن بالمؤمنين رحيمًا (الكتاب ٥٣-١٢٠)	٠,٩٣٪
٢٠	الرَّحْمنِ	٣	(الشهادة) فإنَّها عزيمة الإيمان وفاتحة الإحسان) ومرضاة الرحمن (الخطبة ٢-٣) (قبل البعثة) والناس في فتن... عصى الرحمن ونصر الشيطان (الخطبة ٢-٧) (أهل البيت) وهم كنوز الرحمن (الخطبة ١٥٤-٤)	٢,٨٠٪
٢١	المَرْحُومَ	١	(الدنيا) ومن غيرها إنَّك ترى المرحوم مغبوطًا والمغبوط مرحومًا (الخطبة ١١٤-١٠)	٠,٩٣٪
٢٢	مَرْحُوْمًا	١	(الدنيا) ومن غيرها إنك ترى المرحوم مغبوطا والمغبوط مرحوما (الخطبة ١١٤-١٠)	٠,٩٣٪
٢٣	أَرْحَمَ	١	ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين (الخطبة ١٤٣-٨)	٠,٩٣٪
٢٤	الرَّاحِمِيْنَ	١	ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين (الخطبة ١٤٣-٨)	٠,٩٣٪

٢٥	الرَّحِمِ	٩	وصلة الرحمِ فإنها مثراةٌ في المال (الخطبة ١١٠-٣) لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحمٍ (الخطبة ١٣٩-١) (أهل الضلال) ووصلوا غير الرَّحم (الخطبة ١٥٠-٩) (قال لعثمان) وأنت أقرب إلى رسول اللَّه ﷺ وشيجة رحمٍ منهما (الخطبة ١٦٤-٤) (قال لعلاء بن زياد) ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا ... وتصل فيها الرحم (الخطبة ٢٠٩-٢) يأتي على الناس زمان ... وصلة الرحم مَنًّا (الحكم ١٠٢-٢) الكرم أعطف من الرحم (الحكم ٢٤٧) وصلة الرحم منماةٌ للعدد (الحكم ٢٥٢-٣) يا أشعث إن تحزن على ابنك فقد استحقَّت منك ذلك الرحمُ (الحكم ٢٩١-١)	٨,٤١٪
٢٦	رَحِمًا	١	وإنذَ لهم (بنو تميم) بنا رحمًا ماسَّةً وقرابةً خاصَّةً (الكتاب ١٨-٣)	٠,٩٣٪
٢٧	رَحِمَكَ	١	(إلى معاوية) ثم ذكرتَ ما كان من أمري وأمر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه (الكتاب ٢٨-٢٣)	٠,٩٣٪
٢٨	رَحِمِي	٣	(قريش) فإنَّهم قطعوا رحمي وصغَّروا عظيم منزلتي (الخطبة ١٧٢-٤) (قريش) فإنهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلتي (الخطبة ٢١٧-١) فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن امِّي (الكتاب ٣٩-٥)	٢,٨٠٪

٢٩	الأرْحَام	١٢	ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء (الخطبة ١٢-٣) أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام (الخطبة ٨٣-٤٥) وأحصى آثارهم ... ومستودعهم من الأرحام والظهور (الخطبة ٩٠-٥) (الأنبياء) تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام (الخطبة ٩٤-٢) (الملائكة) لم يسكنوا الأصلاب ولم يُضمَّنوا الأرحام (الخطبة ١٠٩-٩) ويعلم ما في الأرحام (الخطبة ١٢٨-٧) فيعلم اللَّه سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى (الخطبة ١٢٨-٨) (الفتن) تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام (الخطبة ١٥١-١٣) أيُّها المخلوق السَّويُّ والمُنشأ المرعيُّ في ظلمت الأرحام (الخطبة ١٦٣- ١١) فالأحوال مضطربة.. وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة (الخطبة ١٩٢-٩٧) (رسول اللَّه ص) وألَّفَ به الشَّمل بين ذوي الأرحام (الخطبة ٢٣١-٢) وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللَّه (الأنفال ٧٥) (الكتاب ٢٨-١٥)	٪١١,٢١
٣٠	أرْحَامَكُمْ	١	(العرب قبل البعثة) وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم (الخطبة ٢٦-٢)	٪٠,٩٣
مجموع الصيغ		٣٠	مجموع الاستعمال للمفردات: ١٠٧	٪١٠٠

عند تحليل نتائج جدول استعمال ألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام يتبيَّن لنا جملة من الأمور، هي:

أوَّلًا: بلغ مجموع استعمال ألفاظ (الرحمة) الواردة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في نهج البلاغة (١٠٧) مئة وسبع مرَّات، وتنوَّعت صِيغ هذه الألفاظ المشتقَّة من الجذر (ر ح م) فكانت على (٣٠) ثلاثين صيغة.

ثانيا: كانت الصِّيَغ المستعملة متنوِّعة ومتباينة في سعة الاستعمال يمكن وصفها على النحو الآتي:

رصدنا (١٧) سبع عشرة صيغة استُعمِل كلٌّ منها مرَّة واحدة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، هي: (رَحِمَكَ)، (رَحِمْتَ)، (يَرْحَمُ)، (يَرْحَمْكَ)، (يَرْحَمُهُ)، (يَرْحَمُوا)، (تَسْتَرْحِمُهُ)، (اِرْحَمُوا)، (الاِسْتِرْحَام)، (رَحِيْمًا)، (المَرْحُوم)، (مَرْحُوْمًا)، (أَرْحَمَ)، (الرَّاحِمِيْنَ)، (رَحِمًا)، (رَحِمَكَ)، (أَرْحَامَكُمْ)، لتكون نسبة استعمال كلٍّ من هذه الصِّيَغ قياسًا إلى المجموع الكلِّيِّ لألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالأف؛ أي تكررت ألفاظ الرحمة في كلامه ألف مرَّة، فنجد كلَّ صيغة من هذه الصِّيَغ تتكرَّر تسعة مرَّات؛ أي أقلّ من مرَّة واحدة بالمئة .

أحصينا (٤) أربع صِيَغ استُعمِل كلٌّ منها مرَّتين في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، هي: (رَحِمَهُ)، (تَرْحَمُ)، (اِرْحَمْ)، (رَحِيْمٌ)، وهذا يعني أنَّ النسبة المئويَّة لاستعمال كلٍّ واحدة من هذه الصِّيغ قياسًا إلى المجموع الكلِّيِّ لتكرار ألفاظ الرحمة في كلام الإمام عليه السلام (٨ , ١٪)؛ أي تكرَّر كلٌّ من هذه الصيغ ثماني عشرة مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام عليه السلام ألفاظ الرحمة في كلامه.

وجدنا صيغتَيْن استُعمِل كلٌّ منهما (٣) ثلاث مرَّات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، هما: (الرَّحْمنِ)، (رَحِيم)؛ هذا يعني أنَّ النسبة المئويَّة لاستعمال كلٍّ واحدة من

هاتَيْن الصيغتَيْن قياسًا إلى المجموع الكلِّيِّ لتكرار ألفاظ الرحمة في كلام الإمام عليه السلام (٨ , ٢٪)؛ أي ستتكرَّر كلُّ واحدة من الصيغتَيْن ثماني وعشرين مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام عليه السلام ألفاظ الرحمة في كلامه.

وجدنا في كلام الإمام علي عليه السلام صيغة واحدة استعملت (٤) أربع مرات هي (رَحْمَتِكَ) وبذا تكون النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٧ , ٣٪)، أي ستتكرر هذه الصيغة سبعًا وثلاثين مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام ألفاظ (الرحمة).

وكذلك وجدنا في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام صيغة واحدة استُعمِلت (٥) خمس مرَّات هي (رَحِمَكُمُ)، وهذا يعني أنَّ النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٦ , ٤٪)؛ أي ستتكرَّر هذه الصيغة ستًّا وأربعين مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام ألفاظ (الرحمة).

وجدنا في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام صيغة واحدة استُعمِلت (٦) ستُّ مرَّات هي (رَحِم)، وبذا تكون النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٦ , ٥٪)؛ أي ستتكرَّر هذه الصيغة ستًّا وخمسين مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام ألفاظ (الرحمة).

وهناك صيغة واحدة في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام صيغة واحدة استُعمِلت (٩) تسع مرَّات هي (الرَّحِم) وبذا تكون النسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٤ , ٨٪)، وبهذا ستتكرَّر هذه الصيغة أربعًا وثمانين مرَّة كلَّ ألف مرَّة يستعمل فيها الإمام ألفاظ (الرحمة).

ووجدنا صيغة واحدة في كلامه عليه السلام تكرَّرت (١٢) اثنتا عشرة مرَّة، وهي (الأرْحَام)، وهذا يعني أنَّ نسبة استعمالها المئويَّة قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة

في كلامه عليه السلام (٢ , ١١٪)؛ أي ستتكرَّر هذه الصيغة مئة واثنتي عشرة مرَّة كلَّ ألف استعمال لألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وكذلك وجدنا صيغة واحدة في كلامه عليه السلام تكرَّرت (١٨) ثماني عشرة مرَّة، وهي (رَحْمَتِه)، وهذا يعني أنَّ نسبة استعمالها المئويَّة قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٨ , ١٦٪)؛ أي ستتكرَّر هذه الصيغة مئة واثنتي عشرة مرَّة كلَّ ألف استعمال لألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأكثر الصِّيَغ لألفاظ (الرحمة) تكرارًا في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام كانت صيغة (الرَّحْمَة–رَحْمَة)؛ إذ تكرَّرت (٢٢) اثنتين وعشرين مرَّة، وهذا يعني أنَّ نسبة استعمالها المئويَّة قياسًا إلى مجموع ألفاظ الرحمة في كلامه عليه السلام (٥ , ٢٠٪)؛ أي ستتكرَّر هذه الصيغة مئتين وخمس مرَّات كلَّ ألف استعمال لألفاظ (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ثالثًا: إذا أردنا أن نرتِّب صيغ ألفاظ (الرحمة) بحسب كثرة تكرارها في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام فستكون على النحو الآتي: صيغة (الرَّحمَة) نسبة استعمالها (٢٠٪)، وبعدها صيغة (رَحْمَتِه) نسبة تكرارها (١٦٪)، ثمَّ صيغة (الأرحام) نسبة تكرارها (١١٪)، ثم صيغة (الرَّحِم) نسبة تكرارها (٨٪).

رابعا: وردت الأفعال في المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في كلام الإمام عليه السلام على ثلاث عشرة صيغة هي:

فعل ماضٍ (رَحِمَ) وردت هذه الصيغة (٦) ستَّ مرَّات، لتكون في كلام الإمام عليه السلام والنسبة المئويَّة لاستعمالها قياسًا إلى مجموع استعمالات ألفاظ (الرحمة) (٦ , ٥٪)؛ أي كلُّ مئة استعمال سنجد خمسَ مرَّات يتكرَّر الفعل (رحِمَ).

فعل ماضٍ (رَحِمَ) متَّصل بضمير نصب (ك) (رَحِمَكَ) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة، وبنسبة مئويَّة مقدارها (٩ , ٠٪) تسع بالألف.

فعل ماضٍ (رَحِمَ) متَّصل بضمير نصب (كم) (رحِمكُم) وردت هذه الصيغة (٥) خمس مرَّات، وبنسبة مئويَّة مقدارها (٦ , ٤٪).

فعل ماضٍ (رَحِمَ) متَّصل بضمير نصب (ـه) (رَحِمَه) وردت هذه الصيغة مرَّتين، وبنسبة مئويَّة مقدارها (٨ , ١٪).

فعل ماضٍ (رَحِمَ) متَّصل بضمير رفع (تَ) (رحِمتَ) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) ورد مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالألف.

فعل مضارع (تَرْحَمُ) ورد مرَّتين وبنسبة مئويَّة مقدارها (٨ , ١٪)، ثماني عشرة مرَّة بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير نصب (ك) (يَرْحَمْكَ) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة ونسبة مئويَّة مقدراها (٩ , ٠٪) تسع مرات بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير نصب (ـه) (يَرْحَمُهُ) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالألف.

فعل مضارع (يَرْحَمُ) متَّصل بضمير رفع (و) (يَرْحَمُوا) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة وبنسبة مئويَّة مقدارها (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالألف.

فعل مضارع (ترحم) على صيغة (تستفعل) متَّصل به ضمير نصب(ـه) (تَسْتَرْحِمَهُ) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة ونسبتها المئويَّة (٩ , ٠٪) تسع مرَّات بالألف.

فعل أمر (اِرْحَمْ) ورد مرتين وبنسبة مئويَّة مقدارها (٨ , ١٪) ثماني عشرة مرَّة بالألف.

فعل أمر (اِرْحَمْ) متَّصل بضمير رفع (و) وردت هذه الصيغة مرَّة واحدة، ونسبتها المئويَّة (٠,٩٪) تسع مرات بالألف.

وبذا يكون مجموع صيغ الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) الواردة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام (١٣) ثلاث عشرة صيغة، خمس صِيَغ منها كانت للفعل الماضي، ومجموع استعمالات الفعل الماضي (رَحِمَ) بكلِّ صِيَغه (١٥) خمس عشرة مرَّة، أمَّا الفعل المضارع (يرحم) فقد ورد على (٦) ستِّ صيغ وبلغ مجموع استعمالاته (٧) سبع مرَّات، على حين كانت الصيغ التي ورد بها فعل الأمر مرتين اثنتين، ومجموع استعمالاته (٣) ثلاث مرَّات.

وإذا أردنا أن نقيس مجموع استعمالات الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) بكلِّ صيغها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام تكون (٢٥) مرَّة من أصل (١٠٧) استعمالًا لألفاظ (الرحمة) في كلامه عليه السلام، لتكون النسبة المئويَّة لاستعمال الأفعال قياسًا إلى مجموع الاستعمالات الكلِّيِّ لألفاظ الرحمة (٢٣٪)؛ أي ستتكرَّر (٢٣) ثلاثًا وعشرين لفظة على صيغة فعل في كلِّ مئة مرَّة تتكرَّر فيها ألفاظ (الرحمة) في كلامه عليه السلام.

خامسًا: ممَّا تقدَّم يكون التكرار الأكثر للمفردات المشتقَّة من الجذر (ر ح م) قد وردت على صيغ أسماء، وقد بلغ مجموع تكرار هذه الأسماء (٨٢) اثنتين وثمانين مرَّة من مجموع الاستعمالات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وتكون النسبة المئويَّة لاستعمال الأسماء المشتقَّة من (ر ح م) (٧٦,٦٪)؛ أي سيتكرَّر (٧٧) سبعًا وسبعين اسمًا من ألفاظ الرحمة كلَّ مئة تكرار لهذه الألفاظ.

موازنة الدراسة الإحصائيَّة لألفاظ (الرحمة) بين القرآن الكريم وكلام الإمام علي عليه السلام:

أوَّلا: بلغت الصِّيَغ المشتقَّة من الجذر (ر ح م) المستعملة في القرآن الكريم

(٣١) صيغة، وبلغت الصِّيَغ المشتقَّة من الجذر نفسه المستعملة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام (٣٠) صيغة، وهذا يكشف لنا عن تقارب مفردات المعجم اللفظيِّ للإمام عليٍّ عليه السلام مع المعجم اللفظيِّ القرآنيِّ.

ثانيًا: عند فحص ألفاظ الرحمة المستعملة في القرآن الكريم والمستعملة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نجد (١٤) أربع عشرة صيغة مشتركة في الاستعمال بين النصَّيْن وهي:

ت	الصيغة	عدد الاستعمالات في القرآن الكريم	النسبة المئويَّة إلى مجموع الاستعمال القرآنيِّ	عدد الاستعمالات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام	النسبة المئويَّة إلى مجموع الاستعمال في كلامه عليه السلام
١	رَحِمَ	٤	٪١,١٨	٦	٪٥,٦١
٢	رَحِمَهُ	١	٪٠,٢٩	٢	٪١,٨٧
٣	يَرْحَمُ	١	٪٠,٢٩	١	٪٠,٩٣
٤	اِرْحَمْ	١	٪٠,٢٩	٢	٪١,٨٧
٥	رحمة الرَّحْمَة	٧٩	٪٢٣,٣٠	٢٢	٪٢٠,٥٦
٦	رَحْمَتِكَ	٣	٪٠,٨٨	٤	٪٣,٧٤
٧	رَحْمَتِهِ	٢٥	٪٧,٣٧	١٨	٪١٦,٨٢
٨	رَحِيْمٌ الرحيم	٩٥	٪٢٨,٠٢	٢	٪١,٨٧
٩	رَحِيْمَا	٢٠	٪٥,٩٠	١	٪٠,٩٣
١٠	الرَّحْمنِ	٥٧	٪١٦,٨١	٣	٪٢,٨٠
١١	أَرْحَمَ	٤	٪١,١٨	١	٪٠,٩٣
١٢	الرَّاحِمِيْنَ	٦	٪١,٧٧	١	٪٠,٩٣
١٣	الأرْحَام	٩	٪٢,٦٥	١٢	٪١١,٢١
١٤	أرْحَامَكُمْ	٢	٪٠,٥٩	١	٪٠,٩٣
المجموع		٣٠٧	٪٩٠,٥٦	٧٦	٪٧١,٠٣

من طريق النظر في الجدول السالف يتبيَّن لنا:

- أنَّ كلمة (الرحمة - رحمة) هي أكثر الألفاظ تطابقًا في النصَّيْن، ونسبتها متقاربة جدًّا في الاستعمال؛ فهي تتكرَّر ضمن المفردات المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في الاستعمال القرآنيِّ بنسبة (٢٣٪)، وتتكرَّرت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام بنسبة (٢٠٪)، وهذا يعكس لنا تقارب النصَّيْن استعمال هذه اللفظة وشيوع معناها في السياقات اللغويَّة القرآنيَّة والعلويَّة.

- أنَّ مجموع تكرار الصِّيَغ المتشابهة في الاستعمال القرآنيِّ والاستعمال العلويِّ تمثِّل الجزء الأكبر في كلٍّ من النصَّيْن، فقد بلغ مجموع تكرار هذه الصِّيَغ في القرآن الكريم (٣٠٧) مرَّة من أصل (٣٣٩) تكرار لكلِّ ألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم، وتشكل نسبتها المئويَّة (٩٠٪) من ألفاظ (الرحمة) القرآنيَّة، بينما بلغ مجموع تكرار ألفاظ الصِّيَغ المتماثلة في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام (٧٦) مرَّة من أصل (١٠٧) تكرار لكلِّ ألفاظ (الرحمة) في كلامه، ونسبتها في كلامه عليه السلام (٧٠٪)؛ أي إنَّ تسعين بالمئة من ألفاظ (الرحمة) القرآنيَّة قد استعملها أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه، واستعملها بنسبة (٧٠٪) من مجمل ألفاظ (الرحمة)، وهذه نتيجة مهمَّة تكشف لنا أنَّ كلامه عليه السلام كان مشتقًّا من التعبير القرآنيِّ، ومعجمه اللفظيّ متماثل بنسبة كبيرة جدًّا مع معجم الألفاظ القرآنيَّة.

ثالثًا: عند موازنة نسبة استعمال الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في القرآن الكريم ونسبتها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نجد نسبة استعمال الأفعال المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في القرآن الكريم قد بلغت (٨٪) من أصل ألفاظ (الرحمة) على حين ارتفعت نسبة استعمال الأفعال في كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتصل إلى (٢٣٪)، وإذا نظرنا إلى الاستعمال القرآنيِّ نجد تكرار الفعل المضارع كان هو الأكثر؛ إذ تكرَّر الفعل المضارع من ألفاظ (الرحمة) في القرآن الكريم (١٥)

خمس عشرة مرَّة، على حين تكرَّر (٧) سبع مرَّات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ولكنَّنا نجد الفعل الماضي هو الأكثر تكرارًا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فقد تكرَّر الفعل الماضي من ألفاظ (الرحمة) (١٥) خمس عشرة مرَّة، على حين ورد في القرآن الكريم (٨) ثمان مرَّات، ويأتي ارتفاع نسبة الفعل المضارع في القرآن الكريم نتيجة استعمال صيغة (ترحمون) ثمان مرَّات، على حين كان سبب ارتفاع استعمال الفعل الماضي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتكرار صيغة (رحم اللَّه امرءًا) التي وردت خمس مرَّات، وصيغة (رحمكم اللَّه) التي تكرَّرت خمس مرَّات، وسنبيِّن دلالة ذلك في المبحث القادم، وهنا يتَّضح لنا دليلٌ آخر على فرضيَّة البحث في أنَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام من سنخ كلام اللَّه تعالى، وهو مشتقٌّ من القرآن الكريم؛ إذ نلاحظ أنَّ نسبة استعمال الأفعال المشتقَّة من (ر ح م) متناسقة مع نسب الاستعمال القرآنيِّ.

رابعًا: تبقى الأسماء الدالَّة على معنى (الرحمة) هي الأكثر تكرارًا في النصِّ القرآنيِّ وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ إذ بلغت نسبة الأسماء المشتقَّة من (ر ح م) في الاستعمال القرآنيِّ (٩٢٪) من أصل ألفاظ (الرحمة) الواردة في القرآن، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام بلغت نسبة الأسماء (٧٧٪)، وهذا التقارب في النِّسَب يؤكِّد فرضيَّة البحث ويدعمها.

خامسًا: توسَّع أمير المؤمنين عليه السلام في اشتقاقه للألفاظ من الجذر اللغويِّ (ر ح م)، إذ نجده استعمل صيغة (تسترحمه) في الفعل المضارع، وفي الأسماء استعمل صيغة المصدر (الاسترحام) وهذه الصِّيَغ لم ترد في الاستعمال القرآنيِّ، وكذلك استعمل في الأسماء صيغة (المرحوم) ولم ترد مثلها في الاستعمال القرآنيِّ، وسنعلِّل هذا في المبحث القادم.

سادسًا: في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان هناك تركيز على مفهوم (الأرحام)، فقد استُعمِل هذا الاسم (١٢) مرَّة في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام بنسبة مئويَّة بلغت (١١٪)، على حين كانت نسبة استعمال هذا الاسم في القرآن الكريم (٦ , ٢٪) فقد تكرَّر في القرآن الكريم (٩) تسع مرَّات، واختلاف نسبة الاستعمال في النصَّيْن يكشف عن تركيز كبير لمعنى هذا الاسم في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

هذه أهمُّ النتائج التي يمكن رصدها من طريق الموازنة بين النتائج المتحصَّلة من الدراسة الإحصائيَّة للألفاظ المشتقَّة من الجذر (ر ح م) في القرآن الكريم وكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

المبحث الثاني: الدراسة الدلاليَّة لألفاظ الرحمة بين القرآن الكريم وكلام أمير المؤمنين عليه السلام

أوَّلًا: دلالة كلمة (الرحمة) في القرآن الكريم وكلام الإمام عليٍّ عليه السلام.

لمَّا كانت كلمة (الرحمة) أو (رحمة) من أكثر الأسماء تكرارًا وتطابقًا في النصَّيْن من بين كلِّ الكلمات المشتقَّة من الجذر اللغويِّ (ر ح م)؛ إذ بلغت نسبة استعمالها في القرآن الكريم (٢٣٪)، ونسبة استعمالها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام (٢٠٪)، سندرس دلالة هذه المفردة في سياقاتها المتعدِّدة في النصَّيْن.

ذكرنا آنفًا أنَّ المعنى المعجميَّ للرحمة هي: (لطفٌ، وعطفٌ، وتلطُّفٌ، متأتٍّ عن ضعفٍ، أو رقَّة، أو لين مراعاةً لحال شيء ما أو فرد ما) وقلنا أيضًا: إنَّ هذا المعنى هو المعنى المركزيُّ لكلمة (الرحمة)، ويبقى مصاحبًا لها في السياقات اللغويَّة التي ترد بها.

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أثر السياق في دلالة الكلمة؛ إذ إنَّ تجاور الوحدات الدلاليَّة وارتباطها فيما بينها يجعل معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفه أو تحديده إلَّا بملاحظة الوحدات الأُخر التي تقع مجاورة لها، وقد أشار إلى هذا المعنى بوضوح عبد القاهر الجرجانيُّ (ت: ٤٧١ هـ) عندما أرجع سبب حسن المعنى إلى ائتلاف الكلمات فيما بينها في التأليف والترتيب[١]؛ إذ إنَّ معظم الوحدات الكلاميَّة اللغويَّة تعتمد في تفسيراتها السياق الذي تُستعمَل فيه، وأغلبها له مدًى أوسع من مدى المعنى الذي يخطر ببال المتلقِّي أوَّل وهلة[٢]، من هنا أصبحت دراسة معاني الكلمات تستدعي تحليلًا للسياقات والمواقف التي ترد فيها تلك الكلمات، ويمكن أن ينزاح معنى الكلمة تبعًا للسياقات التي ترد فيها.

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤١٥، وينظر معه: من أسرار اللغة: ٣- ٤، تطور البحث الدلالي: ٤٤-٤٦.
(٢) ينظر: اللغة والمعنى والسياق: ١٤.

وإذا أردنا أن ننظر إلى دلالة كلمة (الرحمة) في النصوص محلّ البحث سنجدها تتطابق مع هذه الفهم كثيرًا، ومثال ذلك: قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:١٢)، أمر اللَّه تعالى نبيَّه الكريمﷺ أن يسأل الكفَّار والمعاندين كلَّهم سؤال تقرير وإثبات ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثمَّ أمره أن يجيب ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾، وهذا الجواب إنَّما يحسن في المواضع التي يكون فيها الجواب غاية في الوضوح والثبات، فلا يمكن لمنكر نكرانه، ولا يقدر على دفعه دافع، وهنا إثبات للإلوهيَّة، وأعقب اللَّه تعالى هذا الإقرار بأنَّه كتب على نفسه الرحمة، ويدلُّ على تحديد معنى الرحمة في هذه الآية الرواية التي تناقلها أكثر المفسِّرين ((عن سلمان قال: إنّ اللَّه تعالى ذكره لما خلق السماء والأرض، خلق مئة رحمةٍ، كلّ رحمةٍ ملء ما بين السماء إلى الأرض، فعنده تسع وتسعون رحمةً، وقسَّم رحمة بين الخلائق؛ فبها يتعاطفون...))[1]، وقال أبو حيَّان الأندلسيُّ (ت: ٧٤٥هـ): ((قِيلَ: الْأَلِفُ وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ، فَيُرَادُ بِهَا الرَّحْمَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمِئَةِ الرَّحْمَةِ الَّتِي خَلَقَهَا، وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ فِي الْآخِرَةِ))[2] الذي يُفهم من كلام المفسِّرين أنَّهم فهموا معنى الرحمة بمعناها اللغويِّ (العطف نتيجة الرقَّة) والدليل على هذا ما أورده المفسِّرون من حديث (سلمان)، فالرحمة التي أنزلها اللَّه بين مخلوقاته بها يتعاطفون؛ أي يعطف بعضهم على بعضٍ ويرقُّ بعضهم لبعض، وبذلك يمكن أن يُقال: إنَّ معنى الكلمة هنا هو ما كان يسمِّيه (أولمان) المعنى التقليديّ؛ إذ يرى أنَّه على الرغم من استعمال الكلمة في عددٍ من المعاني المختلفة أنَّ لها معنى يبدو تقليديًّا هو الذي يعنينا هنا، وهو ((النظم اللفظيُّ للكلمة، وموقعها من ذلك النظم))[3] فوجود كلمة (الرحمة) في مثل هذا السياق حافظ على دلالتها

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٧٤/١١، ومفاتيح الغيب: ٤٨٩/١٢.
(٢) البحر المحيط: ٤٤٧/٤.
(٣) دور الكلمة في اللغة: ٦١ -٦٢.

المعجميَّة المركزيَّة، ولم يمنع هذا المعنى المعجميُّ للكلمة من أن يشحن سياق كلمة (الرحمة) بدلالاتٍ أخر، وهي فهم المخاطبين من طريق إقرار العباد بعد سؤال النبيِّ صلى الله عليه وآله لهم ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واعترافهم بأنَّه (للَّه)، فهذا يستوجب من اللَّه تعالى أن يوقع بهم العذاب لجحودهم ربوبيَّته وإشراكهم بإلوهيَّته، وهذا حال من يعترف بشيءٍ عليه أن يؤدِّيه بتمامه، فإذا خالف اعترافه فقد استوجب العقاب؛ ولكنَّ اللَّه تعالى (كتب على نفسه الرحمة) فسَّرها المفسِّرون بأنَّه لا يعاجلهم بالعذاب، قال الطبريُّ (ت: ٣١٠هـ): ((وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢)، يقول: قضى أنَّه بعباده رحيم، لا يعجِّل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة))[١] قال البغويُّ (ت: ٥١٠هـ) في تفسيرها: ((كَتَبَ؛ أي: قضى، عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، هَذَا اسْتِعْطَافٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُتَوَلِّينَ عَنْهُ إِلَى الإقبال عليه، وإخبار بِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالْعِبَادِ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ، وَيَقْبَلُ الْإِنَابَةَ وَالتَّوْبَةَ))[٢]، وقال الرازيُّ (ت: ٦٠٦هـ): ((كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَرْضَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنْ لَا يُنْعِم، ولا بأن يَعِدَّ بِالْإِنْعَامِ؛ بَلْ أَبَدًا يُنْعِمُ وَأَبَدًا يَعِدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ ذَلِكَ وَأَوْجَبَهُ إِيجَابَ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تِلْكَ الرَّحْمَةُ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَى يُمْهِلُهُمْ مُدَّةَ عُمُرِهِمْ، وَيَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ، وَلَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا))[٣]، وقال القرطبيُّ (ت: ٦٧١هـ): ((فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَاجِلَهُمْ بِالْعِقَابِ وَيَبْعَثَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّهُ ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ أَيْ وَعَدَ بِهَا فَضْلًا مِنْهُ وَكَرَمًا فَلِذَلِكَ أُمْهِلَ))[٤]، وقال أبو حيَّان الأندلسيُّ: ((وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّحْمَةُ إِمْهَالُ الْكُفَّارِ وَتَعْمِيرُهُمْ لِيَتُوبُوا، فَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ))[٥]، وهكذا نرى

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٧٣/١١.
(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ١١١/٢-١١٢.
(٣) مفاتيح الغيب: ٤٨٩/١٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٥/٦.
(٥) البحر المحيط: ٤٤٧/٤.

المفسِّرين قد اتَّفقوا على فهم معنًى مضافٍ للمعنى المعجميِّ لكلمة (الرحمة)، وهو (إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالعقوبة).

وإذا نظرنا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فنجد أنَّ كلمة (الرحمة) التي تكرَّرت كثيرًا في كلامه يُفهم منها معناها المعجميُّ، ومثال ذلك قوله عليه السلام في كتابه لمالك الأشتر حينما ولَّاه على مصر: ((وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ))[1] طلب الإمام عليٌّ عليه السلام من مالك أن يكون قلبه رحيمًا برعيَّتهم، ومعنى الرحمة هنا أن يعطف عليهم، ويلين لهم، ويكون قلبه رقيقًا اتِّجاههم، لا غليظًا ولا حقودًا، وهذه الصِّفات من فضائل الكرام، ومَلَكَة يتحلَّى بها عفيف النفس، وهي سمات من يتولَّى القيادة، تجسَّد المعنى المعجمي لكلمة (الرحمة) هنا بوضوح فهي (لطف وعطف مصدره رقَّة القلب، ونتيجته العفو عن الآخرين، والرفق بهم، وعدم المؤاخذة العاجلة) لما يبدر منهم، وقد بيَّن الإمام عليٌّ عليه السلام سبب وصيَّته لمالك بالرحمة بالرعيَّة بسببَيْن؛ الأوَّل: أنَّه من المعتاد أن يصدر من الرعيَّة الخطأ والزلل تعمُّدًا أو غفلة، والسبب الثاني: أنَّهم (مساوون له في الخلقة) فهم أخوة في الدِّين أو في الخلق[2].

ومن أقوال الإمام عليٍّ عليه السلام التي تتجسَّد فيها الدَّلالة المعجميَّة لكلمة (الرحمة) قوله عليه السلام في وصف المتَّقين: ((أَتْعَبَ نَفْسَه لآخِرَتِه، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه – بُعْدُه عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْه زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ – ودُنُوُّه مِمَّنْ دَنَا مِنْه لِينٌ ورَحْمَةٌ))[3] يُلاحظ من السياق أنَّ الإمام عليًّا عليه السلام كان يعدِّد صفات المتَّقين ويذكر سماتهم، ومنها أنَّه يكون قريبًا من الآخرين، وقربهم منهم قرب لين وعطف؛ فهو مصدر للرحمة بين أفراد المجتمع، والرحمة هنا معناها أن يحنو على من يقترب منه، ويرقَّ لهم

(١) نهج البلاغة: ٤٢٧.
(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة: البحراني : ١٤٢/٥، ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: الخوئي: ١٧٩/٢٠.
(٣) نهج البلاغة: ٣٠٦.

رقَّة ينال بها القريب عطفه ولطفه وخيره، فالمتَّقي قريب من المؤمنين من باب التعاطف والتواصل كما قال اللَّه تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه والَّذِينَ مَعَه أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)[١]، فمعنى الرحمة في سياق الآية الكريم يوحي بدلالتها، وهي أنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله شديد قويٌّ في وطأته على الكافرين؛ لكنَّه عطوف ليِّن رقيق القلب بالمؤمنين، والمؤمنون اكتسبوا منه هذه الصفة الكريمة، ومن هنا نرى أنَّ دلالة كلمة (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام مماثل لدلالتها في سياق هذه الآيات القرآنيَّة الكريمة.

ومثلما توشَّحت كلمة (الرحمة) بمعنى سياقيٍّ في الآية القرآنيَّة ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:١٢)، ففُهِم من كلمة (الرحمة) (عدم المعاجلة بالعقاب).

ونجد مثل هذه الدَّلالة للكلمة في قول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف (اللَّه) عز وجل: ((يَشْغَلُه غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، ولَا تُولِهُه رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ))[٢] فقد حمد الإمام عليٌّ عليه السلام اللَّهَ تعالى باعتبار إظهاره من آثار ملكه وسلطانه ما أظهره من ملكوت السماوات والأرض، وترتيب العالمين على وجه النظام الأتمِّ ممَّا هو محلُّ العجب العجيب الَّذي تحار أبصار البصائر في كيفيَّة وقوعه من القدرة الإلهيَّة، وفي ترتيبه على النظام الأكمل، فذكر الإمام عليه السلام من صفات الخالق ما لا يمكن لمخلوق أن يتحلَّى بمثلها؛ بل يقرُّ العباد كلُّهم بهذه الصفات التي ظهرت من تناسق خلق اللَّه وقيموميَّته على خلقه، فذكر ممَّا ذكر أنَّ اللَّه تعالى مع قدرته المطلقة على خلقه فإنَّه ((لا يشغله غضبٌ عن رحمةٍ))[٣]، وهذا المعنى متَّسق تمامًا مع سياق الآية الكريم، فمع أنَّ قدرته وسطوته على الخلق كلِّهم إلَّا أنَّ هذه القدرة العظمى لم

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة: البحراني: ٣/ ٤١٠-٤١٣، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: الخوئي: ١٢/ ١٥٨.
(٢) نهج البلاغة: ٣٠٩.
(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة: البحراني: ٣/ ٤٣٣.

تكن سببًا للتعجيل بالعقوبة للكافرين والمعاندين فضلًا عن المؤمنين العاصين، فكلُّ هؤلاء شملتهم (رحمته) فلم يعجل عليهم بالعقوبة، ولم ينزل بهم العقاب عاجلًا؛ بل أمهلهم وأنظرهم رفقًا بهم وتحنُّنًا منه عليهم. وقد يضفي السياق على كلمة (الرحمة) دلالة أخرى، ففي قوله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٤٩)، يقول الجوزيُّ (ت: ٥٩٧هـ) في تفسيرها: ((قال حذيفة: بينا أصحاب الأعراف هنالك، اطَّلع عليهم ربُّهم فقال لهم: ادخلوا الجنَّة فإنِّي قد غفرت لكم))[١]؛ فالرحمة التي نالتهم من اللَّه تعالى هي غفرانه عليه السلام لهم ما بدر منهم في الدُّنيا، إنَّ السياق هو السبيل الأمثل الذي يمكِّننا من توجيه المعنى الوجهة التي نضيء بها مكانًا ما في منطقة المعنى للكلمة المستعملة.

وإذا أردنا أن نتفحَّص دلالة كلمة (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وما يضيفه لها السياق من معانٍ إضافيَّة ويشحنها بطاقات دلاليَّة فيمكن أن ننعم النظر في وصيَّته لابنه الحسن عليهما السلام؛ إذ يقول: ((واعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِه خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ - وتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ... ولَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، ولَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ))[٢] من طريق السياق الذي وردت فيه كلمة (الرحمة) فإنَّ دلالتها هنا هي (المغفرة)، فاللَّه تعالى مع كونه خالق الخلق وبيده مقاليد السموات والأرض إلَّا أنَّه قد أذن لعباده بدعائه ووعدهم الإجابة، ومع أنَّ الفرد قد يكون من العاصين أو المعاندين أو الكافرين، إلَّا أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى فسح له في طول المدَّة ورغَّبه بالإنابة والعودة لحضيرة العبوديَّة الحقَّة، وعندها فإنَّ اللَّه تعالى شأنه سيغفر للعاصين بلطفه وعطفه عليهم، وبهذا يلاحظ أنَّ السياق قد أضفى على كلمة (الرحمة) دلالة خاصَّة، وجعلها مساوية لكلمة (المغفرة) في هذا النصِّ.

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/١٢٥.
(٢) نهج البلاغة: ٣٩٩.

هذه بعض الأمثلة على دلالة كلمة (الرحمة) المعجميَّة وما يؤثِّره السياق فيها من دلالاتٍ مضافة، أمَّا استقصاء المعاني التي وردت بها هذه الكلمة فيحتاج منَّا وقفة طويلة لتفحُّص معاني الكلمة في السياقات التي وردت فيها كلِّها، فكلُّ سياق قد يضفي عليها معنى مضافًا، وهذا البحث لا يتناسب مع هذا المطلب؛ ولذا نكتفي بذكر هذه الأمثلة، والبحث يستحقُّ أن يفرد له وقت وأرواق كثيرة ليستوفي حقَّه.

ممَّا قد يتبيَّن لنا أنَّ السياقات التي كانت ترد فيها كلمة (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كانت متناسقة تمامًا مع السياقات القرآنيَّة، ولا أجانب الحقَّ إن قلت إنَّ كلَّ السياقات التي وردت فيها كلمة (الرحمة) في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نجد لها مثيلًا في القرآن الكريم، وهذا تصديق فرضيَّة البحث التي انطلق منها.

ثانيا: دلالة ألفاظ (الرحمة) بين الاسميَّة والفعليَّة في القرآن الكريم وكلام أمير المؤمنين عليه السلام:

شخَّصنا من طريق المبحث الأوَّل أنَّ نسبة الأفعال المشتقَّة من الجذر(ر ح م) في القرآن الكريم قد بلغت (٨٪)، على حين كانت نسبة الأسماء المشتقَّة من هذا الجذر قد بلغت (٩٢٪) من ألفاظ الرحمة المستعملة في القرآن الكريم.

وكذلك تتناسق هذه النسبة مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام فقد بلغت نسبة الأفعال عنده (٢٣٪)، وكانت نسبة الأسماء (٧٣٪) تقريبًا، وبهذا يمكن القول: إنَّ ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد وردت في الأعمِّ الأغلب من الاستعمالات في سياق الجملة الاسميَّة، أمَّا الجملة الفعليَّة فكانت قليلة.

وإذا أردنا أن نفصِّل القول في ذلك فإنَّنا نجد الجملة الفعليَّة ذات الفعل الماضي وردت في القرآن الكريم ثماني مرَّات فحسب وعلى النحو الآتي: صيغة

الفعل الماضي (رَحِمَ) أربع مرَّات هي: قال تعالى ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (هود: ٤٣)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٩)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣)، وقوله تبارك اسمه: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الدخان: ٤٢)، ثمَّ صيغة (رحمنا) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الملك: ٢٨)، وصيغة (رحمناهم) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٥)، وصيغة (رَحِمَهُ) في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (الأنعام: ١٦) وصيغة (رحمتَهُ) في قوله ﷻ: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر: ٩).

يُلاحظ أنَّ السياق القرآنيَّ في استعمال الفعل (رحم) قد تكرَّر بصيغة معيَّنة هي (إلَّا من رحم)، وفي الآيات الأُخر كان المعنى قريبًا من هذه السياق تمامًا، والسياق القرآنيُّ بهذه الجملة الفعليَّة يقرِّر حقيقة منجزة أخبر بها القرآن الكريم على لسان الأنبياء والمرسلين بأنَّ اللَّه تعالى قد سبقت منه رحمته لعباده، فمن رحمه اللَّه تعالى منهم فقد حظي باللطف والعناية والرعاية والمغفرة الإلهيَّة.

أما في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فقد تكرَّر الفعل الماضي بصيغه المختلفة (١٥) خمس عشرة مرَّة[1]، وإذا نظرنا إلى سياق استعمال الفعل الماضي من ألفاظ الرحمة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام نجده ورد على النحو الآتي: خمس مرَّات بصيغة (رَحِمَ اللَّهُ امرءًا)، وخمس مرَّات بصيغة (رَحِمَكُم اللَّهُ)، ومرَّة واحدة بصيغة (رَحِمَكَ اللَّهُ)، ومرَّتين بصيغة (رَحِمَهُ اللَّهُ) فهذه (١٣) ثلاث عشرة مرَّة من أصل (١٥)

(١) ينظر: الجدول رقم (٢) المذكور آنفا.

خمس عشرة مرَّة ورد فيها الفعل الماضي (رحم) بسياق الدعاء؛ إمَّا الدعاء العام لكلِّ من تنطبق عليه المواصفات التي يذكرها في قوله: (رحم اللَّه امرءًا) أو الدعاء المباشر للمخاطبين بالرحمة في قوله رحمكم اللَّه، أو الدعاء للمخاطب أو الدعاء للغائب، وفي الأحوال كلِّها فإنَّ الدعاء بصيغة الفعل الماضي فيها أمارة على (الإنجاز)، وكأنَّ الإمام عليه السلام يخبر المخاطبين من طريق الدعاء بأنَّ اللَّه تعالى قد رحمهم، وذلك إيمانًا منه بتحقُّق الوعد الإلهيِّ بالرحمة للعباد فقد وعد اللَّه عباده بالرحمة في القرآن الكريم، وهذا السياق في استعمال هذا الفعل (رحم) متَّفق مع السياق القرآنيِّ.

أمَّا الفعل المضارع (يرحم) فقد تكرَّر في القرآن الكريم (١٥) خمس عشرة مرَّة، وبلغت نسبة استعمال الفعل المضارع (٤٪) من مجمل الاستعمال القرآنيِّ لألفاظ الرحمة، وكان أكثرها ورودًا صيغة (ترحمون) التي تكرَّرت (٨) ثماني مرَّات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٥)، وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦٣)، ويلاحظ أنَّ صياغة الفعل هنا لجميع المخاطبين، فاللَّه تعالى يوجِّه خطابه لهم بصيغة الحضور فهم محلُّ رحمته؛ إذ هم في ساحة الحضور في الخطاب وفي هذا استعطاف للمخاطبين وتودُّد لهم ورعاية، واستعمال الفعل (ترحمون) في هذه المواضع الثمانية جاء مسبوقًا بـ(لعلَّ) فكانت الصيغة (لعلَّكم ترحمون) فيكون معناها (لترحموا)[1]، تفيد (لعلَّ) التوقُّع لشيء محبوب أو مكروه ((فتوقُّع المحبوب يُسمَّى ترحيبًا وإطماعًا، وتوقُّع المكروه يُسمَّى إشفاقا، فالترجِّي نحو قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩)، والإشفاق نحو "لعلَّه يهينك"))[2]، والترجِّي لا يكون إلَّا في الممكن فهو متوقَّع الحصول،

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢/٢٠٧.
(٢) معاني النحو: ١/٣٢٩.

أمَّا التمنِّي فإنَّه غير متوقَّع الحصول[١]، ومن هنا يتبيَّن أنَّ (الرحمة) في هذه الآيات الكريمة متوقَّعة الحصول؛ لأنَّها جاءت على سبيل الإطماع، والإطماع من الكريم منجز لا محالة، وهو يجري مجرى الوعد منه فيكون محتوم الوفاء[٢].

وبهذا تكون هذه الآيات الكريمة قد حثَّت المؤمن على التقوى، وأن يبقى يرجو عطف ربِّه إطماعًا له بالمغفرة، وأن لا يقنع بما يصدر منه من أفعال البرِّ، فإنَّ قبولها موقوف على رضا اللَّه تعالى عنها، يقول الزمخشريُّ (ت: ٥٣٨هـ) في تفسير آية (آل عمران: ١٣٢): ((هي أخوف آية في القرآن؛ حيث أوعد اللَّه المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين إن لم يتَّقوه في اجتناب محارمه، وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفُّرهم على طاعته وطاعة رسوله، ومن تأمّل هذه الآية وأمثالها لم يحدِّث نفسه بالأطماع الفارغة والتمنِّي على اللَّه تعالى، وفي ذكره تعالى «لعلّ» و«عسى» في نحو هذه المواضع- وإن قال الناس ما قالوا- ما لا يخفى على العارف الفَطِن من دقَّة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا اللَّه، وعزَّة التوصُّل إلى رحمته وثوابه))[٣]، فكانت الرحمة موقوفة على طاعة اللَّه تعالى وطاعة رسولهﷺ من هنا تكون هذه الآيات فيها ترجٍ لأمر أطمعنا فيه اللَّه تعالى، وهذا الإطماع منه بنيل الرحمة موقوف على شرط أنْ يطيعوا اللَّه تعالى ورسوله الكريمﷺ، ويكونوا على حذر من أنفسهم وأعمالهم، وهذه المراقبة تقودهم إلى التقوى. إنَّ الجملة الفعليَّة ذات الفعل المضارع تدلُّ على التجدُّد والحدوث[٤]، وهذا يزيد من شحن صيغة (تفلحون) بدلالة مضافة، وهي أنَّ هذا العطف واللطف والمغفرة متجدِّدة، وهي واقعة كلَّما تكرَّر الفعل من العبد تكرَّر معه العفو والصفح من اللَّه تعالى.

---

(١) ينظر: معاني النحو: ٣٣٠/١.
(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٩١/١-٩٢.
(٣) المصدر نفسه: ٤١٤/١، وينظر معه مفاتيح الغيب: ٣٦٤/٩.
(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ١٣٣، وينظر: معاني الأبنية في العربية: ١٠.

في كلام أمير المؤمنين عليه السلام استُعمِل الفعل المضارع (يرحم، ترحم) بنسبة أعلى قليلًا من الاستعمال القرآنيِّ؛ فقد بلغت نسبته في كلام أمير المؤمنين (٥, ٦٪)، ومن ذلك قوله في وصيَّته لابنه الحسن عليه السلام: ((اعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِه خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ - قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ - وتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ وأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَه لِيُعْطِيَكَ - وتَسْتَرْحِمَه لِيَرْحَمَكَ))[1]، يُلاحظ في هذا السياق ورود الفعل المضارع (تسترحمه) والفعل المضارع (يرحمك)، ففي الصيغة الأولى جاءت الصيغة على وزن (استفعل) وهي تدلُّ على طلب إيقاع الفعل من المقابل، فالإمام عليه السلام يحضُّ ابنه على أن يطلب الرحمة من اللَّه تعالى فقد أذن له اللَّه تعالى بالدعاء فأولى بالعبد أن يطلب من ربِّه العطف والحنان والتلطُّف به، ولمَّا كان اللَّه تعالى قد وعد بالإجابة فسيكون جواب الطلب (ليرحمك)، فينال العبد العطف واللطف والمغفرة من اللَّه تعالى.

إنَّ السياقات التي وردت فيها أفعال الرحمة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام قريبة جدًّا من السياقات القرآنيَّة؛ بل مشتقَّة منها ومماثلة لها، وهذا ما ثبت لنا في هذا البحث من خلال الدراسة الإحصائيَّة ومن خلال الدراسة التحليليَّة، وفي البحث حاجة للتفصيل والتتبُّع أكثر ممَّا عرضنا في هذه الدراسة؛ ولكن ما عرضناه هنا كان مقدارًا مختصَرًا مناسبًا للغرض الذي أُعِدَّ من أجله البحث، وأدعو الباحثين لدراسة معجم ألفاظ أمير المؤمنين بصورة أوسع وأكثر تفصيلًا، وسنجد أدلَّة أُخر تُضاف على ما أثبتناه في هذه الصحائف من أنَّ معجم الإمام عليٍّ عليه السلام اللفظيِّ مشتقٌّ من المعجم القرآنيِّ على مستوى الألفاظ والدلالات؛ بل قد نجد معجم الإمام يتوسَّع في الاشتقاقات والصيغ الصرفيَّة للكلمات؛ ليضيف لنا معانٍ جديدة يتطلَّبها المقام، فتُغنى بذلك لغتنا العربيَّة بما جادت به قريحته من طيِّب القول وجميل الكلام.

(١) نهج البلاغة: ٣٩٨.

النتائج والتوصيات:

١. تبيَّن لنا من خلال الدراسة الإحصائيَّة أنَّ معجم ألفاظ الرحمة القرآنيِّ المشتقَّة من الجذر (ر ح م) قد احتوى على (٣١) إحدى وثلاثين صيغة، ومجموع ألفاظ الرحمة في هذه الصيغ كلِّها قد بلغ (٣٣٩) ثلاث مئة وتسعًا وثلاثين لفظة، وتوزَّعت بين أسماء وأفعال.

٢. كانت صيغ ألفاظ الرحمة المشتقَّة من الجذر (ر ح م) الوارد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في كتاب نهج البلاغة قد بلغت (٣٠) ثلاثين صيغة، ومجموع ألفاظها قد بلغ (١٠٧) لفظة.

٣. كانت النسبة الأكبر من ألفاظ الرحمة في القرآن الكريم على صيغة أسماء، فقد بلغت النسبة المئويَّة للأسماء في القرآن الكريم (٩٢٪)، ونسبة الأفعال (٨٪)، وكانت هذه النِّسَب في كلام الإمام عليٍّ عليه السلام مماثلة للاستعمال القرآنيِّ فقد بلغت نسبة أسماء الرحمة في كلامه عليه السلام (٧٣٪) في حين بلغت نسبة الأفعال (٢٣٪).

٤. كانت الألفاظ ذات الصيغ المشتركة بين التعبير القرآنيِّ وكلام الإمام عليٍّ عليه السلام هي الأكثر، فقد بلغت الصِّيَغ المتكرِّرة والمشتركة بينهما (١٤) صيغة، وبلغت النسبة المئويَّة لهذه الألفاظ المشتركة ما مقداره (٩٠٪) من الألفاظ القرآنيَّة، و(٧٦٪) من ألفاظ الرحمة في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٥. كانت المعاني الدلاليَّة لألفاظ الرحمة متماثلة بين التعبير القرآنيِّ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أثبت البحث ذلك في أكثر من موضع.

٦. إنَّ المعجم اللفظيَّ للإمام عليٍّ عليه السلام معجم مماثل للمعجم اللفظيِّ القرآنيِّ؛ بل هو مشتقٌّ منه، فالسياقات اللغويَّة لألفاظ (الرحمة) فيهما متَّحدة ومتماثلة، وهذه هي فرضيَّة البحث الرئيسة قد أثبتناها فيما تقدَّم.

٧. هناك نتائج إحصائيَّة لكلِّ لفظة من ألفاظ الرحمة المستعملة في القرآن الكريم وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام أثبتناها في الدراسة الإحصائيَّة، وكلُّها تفيد في تحقيق فرضيَّة البحث وتثبتها، وهي أنَّ المعجم اللفظيَّ لأمير المؤمنين عليه السلام متماثل مع المعجم اللفظيِّ القرآنيِّ؛ بل مشتقٌّ منه.

٨. إنَّ موضوع دراسة معجم ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام يستحقُّ دراسة مفصَّلة للنظر في مدى تطابق هذا المعجم مع المعجم اللفظي القرآنيِّ عبر بحث مفردات أُخر وسياقات لغويَّة أُخر؛ لذا أدعو الباحثين لهذا النوع من البحث اللغويِّ بين النصَّيَن الشريفَيْن.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢- تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

٣- تطور البحث الدلالي، دراسة في النقد البلاغي واللغوي، الدكتور محمد حسين الصغير، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م

٥- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.

٦- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٧- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٨- دلائل الإعجاز، تأليف عبد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد عبده، محمد محمود التركزي، مراجعة، محمد رشيد رضا، دار المنار، مصر، ط٤، ١٣٦٧هـ.

٩- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة: دكتور كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ط١٠، ١٩٨٦م.

١٠- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١- الزاهر في معاني كلمات الناس، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢.

١٢-شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي، الحوزة العلمية، قم - إيران، ط١، ١٣٦٢.

١٣- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ): تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار اللَّه (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.

١٥- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٦- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٧م.

١٧- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

١٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ.

١٩- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط١، جامعة الكويت - كلية الآداب، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٠- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر - بغداد، ١٩٩١م.

٢١- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢٢- مفاتيح الغيب، أبو عبد اللَّه محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٣- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.

٢٤- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب اللّه الهاشمي الخوئي (ت: ١٣٢٤هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، مطبعة الإسلاميَّة بطهران، ط٤.

٢٥- نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، جمعه الشريف الرضي، تحقيق: الدكتور: صبحي صالح (١٣٨٧، ١٩٦٧ م) بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

مَنزِلَةُ أَهلِ البيتِ عليهم السلام في القُرآنِ الكَرِيم

دِراسةٌ في مَضمُونِ الآياتِ التي أشَارَت إليهِم وَتحَلِيلها

أ. د عبد الكريم جديّع نعمه النّفّاخ

جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية

Prof. Dr. Abdul Karim Jadia Nima Al-Nafakh

(University of Kufa/College of Basic Education)

م. م زهراء أكبر كريمي

جامعة زينب الكبرى

الجمهوريَّة الإيرانيَّة الإسلاميَّة

Zahra Akbar Karimi

(University of Zainab Al-Kubra,

Islamic Republic of Iran)

الملخَّص:

القرآن الكريم كتاب سماويّ جُمعت فيه سنن اللَّه سبحانه وتعالى من خلق آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، فهو منهج حياة لمن أراد التدبّر فيه أو أنْ ينهل من علومه المختلفة، يقول جلَّ في علاه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨) فهو كتاب تشريع وقيم وعلم تفوق قدرته قدرة البشر، بوصفه كتابًا إلهيًّا مقدّسًا أنزله الوحي على صدر النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وكلّ من آمن به لا بدَّ أنْ يسير بهديه ويلتزم بتشريعه وما ورد فيه، ولذا حظي بمكانةٍ كبرى في نفوس المسلمين من جهة، وفي نفوس غير المسلمين الذين يبحثون عن كلِّ ما هو جديد في الحياة لأخذ الإفادة منه في طوير تفكيرهم وتغيير سلوكهم من جهةٍ ثانية، فمنهم من تأثّر به ومنهم من عرض لأهمِّ العلوم التي وردت فيه، فضلًا عن القيم الخلقيَّة والتشريعيَّة التي تتناسب مع الإنسان عبر الحقب الزمنية، والتطور العقلي له مهما اختلفت الحياة المدنيَّة أو تعدَّدت الحضارات .

ومن هنا سوف يلتزم الباحثان المنهج المحايد المجرَّد من الذاتيَّة والميل والهوى، ويبتعدان عن العصبيَّة أو المعتقد أو القوميَّة، ويغلِّبان الموضوعيَّة التي تعتمد على الدليل والبرهان والحجّة في بيان منزلة أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم، ونعزِّزها بالدليل العقليّ والنقليّ، وذلك بتسليط الضوء على منزلتهم في بعض الآيات التي أشارت إليهم مع بيان الأدلَّة التي تؤكِّد ذلك، بوصفهم من أجلى مصاديق التفسير القرآنيّ لكثيرٍ من الآيات الكريمة.

الكلمات المفتاحيَّة: تفسير القرآن الكريم، أهل البيت عليهم السلام، الفضائل القرآنيَّة.

Abstract:

The Holy Quran is a divine scripture that encompasses the laws of God Almighty from the creation of Adam (peace be upon him) to the present day. It serves as a way of life for those who reflect on it or seek to benefit from its diverse knowledge. Allah the Exalted says, “We have not neglected in the Register a thing. Then unto their Lord they will be gathered” [Al-An'am: 38]. The Quran is a book of legislation, values, and knowledge beyond human capability, as it is a sacred divine text revealed by inspiration to the Prophet Muhammad (peace and blessings be upon him and his family). Everyone who believes in it must follow its guidance and adhere to its teachings. Thus, it holds a significant place in the hearts of Muslims, as well as in the hearts of non-Muslims seeking new perspectives for enhancing their thinking and transforming their behavior. Some have been influenced by it, while others have highlighted its important sciences, as well as moral and legislative values that align with human nature across different eras and intellectual developments, regardless of societal or cultural diversity.

In this context, the researchers adopt an impartial methodology, free from bias, inclination, or personal belief, and avoid partisanship, nationalism, or sectarianism. The focus is on objectivity based on evidence, proof, and argumentation to demonstrate the status of Ahl al-Bayt (peace be upon them) in the Holy Quran, supported by rational and textual evidence. The study sheds light on their status as highlighted in certain verses that refer to them, along with the proofs confirming this, considering them among the clearest examples of Quranic exegesis for many Quranic verses.

Keywords: Quranic exegesis, Ahl al-Bayt (peace be upon them), Quranic virtues.

المقدِّمة:

القرآن الكريم كتاب سماويٌّ، جُمِعت فيه سنن اللَّه سبحانه وتعالى من خلق آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، فهو منهج حياة لمن أراد التدبُّر فيه أو أنْ ينهل من علومه المختلفة، يقول جلَّ في علاه: ﴿ما فرَّطنا في الكتابِ مِنْ شيءٍ ثُمَّ إلى ربِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]، فهو كتابُ تشريعٍ وقيم وعلم تفوق قدرته قدرة البشر، بوصفه كتابًا إلهيًّا مقدَّسا أنزله الوحي على صدر النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله، وكلُّ من آمن به لا بدَّ أنْ يسير بهديه، ويلتزم بتشريعه وما ورد فيه، لذا حظي بقدسيَّة كبرى في نفوس المسلمين من جهة، وبأهميَّةٍ كبيرةٍ في نفوس غير المسلمين الذين يبحثون عن كلِّ ما هو جديد في الحياة لأخذ الإفادة منه في طوير تفكيرهم وتغيير سلوكهم من جهةٍ ثانية، فمنهم من تأثَّر به، ومنهم عرض لأهمِّ العلوم التي وردت فيه، فضلًا عن القيم الخلقيَّة والتشريعيَّة التي تتناسب مع الإنسان عبر الحِقب الزمنيَّة والتطور العقلي له مهما اختلفت الحياة المدنيَّة أو تعدَّدت الحضارات.

ومن هنا سوف يلتزم الباحثان المنهج المحايد المجرَّد من الذاتيَّة والميل والهوى، ويبتعدان عن العصبيَّة أو المعتقد أو القوميَّة، ويغلِّبان الموضوعيَّة التي تعتمد على الدليل والبرهان والحجَّة على منزلة أهل البيت في القرآن الكريم، ونعزِّزها بالدليل العقلي والنقلي، لذا نسلط الضوء على منزلتهم في بعض الآيات التي أشارت إليهم لكلِّ ذي لبٍّ واعٍ، وندعمها بأحاديث السُّنَّة النَّبويَّة الشريفة وأقوال أهل البيت عليهم السلام، فضلًا عن أقوال المفسِّرين والعلماء والفقهاء والمؤرِّخين؛ حتى يستوي البحث ويقف على عوده، ويقترب من درجة النضج العلميّ إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) الأنعام: ٣٨.

وقد بُني البحث على مجموعة مطالب، عرض المطلب الأوَّل منها: أهل البيت عليهم السلام بوصفهم الأسوة الحسنة، أمَّا المطلب الثاني فدرس: الإمام علي عليه السلام بوصفه أوَّل مؤمن يشري نفسه في الإسلام، وكشف المطلب الثالث عن: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية التطهير، بينما درس المطلب الرّابع: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية المباهلة، وبُحِث في المطلب الخامس: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية المودَّة، وناقش المطلب السادس: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية الولاية، وبيِّن المطلب السابع: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آيات الإيثار، وقدَّم المطلب الثامن: منزلة أهل البيت عليهم السلام بوصفهم الصراط المستقيم والسبيل في القرآن الكريم، وناقش المطلب التاسع: منزلة أهل البيت في آية التبليغ، وخُتِم البحث بأهمِّ النتائج التي توصَّل إليها، فضلًا عن المصادر والمراجع التي اعتمد عليها، ومن اللَّه التوفيق والسداد .

المطلب الأوَّل: أهل البيت عليهم السلام الأسوة الحسنة.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ لكلِّ أمَّة من الأمم أسوةً حسنةً يُهتدى بها وتكون المثال الذي يُقتدى به، وعلى رأس هؤلاء يأتي الأنبياء والرُّسل والأوصياء، فما من نبيٍّ ورسولٍ إلَّا وله وصيٌّ يسير بهديه ويدعو النّاس إلى نهجه، فنرى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام يدعوان أبناءهم إلى التَّمسُّك بالدِّين؛ إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١]، وجعل اللَّه سبحانه وتعالى هارون وزيرًا ووصيًّا وخليفة لموسى عليه السلام؛ إذ قال جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾[٤]، وجعل اللَّه سبحانه الحواريين أنصارًا وأوصياءً لعيسى عليه السلام؛ إذ قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾[٥]، فلا غرابة أن يكون للنبيِّ محمَّد صلى الله عليه وآله أوصياء وخلفاء من أهل بيته عليهم السلام، إذا ما علمنا أنَّه خاتم الأنبياء والرسل، فقد سُئل صلى الله عليه وآله مَنْ أشدُّ النَّاس بلاء في الدّنيا، فقال: ((النبيّون ثمّ الأماثل فالأماثل))[٦]، أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى في المرتبة والمنزلة، وهم الأخيار ومن غير محمَّد وآله يتَّصفون بهذه الصفات.

---

(١) البقرة: ١٣٢.
(٢) الأعراف: ١٤٢.
(٣) مريم: ٥٣.
(٤) الفرقان: ٣٥.
(٥) الصف: ١٤، و آل عمران: ٥٢ و المائدة: ١١٢.
(٦) تحف العقول عن آل الرّسول: ٣٩.

لذا قال ﷺ: ((ومَنْ أقرَّ بالذّلِّ طائعًا فليس منَّا أهل البيت))[١]، فعليٌّ وأهل البيت عليهم السلام الأنموذج الأخير في الدّنيا والآخرة، لذا ترفّع عليه السلام من استعمال الحيلة مع عمَّاله ولا سيَّما معاوية؛ إذ قال: ((لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدّنيَّة، في أمري))[٢]، لذا روي عن الإمام الصّادق عليه السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾[٣]، قال: وقليل من الآخرين هو علي بن أبي طالب عليه السلام[٤]، ولا غرابة في ذلك؛ لأنَّ عندهم علم الكتاب، قال الإمام الحسين عليه السلام: ((نحن الذين عندنا علم الكتاب وبيان ما فيه، وليس لأحدٍ من خلقه ما عندنا؛ لأنّا أهل سرّ اللّه، ثمَّ قال: نحن آل اللّه وورثة رسوله))[٥].

ومن هنا فإنَّ طلب الحقيقة والوقوف عليها أمر في غاية الأهميَّة؛ بل تفوق أيَّ اعتبار آخر، فالحقيقة والفضيلة والنّور هم أبناء المعرفة، والنَّاس صنفان: صنف يتَّبع الحقيقة وصنف مخالف لها، فالأوَّل؛ استبصر ووصل إلى درجة اليقين، والثاني؛ قد ضلَّ ووصل إلى درجة العمى فهو لا يعرف للمحجَّة البيضاء طريقًا ومخرجًا[٦].

وهذا ما ينطبق على الواقع الإسلامي قديمه وحديثه، وكلُّ طرفٍ يدَّعي أنَّه يمتلك الحقيقة المطلقة، فهناك حقائق ثابتة لا يختلف عليها اثنان؛ لكنْ يختلفون في تأويلها وتفسيرها ممَّا يشوِّه تلك الحقيقة، ومن الحقائق الأولى لدعوة النبيّ ﷺ

(١) تحف العقول عن آل الرّسول: ٥٨، وهذا ما جسَّده الإمام الحسين عليه السلام هو وأهل بيت النبوّة وأصحابه في يوم عاشوراء، حينما عرضوا عليه الأمان له ولأصحابه فأنف من الذّل، وقال: ((ألا وَإِنَّ الدَّعيَّ ابنَ الدَّعيِّ قَد رَكَّزَ بَينَ السُّلّه وَالذلَّة وَهَيهاتَ مِنّا الذِلَّةُ يَأبى اللّهُ ذلك لَنا وَرَسولُهُ وَالمُؤمنونَ...)) ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٢) تاريخ الطبري:٣/ ٤٦١.
(٣) الواقعة: ١٣ ـ ١٤.
(٤) ينظر: شمائل عليّ في القرآن والسُّنة: ٢٥.
(٥) المناقب: ٢/ ١٠٨، بلاغة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام: ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٦) ينظر: الإمام عليّ في الفكر المسحي المعاصر: ١٢٧ وما بعدها. الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيَّة: ٤١ وما بعدها.

هي إنذار عشيرته؛ إذ قال اللَّه في محكم كتابه العزيز: ﴿وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[١]، فقال النبيُّ مخاطبًا قومه إنِّي قد جئتكم بخير الدُّنيا والآخرة، وقد أمرني اللَّه أن أدعوكم إليه، فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّ وخليفتي فيكم، فقد ذكر الطبري (ت: ٣١٠ هـ)، وأبو الفداء (ت: ٧٣٢هـ) أنَّه لم يجبْ دعوتَه إلَّا الإمامُ عليٌّ عليه السلام؛ إذ قال: ((أنا يا نبيّ اللَّه أكون وزيرك عليه، فقال صلى الله عليه وآله: إنَّ هذا أخي ووصيّ وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا))[٢]، فالإمامُ وقف موقفًا بطوليًّا فيه القوَّة والشجاعة من جانب، وفيه الإيمان والرأفة والرحمة من جانب آخر، وبتعبير آخر قد جمع الإيمان مع البطولة، موقف فاق التصورات العقليَّة، ولذا نرى عبر التاريخ أنَّ الأقوام والشعوب تربط بين البطولة والقداسة، فكيف إذا جمعت جميع الخصال الحميدة في إمام كان غذاؤه الروحي رسالات السماء، والقريب القريب من النبيّ لا يفصله عنه شيء، فكان يضمه إلى صدره، ويكنفه في فراشه، ويمسُّه في جسده، ويشمُّه في عرقه، فأصبح عليٌّ لصيقا روحًا وجسدًا مع ابن عمه[٣]، ولهذا قال عليه السلام: ((وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ))[٤]، فهو إمامٌ عشق البطولة وتمتَّع بملكة العقل والإبداع العلميّ، فيه سموّ الروح، يمتلك الحجَّة والفصاحة والبيان والصفات الخلقية والخصال النبيلة، كلُّ ذلك جعله أن يكون إمام الأولياء والأوصياء والصالحين، وأن يكون سمةً شاخصةً على مرِّ الحِقب الزمنيَّة، لذا نلحظ أنَّ الإمام الحسن عليه السلام يصف علم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ((إنَّ اللَّه علَّم رسوله الحلال والحرام والتأويل، فعلَّم رسول اللَّه عليًّا ذلك كلّه))[٥]،

(١) الشعراء: ٢١٤.
(٢) تاريخ الملوك والأمم: ٢/ ٣٢١ وتاريخ أبي الفداء: ١/ ١٤.
(٣) ينظر: عليّ بن أبي طالب عليه السلام رجل الدّولة والمعارضة: ٢٣.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة: ٢/ ٢٦٩.
(٥) الاختصاص: ٢٧٨.

فحنقت عليه نفوس قريش، وقد وصف الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام هذا البغض بقوله: ((لأنَّه أورد أوَّلهم النَّار، وألزم آخرهم العار))[١]، فأهل البيت عليهم السلام شرائع الدّين؛ لأنَّهم يقولون الحقَّ، ويحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد؛ لأنَّ اللَّه سبحانه اختارهم أسوةً حسنةً، واصطفاهم واجتباهم وارتضاهم لخلقه، لذا وصفهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: ((كلُّ ما مضى منهم إمامٌ نصب لخلقه من عقبه إمامًا علمًا بيّنًا، وهاديًا نيّرًا، وإمامًا قيّمًا وحجّة عالمًا، أئمَّة من اللَّه يهدون وبه يعدلون، حجج اللَّه ودعاته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهلُّ بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد، جعلهم اللَّه حياةً للأنام، ومصابيح الظلام ومفاتيح الكلام ودعائم الإسلام، جرت بذلك فيهم مقادير اللَّه على محتومها))[٢]، فالذي يتأمَّل في كلامه عليه السلام يجد أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم الدّعاة إلى اللَّه، والأدلَّاء عليه بهديهم تهدي العباد، وبنور علمهم تستهلُّ البلاد، وببركتهم ينمو المال القديم، وكلّ ذلك؛ لأنَّهم الأسوة الحسنة .

(١) بحار الأنوار: ١٧/ ١٦٠، وينظر: بلاغة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: ١٦٩.
(٢) أصول الكافي: ١/ ٣٣ .

المطلب الثاني: الإمام عليّ عليه السلام أوَّل مؤمن يشري نفسه.

لا شكَّ في أنَّ الإمامَ عليًّا عليه السلام يشكِّل ظاهرةً عالميَّةً سواء على مستوى العالم الإسلاميّ أم على مستوى العالم الإنسانيّ، هذه الظاهرة نطق بها القرآن الكريم وأيَّدها فقهاء الأمَّة وعلماء الدِّيانات الأخرى(١)، وأوَّل سمةٍ لديه تتمثَّل بالشجاعة والإقدام ومقارعة الطاغوت حينما بات في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله، فهو درس في الجرأة والإقدام والفداء، وأن يقف مدافعًا عن رسالة ابن عمِّه بوصفه أخًا ووصيًّا وخليفةً من بعده، فبذل نفسه وهي أعزُّ ما يملك في سبيل نصرة الحقِّ، وأن يؤدِّي عن النبيّ الودائع والأمانات(٢)، لذا مدح اللَّه هذا الموقف له؛ إذ قال في كتابه الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٣)، فالإمام قد باع نفسه للَّه سبحانه، وبذل مهجته لرسوله صلى الله عليه وآله حينما اضطجع على فراشه لمَّا طلبته قريش، فتقبَّل بيعه(٤) بوصف اللَّه رؤوفًا بعباده، ونلحظ في الآية الاسم الموصول (مَن) مع صلته قد زاد الإيضاح المراد من معنى (يشري) فضلًا عن المفعول لأجله (ابتغاء)، هذا يعني أنَّ لفظة (ابتغاء) تمثِّل دلالة الحالة التي من أجلها وقع شراء النّفس، أي بيعها، ونلحظ أنَّ هذه اللفظة قد جُرِّدت من (اللام) وعدم اقترانها دلالة على أنَّها استكملت شروط المفعول لأجله هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى يكون المصدر المنصوب علّة للفعل الذي قبله، فضلًا عن أنَّه اتَّحد بالمعلل به زمنًا وفاعلًا وإلَّا دخلت عليه اللَّام(٥).

(١) ينظر: الإمام عليّ عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر: ١٢٤ وما بعدها.
(٢) ينظر: خلاصة التاريخ: ٤٧.
(٣) البقرة: ٢٠٧.
(٤) ينظر: تاريخ دمشق: ٤٢/ ٦٧، وأسد الغابة: ٤/ ٩٨، وخصائص الوحي المبين: ٩٣/ ٦٢، وتفسير العياشي: ١/ ١٠١.
(٥) ينظر: البحر المحيط: ٢/ ١٢٨، وأوضح المسالك: ٢/ ٢٢٥.

نستطيع أن نفهم من الآية أنَّ الإيمان كان في أعلى درجاته وهو الغاية، ولم تكن الجنَّة ونعيمها هي الغاية؛ بل الغاية ملازمة لأعماله كلِّها، وهي علَّة للفعل (يشري) الذي اقترب من استمراريَّة الحدث من الصفة الدائمة[١]، وهو فعل يدلُّ على الطاعة من دون تكلُّفٍ واجتهاد، وهذا توفيق ربَّاني نتلمَّس فيه العناية والاهتمام ممَّا استدعى أن يكون اللَّه سبحانه وتعالى رؤوفًا به فاستدعى له الإحسان جميعه[٢].

ولا بدَّ من طرح السؤال الآتي: هل كان (بيع النّفس) لغاية الجنّة أو مرضاة اللَّه سبحانه وتعالى؟

نقول: إنَّ من يجاهد في سبيل اللَّه ويقتل فجزاؤه الجنَّة؛ لكن من ينظر إلى الآية يجد العلّة مرضاة اللَّه، وهذا بيان واضح في عظمة شأن من تعلقت به الآية الكريمة.

وقد ذكر ابن عبّاس أنَّ الرّسول قد عهد إليه أن يؤدِّي عنه العهود سبعين مرَّة لم يعهدها إلى غيره[٣]، وسورة (براءة) خير دليل على ذلك بعدما أرسل بها النبيُّ ﷺ أبا بكر ثمَّ دعاه بعد ذلك قائلًا: ((لا ينبغي لأحدٍ أنْ يبلِّغ هذا إلَّا رجل من أهلي))[٤]، ويرى الباحث (ريشار) أنَّ لهذا الأمر دواعيَ كثيرة منها:

١- أنَّه الخليفة المؤهَّل لاستلام الخلافة والإمامة بعد رسول اللَّه ﷺ.

٢- الإمام هو الأقرب روحيًّا للنبيّ ﷺ.

٣- هو أوَّل من آمن بالرسالة وأمين سر المصطفى ﷺ[٥]، إذ قال النبيّ ﷺ فيه

(١) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ١/ ٣١٦، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ٤٠٢.
(٢) ينظر: البحر المحيط: ٢/ ١٢٩.
(٣) ينظر: كفاية الطالب: ٢٩١.
(٤) ينابيع المودّة: ١/ ٨٦.
(٥) ينظر: الإسلام الشيعي: ٣٥.

إنَّه: ((صاحب سرّي عليّ بن أبي طالب))[١]، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أنَّ نورهما واحد، فقد روى سلمان المحمديُّ رضي الله عنه عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله أنَّه سمعه يقول: ((كنت أنا وعليٌّ نورًا بين يدي اللَّه، وطيفًا يسبِّح اللَّه ذلك النور ويقدِّسه قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمَّا خلق اللَّه آدم ركز ذلك النور في صلبه، فلم نزل في شيءٍ واحدٍ حتَّى افترقنا في صلب عبد المطلب؛ فجزء أنا وجزء علي))[٢]، وقد أكَّد مضمون هذا الحديث الإمام الحسن عليه السلام؛ إذ قال: ((نحن الآخرون، ونحن الأوَّلون، ونحن النور بنور الروحانيِّين، ننوّر بنور اللَّه، ونروح بروحه فينا مسكنه، وإلينا معدنه، الآخر منَّا كالأوَّل، والأوَّل منَّا كالآخر))[٣]، فالإيثار سمة بارزة بعليٍّ عليه السلام سواء أكان الإيثار بالمال أم الإيثار بالنفس، وله المواقف المشهودة منها غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها، وفداه بنفسه ليلة المبيت فنزلت بشأنه هذه الآية التي رواها العامَّة والخاصَّة أنَّها نزلت في عليّ عليه السلام[٤]، فقد وطَّن نفسه للرسالة واستهان بالموت، فعندما أمره الرسول الكريم أن ينام في فراشه ليلة الهجرة قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ((أو تسلمنَّ بمبيتي هناك يا نبيَّ اللَّه؟ قال: (نعم) فتبسَّم عليٌّ ضاحكًا، وأهوى إلى الأرض ساجدًا شكرًا لما أنبأه به رسول اللَّه من سلامته، فكان أوَّل من سجد للَّه شكرًا))[٥]، ولا شكَّ في أنَّ هذا العمل يمثِّل قمة الإيثار، وله وقع في السَّماء أكثر منه في الأرض فهي مواساة فريدة من نوعها، فلا غرابة أن يثني عليها اللَّه ويطأطئ العلماء رؤوسهم إجلالًا لها.

---

(١) كنوز الحقائق: ٨٨.
(٢) كتاب فضائل الإمام علي، الحديث ٢٥٢، وينظر: مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ١٤/ ٨٨، وتاريخ دمشق: ١/ ١٣٧، وميزان الاعتدال: ١/ ٢٣.
(٣) دلائل الإمامة: ٤٤/ ١٤٥.
(٤) ينظر: الإحقاق: ٣/ ٢٤ وما بعدها.
(٥) بحار الأنوار: ١٩/ ٦٠.

المطلب الثالث: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية التَّطهير

من الآيات التي اصطفى اللَّه عزوجل بها أهل البيت عليهم السلام آية التطهير؛ إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١] فقد ذكر العلماءُ أنَّ المرادَ من هذه الآيةِ هم: ((عليٌّ وفاطمة وحسن وحسين))[٢] فهذه الآيةُ منبعُ فضائلِ أهل البيت عليهم السلام؛ لاشتمالها على أمورٍ عظيمةٍ منها:

١ ـ اعتناء الباري عزوجل بهم عليهم السلام، والإشارة إلى علوِّ قدرهم فأنزلها بحقِّهم عليهم السلام.

٢ ـ تصدير ذلك (بإنَّما) التي هي أداة حصر، التي أفادت أنَّ إرادةَ اللَّه عزوجل مقصورة عليهم عليهم السلام لا تتجاوز إلى غيرهم.

لهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وآله شديد الاهتمام بهم، حريصًا على إظهار العطف عليهم بقوله: ((اللَّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصَّتي، وقد جعلتَ إرادتك في أهل بيتي مقصورة على إذهاب الرِّجس والتطهير، فأذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيرًا))[٣] ولا شكَّ في أنَّه مستجاب الدّعوة فدعا الباري إلى الصلاة عليه وعليهم، وهذه منقبة وفضيلة يكفي الاستدلال بها على أحقيَّتهم في إدارة أمور الدِّين والدنيا، والآية اقتصرت على أصحاب الكساء الخمسة، وكفى بهذا برهان على أنَّهم أفضل من أقلَّتهم الأرض ومن أضلَّتهم السماء، ولم يشاركهم فيها أحدٌ من بني آدم أو من الصحابة، فأزاح بحُجبهم في كسائه حينئذ حجب الرّيب وهتك سدف الشبهات، فبرح الخفاء بحكمته البالغة، وسطعت أشعة الظهور ببلاغه المبين[٤].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) الاستيعاب: ٣/ ٣٧، وينظر: مسند أحمد: ١/ ٣٣٠، وصحيح الترمذي: ٥/ ٣٢٧، والمستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤١٦، وتفسير الطبري: ٢٢/ ٥ـ ٧، والدّر المنثور: ٥/ ١٩٩.
(٣) جواهر العقدين في فضل الشرفين: ٣/ ٥٣٤.
(٤) ينظر: الفصول المهمّة: ٢٠٣، وشواهد التنزيل: ٢/ ١٠ وما بعدها، وبحار الأنوار: ٣٥/ ٢٢٥، والصواعق المحرقة: ١٤١، وينابيع المودّة: ٢/ ٤٢٩، والتفسير الكبير: ٦/ ٦١٥، وتفسير التبيان: ٨/ ٣٠٧، ومجمع البيان، ٨/ ٣٥٦، والإحقاق: ٢/ ٥٠٢، والميزان، ١٦/ ٣٢٩، والفصول المهمة: ٢٥، ومشكل الآثار: ١/ ٣٣٣.

إنَّ هذه الآية – آية التطهير– لها منزلة في نفوس أهل البيت عليهم السلام لذا نرى الرّسول قد سلك مسالك عدَّة في تبليغها للنَّاس كافَّة، فكان كلُّما خرج لصلاة الفجر يمرُّ ببيت عليٍّ وفاطمة عليهما السلام فيقول: (الصلاة يا أهل البيت) ثم يقرأ الآية المباركة، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾[١] ولعلَّ سبب استمراره بقراءة هذه الآية تسعة أشهر على باب أهل البيت عليهم السلام فجرًا من أجل الإعلان والإفصاح عن اختصاصها بهم، لذا كانوا يحتجُّون بها[٢].

وقد درس النُّحاة واللّغويُّون هذه الآية ولا سيَّما لفظة (أهل البيت) فمنهم من جعلها في موقع المنادى المنصوب، أو أنَّها نُصبت على المدح والاختصاص وهو الرأي الراجح عندنا؛ لأنَّ النصب على النداء يؤدِّي إلى الإبهام في الضمير (عنكم) وهذا ممَّا لا يجوِّزه سيبويه (ت: ١٨٠هـ)[٣] وكيف يُعظم أو يُمدح من يرد مبهما ؟ فالنّداء لا يوضِّح المضمر كما يوضحه الاختصاص، وعليه يمكن استبعاد المنادى من الترجيح؛ لأنَّ وظيفته التنبيه والآية ليست بهذا الصدد، ومفهوم الاختصاص كلُّ مركَّب فيه الخاص والعام فله وجهتان، فتارة يُقصدُ به جهة العموم، وتارة يُقصد به الخصوص وهو المعني بالاختصاص، فخصوصيَّة (أهل البيت) جاءت من المضاف إليه (البيت) –الّذين يجتمعون في بيت واحد– وهو ما يجعل اللام فيها للعهد[٤]، وهناك قرينة أخرى تنسجم مع ترجيح الاختصاص تصدَّرت الآية هي (إنَّما) التي أفادت الحصر، والحصر يقترب في معناه من الاختصاص، بل هو يفيد الاختصاص، ودلالة الحصر في (إنَّما) تعطي

(١) طه: ١٣٣.
(٢) ينظر: سنن الترمذي: ٥/ ٣٥٢، وغاية المرام: ف٢٣/ ٢٩٦، والبرهان: ٣/ ٣١٢، وتاريخ دمشق: ١/ ٢٥١، والدّر المنثور: ٥/ ١٩٩ وغيرها.
(٣) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٣٣ وما بعدها، والمحكم والمحيط الأعظم: ٢/ ٣٥٥، ومغني اللبيب: ٢/ ٢٠٧، وشرح الرضي: ١/ ٤٣١ وما بعدها.
(٤) ينظر: الكليات: القسم الأول: ٧٦.

معنى النفي والاستثناء أو لكونها بمثابة اجتماع مؤكِّدَينِ في كلمة واحدة[١]، ومن طريق الحصر نستطيع القول إنَّه أفاد معنيين هما:

١ـ لا يريد اللَّه ليذهب الرجس إلَّا عن أهل البيت ولا يتعداه إلى غيرهم، ونوع القصر هو قصر صفة على موصوف، بتعبير آخر قصر صفة إذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام، وهو قصر إفراد لدفع توهم أنَّ هناك من يشترك مع أهل البيت عليهم السلام في هذه الصفة، فجيء بالحصر لدفع التَّوهم في إشراك غير أهل البيت عليهم السلام[٢].

٢ ـ بحسب دلالة الواو العاطفة لا يريد اللَّه أنْ يطهِّر إلَّا أهل البيت عليهم السلام تطهيرًا، فدلالة (إنَّما) عملت على إبراز الحال المثبتة ونفي سواها وإظهار ذلك على أكمل وجه، قال الجرجاني(ت: ٤٧١هـ): ((اعلم أنَّها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غره))[٣] وعزَّز المفعول المطلق (تطهيرا) هذين المعنيين لكونه مشتقًّا من الفعل نفسه من جهة، ومن جهة أخرى متعلق بالفعل المضارع (يذهب) فالمفعول المطلق اشترك مع الحصر في إذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام ومنحهم الطهارة المطلقة ولم يقيِّدها بزمان أو مكان؛ لأنَّه يدلُّ على الحدث المجرَّد من الزمان، وهناك نكتة أخرى في الآية المباركة؛ إذ جاءت لفظة (بيت) ولم تأتِ جمعًا، وهذه دلالة أخرى أنَّ المعني بها غير زوجات النبيّ؛ لأنَّ قرينة الجمع تدلُّ على التعدد، فحينما أراد الجمع قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهذا دليل على أنَّ زوجات النبيِّ غير مشمولات بآية التَّطهير.

(١) ينظر: تهذيب اللغة: ١٥/ ٣٨٤، ودلائل الإعجاز: ٢٧٤.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٢، والاتقان في علوم القرآن: ٥٩٨، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ: ١٩٧.
(٣) دلائل الإعجاز: ٢٨٥.

المطلب الرابع: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية المباهلة:

آية المباهلة من الآيات التي بيَّنت منزلة أهل البيت عليهم السلام قال سبحانه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1] فقد أكَّد العلماء والفقهاء والمؤرِّخون وأهل التفسير أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله باهل وفد نجران، فمن الأبناء الحسن والحسين عليهما السلام ومن النساء فاطمة سلام اللَّه عليها، ومن الرجال الإمام عليّ عليه السلام؛ لأنَّهم أعزَّ الأهل وألصقهم بقلبه[2]، وقد عبَّرت الآية بشكل موجز عن دعوة المباهلة، فقالت ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ بمعنى تعالوا نحن وأنتم ندعو خاصَّتنا وأهلينا للمشاركة في الابتهال، ولشدَّة اطمئنان الرَّسول برسالته ونبوَّته قدَّم الأبناء، والإنسان بطبعه يحرص على ولده، ثمَّ ذكر النِّساء والرجل غيور على نسائه، ثم ذكر خاصَّته وهو عليّ عليه السلام، فهؤلاء أعزُّ النَّاس عليه وأقربهم إلى قلبه، فلمَّا رأى الأسقف النبيَّ صلى الله عليه وآله قد أقبل ومعه أهل بيته ليباهلهم قال: واللَّه ما جاء بهم وهو يتخوَّف الحجَّة عليه فاحذروا مباهلته، وهذه المباهلة بأمر اللَّه سبحانه وتعالى حتى يجعل لعنة اللَّه على الكاذبين، ويبيِّن صدق الصادقين، وقد ذكرت الروايات فضلا عن المؤرخين أنَّ الرَّسول أخرج للمباهلة أهل بيته عليهم السلام وهم الصفوة من الخلق لذا أحجم النصارى عن مباهلته واقترحوا أن يعطوا الجزية، وأجمع المفسِّرون على أنَّ ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ إشارة إلى الحسن والحسين عليهما السلام، ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ إشارة إلى فاطمة عليها السلام، ﴿وَأَنْفُسَنَا﴾ إشارة إلى عليّ عليه السلام، فجعل اللَّه عليًّا نفس محمَّد صلى الله عليه وآله، والمراد هنا المساواة، والمساوي للأكمل والأوْلى بالتصرُّف يساويه في ذلك[3].

(١) آل عمران: ٦١.
(٢) ينظر: الكشّاف: ١/ ٤٣٤، أباهلكم: أي ندعو ونجتهد في الدّعاء باللعنة على الكاذبين.
(٣) ينظر: الولاية: الفصول المائة في حياة أبي الأئمة علي عليه السلام: ٤٥٤ ـ ٤٥٦.

وهذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على منزلة أهل البيت عليهم السلام أوَّلا، وثانيا: على علوّ مرتبة الإمام عليّ عليه السلام؛ لأنَّ اللَّه عزّ وجلّ حكم بالمساواة لنفس رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، وهذا يدل على غاية الفضل، وعلوّ الدرجة، والبلوغ منه إلى حيث لا يبلغه أحد، ثمّ هناك نكتة أخرى في آية المباهلة تتمثَّل في طلب النبيِّ من أهل بيته التَّأمين على دعائه وهذا الأمر بمجرّده فضل عظيم، لذا ورد في الحديث أنَّه قال صلى الله عليه وآله لبريدة الأسلمي: ((يا بريدة لا تبغض عليًّا فإنَّه منِّي وأنا منه، إنَّ النَّاس خُلقوا من شجر شتى، وخُلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة))[١] ولعظمة هذه الآية في نفوسهم احتجُّوا بها على أبي بكر في مسألة الإرث[٢]. وقد جاءت الروايات مستفيضة في شأن نزولها؛ إذ بلغ إلى حدِّ الإجماع، وأنَّها تتعلق بأهل بيت الرَّحمة عليهم السلام، فعن الشّعبيِّ أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية أنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله اتكأ على عليٍّ والحسن والحسين عليهم السلام وتبعتهم فاطمة عليها السلام ثمّ قال: ((هذه أبناؤنا وهذه نساؤنا، وهذه أنفسنا))[٣]، وفي لفظة ﴿أَنْفُسَنَا﴾ نكتة نحويَّة تتمثَّل في عودة الضمير في ﴿أَنْفُسَنَا﴾ على الرسول لا ينسجم مع تعلقه بالفعل (ندعو) الواقع في جواب الشرط؛ لأنَّه سيجعل من الرّسول داعيا لنفسه خلافا لمعنى الفعل[٤]، جاء في المخصَّص ((الدّعاء طلب الطالب للفعل من غيره))[٥] ومن ثَمَّ لا تتحقَّق العودة إلى المباهلة إلَّا إذا كانت ﴿أَنْفُسَنَا﴾ راجعة إلى غير رسول اللَّه صلى الله عليه وآله أو يشترك معه في دلالتها، بوصف أنَّ مرجعيَّة الضمير (نا) على المتكلم الرّسول قد منعه النحاة؛ لأنَّه سيكون من إضافة الشيء إلى نفسه[٦]، ولهذا نستطيع القول:

(١) مجمع البيان: ٢-٤٥٢.
(٢) ينظر: الفصول المهمة: ١٩٧ـ ٢٠١، وفرائد السمطين: ٢/ ٢٣، والكشّاف: ١/ ٤٣٤، والدّر المنثور: ٢/ ٣٨ـ ٣٩، وصحيح مسلم: ٧/ ١٢٠، والتفسير الكبير: ٨/ ٨٠.
(٣) تفسير الفرات: ٧٨، وينظر: البحر المحيط: ٢/ ٥٠٢، وروح المعاني: ٣/ ٣٣ وغيرها.
(٤) ينظر: المُقرّب: ١/ ٢١٢، وشرح ابن عقيل: ٣/ ٤٩.
(٥) المخصَّص: ٤/ ٥٧.
(٦) ينظر: المُقرب: ١/ ٢١٢، وشرح ابن عقيل: ٣/ ٤٩، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ١٦٦.

إنَّ آية المباهلة قد بيَّنت أفضليَّة الإمام عليٍّ بشكلٍّ واضح لا لبس فيه، فقد صرَّح صاحب الكشَّاف في تفسير ذيل الآية بأفضليَّة أصحاب الكساء عليهم السلام، وأنَّ فيها برهانًا واضحًا على صحَّة نبوَّة النبيِّ صلى الله عليه وآله؛ لأنَّه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنَّهم أجابوا إلى ذلك[1]، فكلُّ سياق الآية يبيِّن أنَّ هاجس الخوف لم يرد مطلقًا في أذهان أهل البيت عليهم السلام عند المباهلة، بل صدَّقوا الرَّسول في دعواه، ومن هنا فإنَّ في الآية دلالات عدَّة منها:

١- أنَّ لفظة ﴿أَنْفُسَنَا﴾ متعلقة بالفعل (يدعو) فخرجت من دلالتها على المفرد المعظم نفسه.

٢- أنَّها خرجت عن دلالتها على جميع المسلمين؛ لكونها لا تتناسب مع الدّعوة إلى التباهل .

٣- إيرادها بهيأة المركب الإضافي، وهذا التركيب يحتاج إلى شخص آخر يكون بمنزلة نفس رسول اللَّه صلى الله عليه وآله.

٤- من سياق الآية لا بدَّ من وجود جماعة مؤمنة يتمتَّعون بدرجة عالية من الصدق، ويمتلكون ذاتًا بصيرة نافذة في دينهم، وإلَّا لم تتحقَّق المباهلة.

٥- أنَّ ﴿أَنْفُسَنَا﴾ في الآية يُراد بها التثنية، وهو أسلوب قرآني، ولا تعني التجزئة بقدر ما يعني الانسجام في الرؤية والمنهج أو في القرابة بينهما، فقد ذكرت معاجم اللغة أنَّ النَّفس تأتي بمعنى الأخ[2].

خلاصة القول: إنَّ آية المباهلة بهذا التفصيل من لدن النبيِّ تحتاج إلى أناس توافرت بهم صفة الكمال في الدِّين وفي الصفات المادية والمعنوية حتى تكتمل دعواه إلى التّوحيد.

(١) ينظر: الميزان: ٣/ ٩٩.
(٢) ينظر: الكتاب: ٣/ ٢٥٩، ولسان العرب: ٦/ ٢٨٢، وتاج العروس: ١٦/ ٥٧٠، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ١٦٧ وما بعدها.

المطلب الخامس: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية المودَّة:

حينما قويت شوكة الإسلام واستقرَّ نظامه بعدما تحمَّل النبيُّ مشقَّته، أراد الأنصار أنْ يعوِّضوه على أتعابه فوضعوا أموالهم بين يديه صلى الله عليه وآله فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١] فجعل اللَّه عز وجل أجر الرسالة مودَّة أهل البيت عليهم السلام، وتشير الروايات أنَّ النبيَّ حينما نزلت آية لفظة المودَّة فقرأ الآية ثمَّ قال: ((تودُّون قرابتي من بعدي))[٢] بل إنَّ الرسول حينما سئل مَن هؤلاء الذي أمر اللَّه عز وجل بمودَّتهم؟ فقال: ((عليّ وفاطمة وولدهما))[٣] وهذا تشريع إلهي لا يحق للمسلم أن يتجاهله، فأجر الرسالة محبَّتهم، فيها الهداية والإرشاد، فضلا عن الاقتداء بهم يمثل الإسلام الأصيل، ولا شكَّ في أنَّ مودَّتهم هي مودَّة الدِّين وهي الوسيلة لتقوية الرِّسالة والإيمان بعصمتهم، لذا قال الفخر الرازي في تفسيره عن الآل، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، وقد ساق مجموعة من الأدلة منها:

١ـ أنَّ الدُّعاء للآل منصب عظيم، لذلك جعل اللَّه عز وجل هذا الدُّعاء خاتمة التَّشهد في الصلاة وهو قوله: (اللَّهم صل على محمّد وآل محمَّد، وارحم محمَّدًا وآل محمَّد) وهذا التعظيم لم يوجد في حقِّ غير الآل، فكلُّ ذلك يدُّل على أنَّ حبَّ آل محمَّد واجب[٤].

٢ـ أنَّ اللَّه عز وجل جعل المودَّة حسنة؛ لأنَّه قال بعدها وفي الآية نفسها، ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ فهذه الآية تثبت المحبّة الدّينة؛ لأنَّها تتناسب مع رسالة السّماء، ثمَّ أنَّها تثبَّت الولاية والقيادة والخلافة لعليّ وأولاده عليهم السلام بعد الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولا تعني المحبَّة العادية؛ لأنَّها لا تتناسب مع عظمة الدِّين والرِّسالة.

(١) الشورى: ٢٣.
(٢) ينابيع المودَّة: ١٩٤، وينظر: الكشّاف: ٣/ ٤٦٨.
(٣) المناقب: ٣٠٧، ح٣٥٢.
(٤) التفسير الكبير: ٢٧/ ١٦٦.

٣ـ أنَّ منفعة الرّسالة تتحقق بمودَّتهم، بوصفهم يمثِّلون طريق الحقِّ نحو إصلاح الأمَّة، فأهل البيت عليهم السلام هم أصحاب الكساء[١]، وهم عليهم السلام الأجدر في قيادة الأمة وحمل الرّسالة وتبليغها إلى النَّاس كافَّة.

فهذه الآية صريحة بألفاظها التي تدلُّ على القرب والدنو والمحبَّة، وفيها دلالات عميقة منها:

١ـ تكثير الوِّد في القربى للمبالغة؛ لأنَّ المودَّة غير الوِّد، وإنْ كان جذرهما واحدًا؛ لأنَّ المودَّة هي مصدر ميمي يدل على الذات، خلاف الوِّد الذي يفتقد إلى هذا المعنى، فتكون المودَّة قد جمعت المعنيين بإظهار المبالغة في المودَّة للقربى مقرونة بالتواصل الذاتي معهم من دون الاكتفاء بالمحبَّة القلبيَّة[٢].

٢ـ للاستثناء أثر بارز في خصوصيَّة لفظ (المودَّة بالقربى) فضلا عن إظهار المعنى المراد من الآية، فقد جوَّزه الزمخشري أن يكون استثناء متَّصلًا، أي لا أسألكم عليه أجرًا إلَّا هذا، وهو أن تودُّوا أهل قرابتي، وأجاز العكبري(ت: ٦١٦هـ) الوجهين المنقطع والمتصل، فقال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ استثناء منقطع، أو العكس، وقيل: هو متصل، أي لا أسألكم شيئا إلَّا المودَّة في القربى فإنِّي أسألكموها، وهذا التخريج يمنح خصوصيَّة (للقربى) لأنَّ الاستثناء دلَّ على الحصر وليس له دلالة العموم، فقد جعل الرمَّاني الاستثناء بـ (إلَّا) لازم الاختصاص بالشيء من دون غيره، ولذا فإنَّ المقصود من لفظة ﴿الْمَوَدَّةَ﴾ اختصاصها بذي القربى من دون غيره[٣].

---

(١) ينظر: مسند أحمد بن حنبل: ٦/ ٣٢٣/ والإحقاق: ٣/ ٢، والكفاية: ٩٠، والدّر المنثور: ٦/ ٧، وصحيح البخاري: ٥/ ٥٠٢، وتفسير الطبري: ٢٥/ ١٦.

(٢) ينظر: تاج العروس: ٩/ ٢٧٨، والمخصص: ٤: ٤٨٣، وجامع الدّروس العربية: ١/ ١٢٤، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ: ١٢١.

(٣) ينظر: الكشّاف: ٤/ ٢١٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٣٨٣، والبرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٦٨، وشرح المفصل: ٢/ ٧٩، والآيات المتعلقة بالإمام علي: ١٢٣.

٣ـ نلفت عناية المتلقي إلى دلالة حرف الجر (في) الذي منح لفظة ﴿الْقُرْبَى﴾ بيانًا؛ إذ جعلها السياق القرآني مكانًا وموضعًا تستقرُّ به ﴿الْمَوَدَّةَ﴾ فضلا عن زيادة الاختصاص، وعقَّب الزمخشري على هذا الحرف بقوله: ((فإنْ قلت: هلا قيل: إلَّا مودَّة القربى، أو إلَّا المودَّة للقربى، وما معنى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قلت: جعلوا مكانا للمودَّة ومقرًّا لها ... إذا قلت: إلَّا المودَّة للقربى، إنَّما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به ... وتقديره: إلَّا المودَّة ثابتة في القربى وممكنة فيها))[١]، وفي هذا السياق تكون (في) ظرفية ومدخولها القربى (مظروفا) اجتمعت فيه المودَّة، ونلحظ أنَّ لفظة القربى جاءت مُعرَّفة بالألف واللام ممَّا يجعلها أقرب إلى الاختصاص، وأنَّها مختصَّة بأناس بعينهم ولا تشمل العموم، فضلا عن كونها على وزن (فُعلى) مؤنث (أفعل) التفضيل، فإنَّ (قربى) تقابل (أقرب) قال الأزهري: ((الأقارب: جمع الأقرب، والقربى: تأنيث الأقرب))[٢] وتدل على الأكثر قربًا في الرحم والنسب، فالمودَّة في القربى هي الأجر الذي سأله الرسول ﷺ، بوصف أهل البيت عليهم السلام هم الطريق والسبيل إلى اللَّه عزّ وجلّ.

خلاصة القول: إنَّ لفظة ﴿الْقُرْبَى﴾ لها خصوصيتها في سياق الآية كونها جاءت مفردة، وممَّا زاد في هذه الخصوصيَّة تعلقها بـ (في) وبـ﴿الْمَوَدَّةَ﴾، كلُّ ذلك أدى إلى المبالغة في المولاة لأهل البيت عليهم السلام الذين هم أقرب النَّاس لرسول اللَّه عزّ وجلّ، فأمرنا بالتَّودُّد لهم عليهم السلام بوصفهم أجر الرِّسالة.

(١) الكشَّاف: ٤/ ٢١٣.
(٢) تهذيب اللغة: ٩/ ١١٠.

المطلب السادس: منزلة أهل البيت عليهم السلام في آية الولاية:

لديمومة هذه الرسالة أنزل اللَّه سبحانه وتعالى فيهم آية الولاية، قال في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١] وقبل أنْ نبيِّن فيمن نزلت هذه الآية المباركة لا بدَّ لنا من الوقوف على مفهوم الولاية، فهي تعني القيام بأمر النَّاس وتدبير شؤونهم، ومن هنا جاءت دلالات عدة لمفهومها في هذا الباب منها، وليُّ اليتيم، وليُّ المرأة، وقالوا للسلطان: وليُّ الأمر، وقد جعل اللَّه عزَّ وجلَّ هذه الولاية للنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين الطاهرين إلى يوم البعث والحساب، فهو تفويض للنبيِّ بالولاية والحكومة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُه﴾ ثمَّ من بعده أئمة أهل البيت لشمولهم بالآية المباركة بقوله تعالى: ﴿الّذينَ يُقيمونَ الصَلاةَ ويُؤتُونَ الزّكاةَ وهُمْ راكِعُونَ﴾ فمصداق هذه الآية الإمام عليّ عليه السلام وإنْ لم يصرح به القرآن الكريم لحكمة لا يعرفها إلَّا اللَّه عزَّ وجلَّ، ولكن روايات الفريقين التي وردت على لسان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله تؤكِّد أنَّها نزلت بحق أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ إنَّه تصدَّق بخاتمه وهو في حالة الرّكوع، وعند نزولها كبَّر الرَّسول وكبَّر من كان في المسجد، لذا قال النبيُّ بعد نزولها: ((عليّ بن أبي طالب وليّكم بعدي، فقال من في المسجد: رضينا في اللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد صلى الله عليه وآله نبيًّا، وبعليّ بن أبي طالب وليًّا))[٢] فأنزل اللَّه جلَّت قدرته قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣] ونحن على يقين تام أنَّ نزول الآية ليس التصدُّق بالخاتم، وإنَّما لما يملكه الإمام علي عليه السلام من مقوِّمات ذاتيَّة وموضوعيَّة ومعنويَّة، لكن لا بدَّ من وجود سبب للنزول، فكان التصدُّق العلَّة والغاية، فالإمام وليُّ اللَّه هو وأبناؤه الّذين لم يتصدقوا في ركوعهم، فقد طلب المأمون من الإمام عليّ بن موسى الرضا

(١) المائدة: ٥٥.
(٢) نور الثقلين: ١/ ٦٤٨.
(٣) المائدة: ٥٦.

أنْ يخبره عن معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(١)، فقال الإمام: ((أراد اللّه تبارك وتعالى بذلك العترة الطاهرة عليهم السلام، ولو أراد الأمّة لكانت بأجمعها في الجنة))(٢) ثمّ أنَّ أهل البيت يدخلون في الآية لوجود الضمائر التي تدلُّ عليهم (يقيمون، يؤتون، يركعون) ولو كان المراد شخصًا واحدًا لكان الخطاب بالمفرد ولم يأت بضمائر الجمع، وقد أجمع المفسِّرون على أنَّها نزلت بحق عليٍّ عليه السلام، وقد رويت عن تسعين طريقًا بأسانيد متصلة جلّها عن أهل السّنة والجماعة(٣)، وقد رُوي عن أمير المؤمنين أنَّها نزلت فيه، فضلا عن ابن عبَّاس أنَّه قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ورواها أبو ذر والإمام الباقر عليه السلام وعمّار بن ياسر، وسلمة بن كهل، ومجاهد، وأنس بن مالك وغيرهم(٤).

بناء على ما تقدم فإنَّ المراد بالولاية في هذه الآية المباركة الولاية المطلقة، ومن يملكها له الحقُّ بالتصرف في شؤون المسلمين كافَّة، ولا تعني هنا المحبَّة أو النصرة، وبتعبير آخر: إنَّ الولاية هنا لمن جمع بين الزكاة والركوع، أمَّا لفظة ﴿آمَنُوا﴾ التي وردت في الآية فقد جاءت للتعظيم، وهو أسلوب عرفه العرب في كلامهم، وقد ورد في القرآن الكريم، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿إِنَّا أَرسَلْنا نُوحا إِلى قَوْمِهِ﴾(٦)، وقوله: ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاها بِأَيْدٍ﴾(٧)، فهذه الآيات وغيرها جاءت على صيغة الجمع والقائل هو اللّه سبحانه وتعالى، وقد ذكر الزمخشري في تفسيره الكشّاف أنَّه جيء

(١) فاطر: ٢٤.
(٢) تحف العقول عن آل الرّسول: ٤٢٥.
(٣) ينظر: تفسير العيّاشي: ١/ ٣٢٧، والمناقب: ٣/ ٢، وبحار الأنوار ٣٥/ ٢٠١، والفصول المائة في حياة أبي الأئمة عليّ عليه السلام: ١/ ٤٩٢.
(٤) ينظر: شواهد التّنزيل: ١/ ١٧٥، ومجمع البيان: ٣/ ٢١٠، وفرائد السمطين: ٦/ ١٩١، والدّر المنثور: ٢/ ٢٩٣، وغاية المرام: ١٠٩ والباب / ١٩، والميزان: ٦/ ١٩.
(٥) آل عمران: ١٧٣.
(٦) نوح: ١.
(٧) الذاريات: ٤٧.

بلفظ الجمع والمخاطب واحد من باب ترغيب النَّاس للقيام بالفعل نفسه، فيكون الإمام عليٌّ عليه السلام الأسوة الحسنة والمثال الذي يحتذى به هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ هناك أخبارًا وروايات تؤكِّد أنَّ صيغة الجمع المراد بها أئمة أهل البيت عليهم السلام بوصفهم قد وفقوا للفضائل وتطهَّروا من الخبائث، فهم نعم القادة وولاة الأمر بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله[1].

ويلاحظ أنَّ لفظة (وليّ) هي صفة مشبَّهة على وزن (فعيل) بمعنى فاعل، وأصل معناها القرب والدنو، وتأتي لمعان أخر منها: الصَّاحب والحليف، وابن العمّ، والنّاصر، والجار، وغيرها، فـ(الوليّ) هو من كان أقرب من غيره في تولي الأمر والمشارفة على تدبيره[2]،وإنَّ الذي ينظر في هذه المعاني يجدها كلَّها منطبقة على الإمام عليٍّ عليه السلام بوصفه صنو رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، ويكشف لنا التعبير القرآني بأنَّ لفظة (الوليّ) ليست مقتصرة على النَّاصر والمحبِّ كما يدَّعي بعض المخالفين[3]، وإنَّما هي تستعمل من قبيل الأخ وابن العمّ وغيرها، وقد وردت في القرآن الكريم في موارد عدة في غير النَّاصر، فقد جاءت معطوفة على لفظة (نصير) والعطف يقتضي المغايرة، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4]، فهذه قرينة على أنَّ (الوليّ) غير (النَّصير)، ولا بدَّ من القول: إنَّ هناك ولايتين عامَّة وخاصَّة، وفي هذه الآية الولاية الخاصَّة التي حصرتها الأداة (إنَّما)، يقابلها في ذلك ولاية عامَّة متبادلة بين المؤمنين، قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ

(١) ينظر: الكشّاف: ١/ ٦٢٤، ونور الثقلين: ١/ ٦٤٦.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٦/ ١٤١، والقاموس المحيط: ٤/ ٤٠١.
(٣) النّساء: ٤٥، ٧٥٤، ١٧٣، والأحزاب: ١٧، ٦٥، والشورى: ٣، ١٨.
(٤) البقرة: ١٠٧.

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[١]، فالولاية هنا متبادلة بين المؤمنين وهي بمعنى النّصرة، ولفظة (نصروا) قرينة على هذا المعنى، أمَّا (وليّ) بمعنى المتصرِّف فلا يمكن أنْ تكون ولاية عامة متحقِّقة في كلِّ الّذين آمنوا، بل تستند إلى الأقرب والأدنى[٢]، وهذا ما أشار إليه أبو هلال العسكري(ت:٣٩٥هـ) بقوله: ((وأصل الوليّ جعل الثاني بعد الأول من غير فصل))[٣] وهو ما يؤكِّد معنى ولاية الأمر المنحصرة بأهل البيت عليهم السلام.

(١) الأنفال: ٧٢.
(٢) ينظر: الآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ٣٨٠.
(٣) معجم الفروق اللغوية: ٥٧٨.

المطلب السابع: منزلة أهل البيت في آيات الإيثار:

للإنفاق مكانةٌ خاصَّةٌ في نفس العربيِّ، فهو يؤثر غيره على عياله، فبالقِرى تتجلى أخلاقهم، ويعدُّ الكرم من القيم التي ضبطت الحياة ما قبل الإسلام، فأصبح الكرم سجيَّة فيهم، ومن القيم الرفيعة التي تحلَّى بها العربيُّ على مرِّ العصور[1]، فكيف أصبح بعد بزوغ نور الإسلام؟ قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: ((إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق))[2] ولمَّا جاء الإسلامُ هذَّبَ هذه القيمة، فدعا المؤمنين إلى أن يلزموا حالة الوسط لا تقتير ولا إسراف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[3]، وأرفع درجات الجود (الإيثار) وهو أن ينفق الإنسان ماله مع الحاجة إليه، وأن يكون خالصًا لوجه اللّه تعالى، قال اللّه تعالى في معرض الثّناء على أهل الإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4] فالكرم من القيم الشريفة والأخلاق العالية وطفق الرّسول الكريم يحثُّ عليه ويدعو إلى التمسك به؛ إذ قال: ((إنّ اللّه عزّ وجلّ ارتضى لكم الإسلام دينا، فاحسنوا صحبته بالسّخاء وحسن الخلق))[5]، وترجم أهل البيت عليهم السلام تعاليم القرآن الكريم وأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وأفعالهم في كرمهم، قال الإمام عليٌّ عليه السلام: ((كن سمحًا ولا تكن مبذِّرًا، وكن مقدِّرًا ولا تكن مقترًا))[6]، ونرى الإمام الحسن عليه السلام يصف الكرم بقوله: ((الكرم العطية قبل السؤال، والتبرُّع بالمعروف والإطعام في المحل ...))[7]، ونرى الإمام الحسين عليه السلام يفضِّل قِرى المسلم على العتق؛ إذ قال: ((لئن أطعم أخًا لي مسلمًا، أحبُّ إليَّ من أن أعتق أفقًا من النّاس، فقيل له: كم الأفق، قال: عليه السلام عشرة آلاف))[8].

(١) ينظر القيم الخلقية في شعر الشريف المرتضى: ٢٣ ــ ٢٧.
(٢) مجمع الزوائد: ٧ / ١٥.
(٣) الإسراء: ٢٩.
(٤) الحشر: ٩.
(٥) الشافي في أصول الكافي: ٥/ ٧٧.
(٦) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ١٥٠.
(٧) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٦.
(٨) دعائم الإسلام: ٢/ ١٠٦، وينظر: إحقاق الحق: ١١/ ٦٢٨.

من هنا نجد أهلَ البيت عليهم السلام يؤثرون المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم، ومصداق ذلك سورة (الإنسان) فقد أثنى اللَّه سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا* عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا* يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا* وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا* فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا* وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[١]، فهذه الآيات برواية علماء العامَّة والخاصَّة قد نزلت بأصحاب الكساء (عليّ وفاطمة والحسن والحسين) حينما آثروا المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليال على إفطارهم، وطووا ولم يفطروا على شيء من الطعام، فأثنى اللَّه عزّ وجلّ عليهم هذا الثناء الحسن، وأنزل بهم هذه الآيات[٢]، ووصفهم بالأبرار تبيانًا لأنَّهم الأكمل، وأذانًا بأنَّهم الأخيار، وبرهانًا على أنَّهم صفوة الصفوة، والحجَّة على أنَّهم خيرة الخيرة، قال الإمام الحسن عليه السلام: ((كلّ ما في كتاب اللَّه عزّ وجلّ إنَّ الأبرار ... فواللَّه ما أراد به إلَّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة وأنا والحسين، لأنَّا نحن أبرار بآبائنا وأمهاتنا، وقلوبنا علت بالطاعات وتبرأت من الدّنيا وحبِّها، وأطعنا اللَّه في جميع فرائضه، وآمنَّا بوحدانيته، وصدَّقنا برسوله))[٣] لذا جعل شرابهم من عين مزاجها ﴿كَافُورًا﴾، وهذه العين يجرونها حيث شاؤوا من كلِّ مكان أرادوا بسهولة ويسر، وقد بيَّن اللَّه تعالى أنَّهم استحقوا هذه المنزلة؛ لأنَّهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فهذه شهادة من اللَّه تعالى بأنَّهم يؤدُّون الواجبات، ويبتعدون عن المحرَّمات والشبهات فبالغ

(١) الإنسان: ٥ ــ ٢٢.

(٢) ينظر: مجمع البيان: ١٠/ ٤٠٤، والتبيان: ١٠/ ٢١١، والإحقاق: ٣/ ١٥٧، وتفسير عليّ بن إبراهيم: ١/ ٣٨٩، والكشّاف: ٤/ ١٩٧، وروح المعاني: ٢٩/ ١٥٧، وقد احتجّ المأمون العباسي على الفقهاء بهذه الآيات في فضل عليّ عليه السلام، وقال: إنّ اللّه أثنى عليه حين عرف سيرته، ينظر: العقد الفريد: ٥/ ٩٦.

(٣) المناقب: ٤/ ٢، وينظر: البحار: ٢٤/ ٤، بلاغة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام: ١٨٨.

في وصفهم؛ لأنَّهم يخشون اللَّه تعالى والخوف من يوم القيامة، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ لكونهم نصب أمره ونهيه، وتلك منزلة المعصومين[1].

ومن يتدبَّر هذه الآيات يجد العناية الربَّانيَّة قد أحاطت بهم، فلفظة ﴿الْأَبْرَارَ﴾ كانت شهادة من اللَّه تعالى لهم، لا تُوصف بكيف ولا تقدَّر بكم، وجاءت تزكيتهم مرتَّبة ترتيبًا عظيمًا، فشهد لهم بالوفاء بالنذر، ثمّ أنَّهم يخافون يومًا كان شرُّه مستطيرًا، ثمَّ شهد لهم بالإطعام على حبِّه لشدَّة جوعهم بسبب الصيام، وهذه الشاهدة دلالة على رسوخ الإيمان في نفوسهم، وكأنَّهم ينظرون إلى قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[2]، وقوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4]، فتجلَّت بهم المرحمة بأبهى مظهر وتلك صفة المقرَّبين، لذا فازوا بأعظم شهادة من اللَّه تعالى تتجسَّد بأنَّ عملهم كان لوجه الكريم، لا يريدون مكافأة ممَّن أطعموهم، وإنَّما كان تقرُّبا إلى اللَّه تعالى أوَّلًا، وثانيا خوفًا من يوم تفحص فيه الأعمال وتكثر فيه الأهوال[5].

ولمزيد عناية اللَّه تعالى بهم فقد ترادفت عليهم البشائر، وكلُّ بشارة أعظم من سابقتها، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، أي كفاهم ومنع عنهم أهواله وأعطاهم نضرة الوجوه، فضلًا عن سرور القلب، فأشرقت وجوههم بنور اللَّه تعالى وأبدل خوفهم أمنًا، وجزاهم بما صبروا جنَّة وحريرًا، ولم يكتفِ ربُّ العزَّة بترادف البشائر على شكل الإجمال بل أخذ يفصَّل، فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ

(١) ينظر: الفصول المائة في حياة أبي الأئمة علي عليه السلام: ٥٢٠ ـ ٥٢٥.
(٢) البقرة: ١٧٣.
(٣) آل عمران: ٩٢.
(٤) الحشر: ٩.
(٥) ينظر: الفصول المائة في حياة أبي الأئمة عليّ عليه السلام: ٥٢٦.

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا* وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا*قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا* وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا* عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا* وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا* عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا* إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾[1] فاللَّه تعالى أغدق عليهم النعم، وهم في منتهى الراحة والغبطة والحبور، فضلًا عن رحمته التي شملتهم فاستبشروا فكهين غير رائين شمسًا ولا زمهريرًا، ومن رحمته جعل ظلال الجنَّة دانية عليهم، وهذا الدنو فيه تذلل، فقطوفها غير ممتنعة عليهم متى أرادوا وكيف شاؤوا، وهذا شرف ما بعده شرف، لكن نرى اللَّه سبحانه وتعالى لم يكتفِ بهذه النعم بل أطنب بالبشرى لهم؛ إذ فضَّلهم على غيرهم من عباده المؤمنين، وجعل نعيمه عليهم محسوسًا فأشار إلى شأنهم وعلوِّ منزلتهم، فهذا العطاء والنوال جزاء لأعمالهم وطاعتهم للَّه سبحانه وتعالى، ولم يأخذوه من شفاعة الشّافعين، وإنَّما أخذوه بالطاعة للَّه تعالى والإيمان المطلق بعدله فكان سعيهم مشكورًا، وهذا فضل اللَّه يأتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم[2] .

ونحن إذا دققنا النظر نجد في الآيات الكريمة ألفاظًا جاءت مقصودة لمعناها، فلفظة ﴿يُطْعِمُونَ﴾ بصيغة المضارع الذي يدلُّ على الحال والاستقبال[3]، وهذا يشعرنا أنَّ إطعامهم متجدِّد في أي حال، فضلا عن أنَّ جملة ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ هي استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا هذا النعيم، سواء كان مجملًا أم مفصَّلًا هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى الوحدة الموضوعيَّة للآيات؛ إذ

(١) الإنسان: ١٣ – ٢٢.
(٢) ينظر: مجمع البيان: ١٠/ ٤٠٤، والتبيان: ١٠/ ٢١٠، والفصول المهمّة: ٢٣٢، والفصول المائة في حياة أبي الأئمة عليّ عليه السلام: ٥٢٧.
(٣) ينظر: أسرار العربية: ٤٧.

يربطها (واو الجماعة) الذي يعود على (عباد اللَّه) المتقدِّم ذكرهم، وأنَّ الجار والمجرور ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿يُطْعِمُونَ﴾، والمعنى (كائنين على حبِّه)؛ أي بمعنى على الرغم من حبِّهم للطعام، أو يكون التقدير: يطعمون الطعام مع حبِّهم واشتهائهم له، وهنا يكون معنى (على) بمعنى (مع) التي تفيد المصاحبة؛ لكن يمكن أن يعود الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ على الطعام بوصفه محبوبًا للفاقة والحاجة، وقد يعود على لفظ الجلالة ابتغاءً لوجهه ومرضاته[1]، ومن العلماء من رجَّح الدَّلالة الأولى؛ لما فيها المدح والإيثار على النفس، ويعلِّل ذلك أنَّ الدَّلالة الثانية يفعلها أكثر الأغنياء[2]، وهناك دليل آخر على ترجيح الرأي الأوَّل مفاده أنَّ سياق الآية ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ استغنى عن عود الضمير على لفظ الجلالة، فضلًا عن أنَّ شبه الجملة ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أفادت المبالغة في معنى حاجتهم للطعام، فوجود الهاء في ﴿حُبِّهِ﴾ كناية عن الطعام مع اشتهائه[3]، وهناك نكتة أخرى في الآيات فلفظ ﴿يُطْعِمُونَ﴾ لها علاقة بلفظة ﴿الْأَبْرَارَ﴾ بوصفهم هم الذين قاموا بفعل الإطعام، وهذه اللفظة لها دلالات عدَّة في القرآن الكريم، منها:

الدَّلالة الأولى: إنَّها تدُّل على سموِّ المنزلة ورفعة المقام العالي، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[4]، ومَن أفضل مقامًا ومنزلة ورفعة من أهل بيت النبوَّة عليهم السلام.

الدَّلالة الثانية: إنَّها تدلُّ على التمنِّي، ولا سيَّما المؤمنين الذين يتمنَّون اللحاق

(١) ينظر: فتح القدير: ٢/ ٩٢٣، ومغني اللبيب: ١/ ١٦٣، والجني الداني: ٤٧٦، والتحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٥٦، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ٣٢٠ـ ٣٢٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٦/ ٤٦٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٥١٩ ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٧٨، والميزان: ٢٠/ ١٣٨، والأمثل: ١٩/ ١٥٦.

(٤) المطفِّفين: ١٨.

بركب أهل البيت عليهم السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[١]، هذه الآيات وغيرها تشتمل على دعاء المؤمنين الذين نظروا إلى أهل البيت عليهم السلام فجعلوهم أسوةً لهم ومثالًا يقتدون بهم؛ بل جعلوا من أنفسهم تابعين متأسِّين بهم، فلفظة ﴿الْأَبْرَارَ﴾ تشتمل على كون أهل البيت عليهم السلام هم الشاهدون الذين يشهدون على الحقِّ، وهم الصادقون؛ لأنَّ لفظة ﴿الْأَبْرَارَ﴾ فيها دلالة الصدق[٢]، وقد نالوا هذه المزيَّة والصفة الحميدة؛ لأنَّهم أطعموا ممَّا يحبون، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٣]، وهذا البرُّ جاء متنوعًا، فمرةً بإطعام المسكين، وتارةً بإطعام اليتيم، وأخرى بإطعام الأسير، ممَّا أدَّى ذلك إلى ذكر الثناء عليهم في القرآن الكريم .

ولأهميَّة الإنفاق وقيمته فقد مدحه القرآن الكريم وأثنى على المنفقين، سواء كان الإنفاق في السّرِّ أم في العلن؛ إذ قال جلّ في علاه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤]، فقد أكَّدت الروايات على أنَّ هذه الآية قد نزلت بحقِّ الإمام عليّ عليه السلام حينما تصدَّق بأربعة دراهم من الفضَّة وبأوقات مختلفة؛ إذ تصدّق بدرهم في الليل، وآخر في النهار، ثمّ بدرهم في السِّر وآخر في العلانيَّة[٥]، فمدح اللَّه تعالى هذا التَّصدُّق وسمَّى كلَّ درهم مالًا، وهذه عناية ربَّانيَّة من الخالق بأمير الموحِّدين ويعسوب الدِّين؛ إذ جعل (سبحانه) من تصدُّقه سببًا لنزول الآية المباركة؛ لأنَّ

(١) آل عمران: ١٣٩.
(٢) ينظر: المصباح المنير: ٢٨.
(٣) آل عمران: ٩٢.
(٤) البقرة: ٢٧٤.
(٥) ينظر: تاريخ دمشق: ٢/ ٤١٣، المناقب: ٢٨٠، ينابيع المودَّة: ٩٢، الفصول المهمَّة: ١٢٣، فرائد السمطين: ١/ ٣٥٦، نور الثقلين: ١/ ٢٩٠، كشف الغمَّة: ١/ ٢٣٥، بحار الأنوار: ٤١/ ٢٥، تفسير العيَّاشي: ١/ ١٧١، وغيرها.

هذا الفعل مقرون بالعمل الصَّالح، لذا قال النبيُّ صلى الله عليه وآله لعليٍّ عليه السلام: ((ما حملك على هذا؟ قال: حملني أن أستوجب عفو اللَّه الذي وعدني، فقال له رسول اللَّه: ألا إنَّ ذلك لك))[1]، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية التي تدلُّ على فضله عليه السلام في السَّخاء الذي يُعدُّ من أشرف القيم الخلقيَّة الحميدة، وأنَّ كرمه قد قبل بأحسن قبول، وصار له أمنا يوم القيامة، ولا ينال هذه المرتبة والمنزلة عند اللَّه تعالى إلَّا الأنبياء والمرسلون والأوصياء الأولياء الأصفياء .

ونلحظ أنَّ الآية قد تصدَّرها اسم الموصول (الَّذين)، وهو اسم يفيد الإبهام، ولا يتحدَّد معناه إلَّا بجملة الصلة أو ما يقع في حيزه من الألفاظ، وأن يكون معلومًا لدى المخاطب لإتمام فائدته، فضلًا عن كونه يشتمل على (الـ) العهديَّة[2]، التي أفادت معرفة المنفِق، ووثَّقت العمل وأثبتته لصاحبه الذي اتَّصف به، ثمَّ أنَّ السياق القرآنيَّ استعمل المصدرين (سرًّا، وعلانيَّة) اللذين يدلَّان على كمال صاحب الحال، فهما عند سيبويه مؤوَّلة بالمشتق والتقدير: (مسرِّين ومعلنين)[3]، فغياب الذات الملازم لصيغة اسم الفاعل يعبِّر عن غياب الذات عند الإنفاق حتَّى أصبح سجيَّة عند أئمة أهل البيت عليهم السلام في كلِّ وقت وحال، وهذا ما يوحي بإخلاص النيَّة في قضاء حوائج المحتاجين، ولذا فإنَّ التعبير بالحال قد تضمَّن المبالغة في الإنفاق[4]، فكافأهم اللَّه تعالى بالأجر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ فأدخل التعبير القرآنيّ (فاء الجزاء أو الفاء الزائدة) على الخبر، لتُبيِّن علَّة الأجر الذي كان بسبب الإنفاق، ولو لم تكن (الفاء) موجودة لكان الأجر بسبب الإنفاق، أو يحتمل سببًا آخر، فإذا أريد من الصِّلة أن تكون سببًا لحصول الخبر للموصول

(١) شواهد التنزيل: ١/ ١٠٩.
(٢) ينظر شرح المفصل: ٣/ ١٥٠.
(٣) ينظر: همع الهوامع: ٢/ ٢٢٧، روح المعاني: ٣/ ٧٨.
(٤) ينظر: الآيات المتعلقة بالإمام علي عليه السلام: ٣٨٦ وما بعدها.

تضمَّنت معنى الشرط، وأدخل (الفاء) في الجزاء[١]، على أنَّ الآية لم تتضمَّن أداة من أدوات الشرط؛ لكن فيها معنى الشرط، ممَّا يمكن لنا القول إنَّ الإنفاق لم يكن معلَّقًا على الشرط وإنَّما هو واقع، يعزِّز هذا المعنى الفعل المضارع ﴿يُنْفِقُونَ﴾ الذي يشترك فيه الحاضر والمستقبل[٢]، وكأنَّ التعبير القرآنيَّ يلفت عناية السامع والقارئ لأهميَّة الإنفاق والترغيب فيه، وبما أنَّ المنفقين هم المثال الذي يُحتذى بهم نفى عنهم الخوف والحزن، ورفع لفظة ﴿خَوْفٌ﴾ إشارة إلى الجنس لا المفرد من باب الترغيب وحُسن الظَّنِّ باللَّه تعالى، وإنَّ من أنفق لا يخشى الفقر، فاللَّه تعالى سيخلف عليه، وهناك نكتة أخرى في التعبير القرآنيِّ لهذه الآية؛ إذ احتوت على ضمير الفصل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الذي أفاد نفي الحزن على من ينفق أمواله لوجه اللَّه تعالى وعلى سبيل القصر، لذا قدَّم الضمير (هم) للدَّلالة على أنَّ الذي يحزن هو غيرهم، ولو قيل: ((لا خوف عليهم ولا يحزن لهم لما أفادت التخصيص))[٣] ومن يفطن إلى لفظة ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ في الآيات القرآنيَّة يجدها تدلُّ على صفاة عدَّة اتَّصف بها المؤمنون[٤].

١- دلالة الإنفاق تكون في سبيل اللَّه تعالى ومرضاته .

٢- إنفاق لا يتَّبعه أذى يمثِّل محبَّة اللَّه تعالى، فيه إحسان وإيمان باللَّه واليوم الآخر، وجزاؤه عدم الخوف أو الحزن يوم القيامة، ولا شكَّ ولا ريب أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم الأسوة الحسنة في الإنفاق في سبيل مرضاة اللَّه، فهم يهتدون بهديه وينتهجون سبيله .

(١) الجنى الداني: ٧٠، الكلِّيَّات: القسم الخامس: ١٩٣.
(٢) ينظر: المفصَّل في صنعة الإعراب: ٢٤٤، الآيات المتعلِّقة بالإمام عليّ عليه السلام: ٣٩٠.
(٣) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني: ١٦٦.
(٤) البقرة: ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، النساء، ٣٨، آل عمران: ١٣٤ وغيرها.

المطلب الثامن: أهل البيت عليهم السلام هم الصِّرَاط المُستقيم والسَّبيل في القرآن

الصراط: هو الطريق، أو جسر ممدود على متن جهنَّم[1]، وهو أمر حتميٌّ في القيامة يؤدِّي بالمشركين إلى نار جهنَّم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾[2]، ولا يمكن لأيِّ شخص أن ينجو من هذا الطريق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3]، فالآية تخاطب المحسن والمسيء، غير أنَّ النتيجة مختلفة تمامًا بينهما، فالّذي أحسن واتَّقى كان من الناجين، ومن أخطأ وأساء كان من الهالكين .

وقد وردت روايات عدَّة تبيِّن أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام هما الصراط المستقيم في الدّنيا، فقد ذكر أهل التفسير أنَّ الرَّسول هو الصِّراط[4]، وبما أنَّ عليًّا هو نفس الرّسول بشهادة آية المباهلة فإنَّه المقصود في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5] نلحظ أنَّ التعبير القرآنيَّ استعمل في بداية الآية (الفاء) الفصيحة؛ لأنَّها تعيِّن دلالة المعنى المراد، أي: إنْ علمت هذا، وتأكَّدت منه ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾، ثمَّ جاءت جملة ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تعليليَّة لفعل الأمر[6]، فعليٌّ هو المعنيُّ بهذه الآية وغيرها، ومن خصائصه بحسب ما ذكرها الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) أنَّه أوَّل من يدخل الجنَّة في هذه الأمَّة، قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: ((يا عليّ إنّك أوَّل من يقرع باب الجنَّة فتدخلها بغير حساب بعدي))[7]، وعن ابن عبَّاس قال: ((كان رسول اللَّه يحكم وعليّ عليه السلام

(١) ينظر: معجم القاموس المحيط: ٧٣٥.
(٢) النِّساء: ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٣) مريم: ٧١ ـ ٧٢.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٢٤.
(٥) الزخرف: ٤٣.
(٦) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٧/ ٨٩.
(٧) الإمام عليّ عليه السلام رحمة وذكرى: ٢٣٣.

بين يديه مقابلة، ورجل عن يمينه ورجل عن شماله، فقال: اليمين والشِّمال مضلة والطريق المستوي الجادة، ثمَّ أشار بيده، وإنَّ هذا صراط عليٍّ مستقيم فاتَّبعوه))[١]، وقال ﷺ يوم الغدير: ((معاشر النَّاس أنا صراط اللَّه المستقيم الذي أمركم باتِّباعه، ثمَّ عليّ من بعدي، ثمَّ ولدي من صُلبه، أئمَّة يهدون إلى الحقِّ وبه يعدلون، ثمَّ قرأ سورة الحمد، وقال: فيَّ نزلت وفيهم نزلت))[٢]، وعن عليّ عليه السلام قال: ((أنا صراط اللَّه المستقيم وعروته الوثقى))[٣]، ولا بدَّ لكلِّ قومٍ من هادٍ يهديهم إلى الصراط القويم، ولا شكَّ ولاريب أنَّ الإمام عليًّا وأئمةَ أهل البيت عليهم السلام هم الهداة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٤]، عن الحافظ أبي نعيم بإسناده عن ابن عبَّاس قال في شأن هذه الآية: ((قال رسول اللَّه ﷺ: أنا المنذر وعليّ الهاديّ، يا عليّ بك يهتدي المهتدون))[٥]، فالقرآن الكريم والرسول الأعظم شبَّها عليًّا والأئمَّة من ولده بالصِّراط المستقيم، فكأنَّ الصِّراط في الدُّنيا معرفة حجج اللَّه تعالى، قال الإمام الحسن عليه السلام في علمهم: ((ما يعلم المخزون المكنون المجزوم المكتوم الذي لم يطَّلع عليه ملك مقرب، ولا نبيٌّ مرسل غير محمَّد وذريَّته))[٦] فمَن أطاعهم حصل على جوازه وسار على جسر جهنَّم مطمئنًّا، فقد قال الرسول ﷺ: ((لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلَّا يدخلها، تكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، كما كانت على إبراهيم حتَّى أنَّ للنار ضجيجًا - أو قال: لجهنَّم ضجيجًا من بردها - ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾))[٧]، وهناك حديث آخر له قال ﷺ: ((واعلموا أنَّ أمامكم طريقًا مهولًا، وسفرًا بعيدًا، وممرًّكم

(١) المناقب: ٣/ ٧٤، البحار: ٥/ ٩٩.
(٢) الاحتجاج: ٦٢.
(٣) سفينة البحار: ٥/ ٩٨.
(٤) الرعد: ٧.
(٥) تفسير الطبري: ١٣/ ١٠٨، المعجم الصغير ١/ ١٦٢، المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٢٩، كنز العمال: ١/ ٢٥١ وغيرها.
(٦) البحار: ٤٣/ ٣٥٢، بلاغة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام: ١٩٣.
(٧) مجمع البيان: ٦/ ٥٢٦.

على الصراط، ولا بدَّ للمسافر من زاد، فمن لم يتزوَّد وسافر عطب وهلك، وخير الزَّاد التقوى))[1] .ومن تأمَّل في الرِّوايات يستنتج أنَّ الصراط صراطان هما:

أوَّلا: صراط في الدُّنيا وهو الإمام عليٌّ عليه السلام وأئمةُ أهل البيت عليهم السلام .

ثانيًا: صراط الآخرة: وهو جسر جهنَّم.

ولربَّما يسأل سائل ما علاقة صراط الدُّنيا بصراط الآخرة ؟

نقول: مَن عرف صراط الدُّنيا وأطاع عليًّا وأهل بيت النبوَّة بوصفهم الأئمَّة التي فرضت طاعتهم جاز على صراط الآخرة، ومن لم يعرفهم زلَّت قدمُه عن الصِّراط في الآخرة، فتردَّى في نار جهنَّم[2]، وهذه الدَّلالات نوَّه عنها الإمام عليُّ بن موسى الرضا عليه السلام؛ إذ قال: ((إنَّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إنَّ الإمامة خلافة اللَّه وخلافة رسوله صلى الله عليه وآله، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام))[3]

وهناك رأي للشيخ المفيد رحمه الله (ت: ٤١٣ هـ) أنَّ الصِّراط هو الطريق، ومن هنا سُمِّي الدّين صراطًا؛ لأنَّه الطريق الذي يوصل إلى الجنَّة، ولذا سُمِّي الولاء للإمام عليّ عليه السلام وللأئمَّة من ذرِّيته صراطًا؛ إذ قال عليه السلام: ((أنا صراط اللَّه المستقيم، وعروته الوثقى التي لا انفصام لها))[4]، وقد ذكر المفسِّرون والمؤرِّخون أنَّ الصراط الّذي في الجنَّة يقف على يمينه النبيُّ محمَّد صلى الله عليه وآله وعن شماله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فيأتي النِّداء لهما من قبل اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[5]، فلا يعبر على الصِّراط ما لم تكن له براءة من عليِّ بن أبي طالب عليه السلام، وإلَّا أكبَّه اللَّه على منخريه في النَّار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[6]،

(١) أمالي الصدوق: المجلس السابع والأربعون: ٩
(٢) ينظر: الغدير: ٢/ ٣١١، البرهان: ١/ ٥٠ ، نور الثقلين: ١/ ٢١
(٣) تحف العقول عن آل الرَّسول: ٤٣٨
(٤) بحار الأنوار: ٨/ ٧٠.
(٥) ق: ٢٤.
(٦) الصافات: ٢٤.

وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[١] فالمراد بالصِّراط في هذه الآيات ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام عند بعض العلماء والمفسِّرين[٢]، فقد قال عليه السلام بحقّ سورة الفاتحة: ((لو أردت أن أملي وِقر بعير على الفاتحة لفعلت))[٣].

وهناك أخبار مؤكَّدة أنَّ عليًّا وسائر أئمَّة أهل البيت عليهم السلام هم الصراط الأقوم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[٤]، ومن المفسِّرين من فسَّر الصِّراط بالنبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين[٥]، ونحن إذا ما نظرنا إلى دلالات الصِّراط بحسب هذا التَّفسير فإنَّنا نجدها منطبقةً على أهل البيت عليهم السلام؛ إذ روى الأصبغ بن نباته عن عليٍّ عليه السلام في قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[٦]، قال عليه السلام: ((الصراط ولا يتنا أهل البيت))[٧]، وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام، ((نحن أبواب اللَّه، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن مواضع سرّه))[٨]، وروى صاحب فرائد السمطين حديثًا عن الإمام الصادق عليه السلام قال فيه: ((نحن خيرة اللَّه، ونحن الطريق الواضح، والصراط المستقيم إلى اللَّه))[٩]، فأهل البيت عليهم السلام هم الطريق المبيِّن وأمناء اللَّه ودعائم الإسلام، وأركان الإيمان، وحجج اللَّه على خلقه، وهم مصابيح الدُّجى ومنار الهدى.

ولا بدَّ من طرح السؤال الآتي، هل الصراط شيء مادِّيّ أو معنويّ؟ من خلال

(١) الفاتحة: ٧.
(٢) تفسير القرآن: ٢/ ٢٨، غاية المرام: ١٦٥، المناقب: ٣/ ٧٤.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٦٥.
(٤) الأنعام: ١٥٣.
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٢٤.
(٦) المؤمنون: ٧٤.
(٧) فرائد السمطين: ٢/ ٣١٢، الفصول المائة في حياة أبي الأئمَّة عليّ عليه السلام: ٥٥٠.
(٨) البرهان: ١/ ٥١، نور الثقلين: ١/ ٢٢.
(٩) فرائد السمطين: ٢/ ٣١٣

الوقوف على بعض التَّفاسير المعتبرة أنَّ المراد من الصراط ليس الشيء المادِّي، بتعبيرٍ آخر ليس المقصود الطريق أو الجادة، وإنَّما هو شيء معنويٌّ، فإذا كان المراد من الصراط الإسلام هذا يعني الانتقال من الضلالة إلى الهدى، وإذا كان المراد منه النبيّ صلى الله عليه وآله أو الإمام عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، فهذا يعني أنَّ الإنسان الكامل هو الطريق من النقص إلى الكمال، فنحن هنا في سلّم الصعود من الدرجة السُّفلى إلى الدرجة العليا، بوصف أنَّ الصراط قد تدرَّج من النقص إلى الكمال، ومن الضلالة إلى الهداية(١).

ومن نافلة القول: إنَّ أهل البيت عليهم السلام هم السبيل إلى اللَّه تعالى، وقناطر النجاة من النَّار، فهناك أخبار واردة أنَّ عليًّا عليه السلام هو السبيل المذكور في القرآن، من ذلك ذكر القمِّيّ (ت: ٣٠٧هـ) في تفسيره أنَّ الإمام الباقر عليه السلام قد فسَّر قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾(٢)، بقوله: إنَّ ((السبيل ولاية عليٍّ عليه السلام))(٣)، أمَّا الإمام جعفر الصادق عليه السلام فقد فسَّر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾(٤)، يقول: ((يا ليتني اتَّخذت مع الرسول صلى الله عليه وآله عليًّا وليًّا))(٥) وعن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ بولاية وصيِّك، ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٦)، والسبيل هو الوصيُّ(٧)، فكفروا بولايته وجحدوا إمامته، وأزاحوا أهل البيت عليهم السلام عن حقِّهم الذي فرضه اللَّه سبحانه على عباده بخلافة أمَّة جدِّهم الخاتم صلى الله عليه وآله.

(١) ينظر: تفسير القرآن: ٢/ ٢٨، الفصول المائة في حياة أبي الأئمَّة علي عليه السلام: ١/ ٥٤٩.
(٢) الإسراء: ٤٨.
(٣) تفسير القميّ: ٢/ ١١١، وبحار الأنوار ٣٥/ ٣٦٢.
(٤) الفرقان: ٢٧.
(٥) تفسير القميّ: ٢/ ١١٢، وبحار الأنوار: ٣٥/ ٣٦٣.
(٦) المنافقون: ١ـ ٣.
(٧) ينظر: بحار الأنوار: ٣٥/ ٣٦٦.

المطلب التاسع: منزلة الإمام علي عليه السلام في آية التبليغ:

إذا كان الإمام عليٌّ عليه السلام صنو الرّسالة حين نزولها، فهو مسك ختامِها في حجَّة الوداع؛ إذ نزل الوحيُّ في موضع (غدير خمٍّ) بتنصيبه خليفةً للمسلمين من بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله؛ حيث أنزل سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١] فقد أشار طائفة من المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآية متعلقةٌ بعليٍّ عليه السلام[٢]، فقام النبيُّ خطيبًا فأثنى على اللَّه سبحانه، ثمَّ وعظ فأبلغ، ثم بعد ذلك نعى نفسه، وأخذ بعضد عليٍّ، ثم خرج إلى النَّاس فقال: ((إنِّي مخلِّف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا: كتاب اللَّه، وعترتي أهل بيتي، فإنَّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض))[٣] ثمَّ نادى بأعلى صوته: ((ألست أولى بكم منكم بأنفسكم))[٤]، قالوا: اللَّهم بلى، قال: ((فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللَّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله))[٥] فأخذ المسلمون يباركون لعليٍّ عليه السلام بالإمرة، ثمَّ لم يفترقوا حتى نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٦] فقد قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: إنَّها تخصُّ أمر الإمامة؛ لأنَّها من كمال الدِّين، وإنَّ النبيَّ أقام لهم عليًّا عليه السلام علمًا وإمامًا، فصارت في ذرِّيته الأصفياء الذين آتاهم اللَّه تعالى العلم والإيمان وذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) ينظر: تفسير أبي حاتم: ٣/ ٢٣٧، وأسباب النزول: ١١٢، ومفاتيح الغيب: ١٢/ ٥٣، وروح المعاني: ٦/ ٢٨٢.
(٣ الإحقاق: ٢/ ٤٢٣، وبنظر: الغدير: ١/ ١٥٢.
(٤ الإحقاق: ٢/ ٤٢٣، وبنظر: الغدير: ١/ ١٥٢.
(٥) تفسير العياشي: ١/ ٣٦٣، والكشف والبيان: ٤/ ٩٢، وغاية المرام: ٧٩، وسنن الترمذي: ٥/ ٥٩١، وشواهد التنزيل: ١/ ١٨٧، والسيرة الحلبية: ٣/ ٢٧٤، والمنار: ٤٦٣، والدّر المنثور: ٢/ ٢٩٨، وغيرها من المصادر، وقد ورد الحديث بألفاظ أخر لا تغيِّر المعنى.
(٦) المائدة: ٣.

كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، على رسم ما جرى وما فرضه اللَّه تعالى في ولده إلى يوم القيامة، إذ لا نبيَّ بعد محمَّد صلى الله عليه وآله[٢].

ولو أردنا أنْ ننظر بعين البصيرة في آية التبليغ لرأيناها قد بدأت بالنِّداء للرسول وقد جيء بـ(أي) للتعظيم فضلًا عن أنَّ هكذا نداء ينبئ عن خطر خطب المنادى له[٣]، ثمَّ أتى بفعل الأمر ﴿بَلِّغْ﴾ الذي يدلُّ على الوصول والنهاية والكفاية، ثم جاء بعد هذا الفعل الاسم الموصول (ما) الذي يفيد الحشو والوصف حاله حال (من) الموصولة، وبذلك تفتقر في إتمام معناها إلى جملة الصلة فتوصف أو تعرف بها، وقد حدَّد معناها بجملة صلتها ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[٤]، بينما يرى الرضيُّ أنَّ (ما) معرفة بحسب الوضع بوصفها عهديَّة صلة الموصول عند المخاطب[٥]، فكون (ما) معرفة أفادت أنَّ حكم التبليغ معروفٌ مسبقًا ممَّا استوجب تطمين الرّسول بأن يبلِّغه إلى النَّاس، وسوف يعصمه اللَّه تعالى من كيد الظالمين ويكون في مأمن من المحذور، فإن لم يفعل فإنَّه لم يبلِّغ الرِّسالة، ويؤيِّد هذا الرأي ابن فارس؛ إذ جعل ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ أمرًا خاصًّا، قال: ((وقد يكون الكلامان متَّصلين، وذلك قولك لمن أعطى زيدا درهما: اعط عمرا، فإن لم تفعل فما أعطيت، تريد: إن لم تعط عمرا لم تعط زيدا أيضا، وذلك غير محسوب لك، ومثله في كتاب اللَّه جلَّ ثناؤه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فهذا خاص، يريد: هذا الأمر المجدَّد بلِّغه، وإن لم تفعل لم تبلغ رسالته، يريد جميعا أرسلت به))[٦]، وهو رأي استحسنه الزركشي[٧].

---

(١) الروم: ٥٦.
(٢) ينظر: تحف العقول عن آل الرّسول: ٤٣٧ ـ ٤٣٨، وفي الكافي ((فهي في ولد عليّ عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة)) الكافي: ١/ ٢٠٠.
(٣) ينظر: التفسير الكبير: ٢٥/ ١٨٩، ومعاني النحو: ٤/ ٢٨٣.
(٤) ينظر: العين: ٤/ ٣٢١، والكتاب: ٢/ ١٠٦، والمحكم والمحيط الأعظم: ٥/ ٥٣٥.
(٥) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٣/ ٨، والآيات المتعلقة بالإمام علي عليه السلام: ٣٠٥.
(٦) الصاحبي في فقه اللغة: ٣٤٤.
(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢٤٣.

ونلحظ أنَّ جملة ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ طلبية؛ لأنَّها منسبكة مع فعل الأمر ﴿بَلِّغْ﴾ ونستبعد أن تكون (ما) للعموم، وإنَّما هي لأمر خاص هو تبليغ ما أنزل إليه الخاص بإكمال الرّسالة؛ لأنَّ النفي بـ (لم) يدلُّ على عدم التأبيد لجواز انقطاعه، وهو ما يعني بأنَّ الرسول سيبلغ واللَّه تعالى يعصمه من النّاس[١]، وفي هذه الآية سرٌّ منقطع النظير؛ إذ اتحد الشّرط والجواب معا، وذلك أنَّه لا بدَّ أنْ يكون الجزاء مغايرًا للشرط حتى تحصل الفائدة، فجعل الجزاء عين الشَّرط ليتَّضح مدى الاهتمام بالتبليغ[٢]، وتعدُّ بيعة الغدير أوَّل قضيَّة تراثيَّة وتاريخيَّة وعقديَّة يتسلَّح بها كلُّ من آمن بولاية عليٍّ عليه السلام هذا من جانب، ومن جانب آخر إنَّ البقيَّة التي لم تؤمن بولايته لم ترفضها رفضًا كليًّا، بل إنَّ هناك كثيرًا من المفكِّرين والفقهاء لا ينكرون هذه البيعة، فضلًا عن الغالبية العظمى من المفسِّرين قد أجمعوا على أنَّ الآية نزلت بعليٍّ عليه السلام، فعندما تمَّ تنصيبه خليفة ووليًّا في حجَّة الوداع وفي مكان غدير خمٍّ، هبط جبرائيل عليه السلام على النبيِّ بالآية الكريمة الآتية، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣]، وتسمى هذه الآية بآية الكمال، أي كمال الدِّين[٤].

وخلاصة القول: لو لم يكن حديث الغدير واقعًا فعلًا، وأنَّه بأمر من اللَّه سبحانه وتعالى لما احتجَّ أمير المؤمنين عليه السلام به في الشورى على الحاضرين في جملة ما عدَّده من فضائله ومناقبه؛ إذ قال: ((أنشدكم اللَّه، هل فيكم أحد أخذ رسول اللَّه بيده فقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللَّهم وال من والاه، وعاد من عاداه ؟ فقال القوم: اللَّهم لا))[٥] وكان أهل البيت عليهم السلام يؤكِّدون على

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٢١٧، وأوضح المسالك على ألفية ابن مالك: ٤/ ١٨٥، والآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام: ٣٠٧ وما بعدها.
(٢) ينظر:إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٢/ ٢٦٧.
(٣) المائدة: ٣.
(٤) ينظر: الإمام عليّ عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر: ٦٣٦ وما بعدها.
(٥) الشافي في الإمامة: ٢/ ٢٦١.

هذا الحديث وعلى معناه، فقد سُئل الإمام عليٌّ بن الحسين عليهما السلام عن معنى قول النبيّ: ((من كنت مولاه فعليّ مولاه قال: أخبرهم أنَّه الإمام بعده))[1] فهذه قرائن وشواهد لا لبس فيها على ولاية الإمام عليٍّ عليه السلام، وأنَّ الآية قد نزلت فيه، وكأنَّ الرسول في خطبة حجَّة الوداع قد أوضح أنَّ الإسلام بني على التَّوحيد، والنبوَّة، والولاية.

(١) أمالي الصدوق المجلس السادس والعشرون: ح٢.

الخاتمة:

١- إنَّ منزلة أهل البيت عليهم السلام حقيقة ثابتة لا لبس فيها في القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة الشريفة، لكنْ بعض العلماء والفقهاء والمفسِّرين وهم قلَّة أوَّلوا هذه الحقيقة بتأويلات عدَّة تخضع للعقيدة التي يؤمنون بها، أو لميل حزب ما أو بحسب الظرف السياسي.

٢- يشكِّل أهل البيت عليهم السلام ظاهرة عالميَّة على صعيد القوميَّات المختلفة والدِّيانات المتعددة ـ ولا سيما الإمام عليّ عليه السلام ـ لما يتمتعون به من صفات روحانيَّة وإنسانيَّة تفوق طاقة البشر، فضلا عن القيم الإيمانيَّة والخلقيَّة سواء أكانت الماديَّة منها أم المعنويَّة، ولا غرابة في ذلك؛ لأنَّهم صنو الرسالة، ومهبط الوحي، ومختلف الملائكة، تربُّوا في حجر النبيِّ محمَّد صلى الله عليه وآله، ونهلوا من ينابيع الإسلام، فهم الأقرب روحيًّا وجسديًّا للنبيِّ، لذا تشرَّفوا بحمل الرِّسالة.

٣- إنَّ القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة الشريفة قد صدحا بأفضليتهم؛ لأنَّهم منبع الفضائل والأكمل على وجه الأرض، فبعدما أطاعوا اللَّه تعالى في عالم الذَّر وهم في صلب آدم عليه السلام، اقتضت الإرادة الإلهيَّة بتطهيرهم من كلِّ ذنب ورجس، ولم يشاركهم بهذه الأفضليَّة أحد من الأمَّة.

٤- إنَّ القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة قد حدَّدا مفهوم (القربى) بأصحاب الكساء فضلا عن بقيَّة أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، بوصفهم الأقرب روحيًّا وجسديًّا للنبيِّ محمّد صلى الله عليه وآله بوصفهم عليهم السلام الامتداد الطبيعي له، فهم عليهم السلام الصفوة من الخلق لذا بَاهَلَ بهم وفد نجران، وجعل أجر الرسالة مودَّتهم المشروطة بالطاعة، فهم قادة البلاد وساسة العباد في أمور الدِّين والدنيا فضلا عن الآخرة، ومصداق ذلك آية الولاية.

٥- إنَّ أهل البيت عليهم السلام هم الأسوة الحسنة والمثال الذي يحتذى به في مجالات الحياة كافَّة، لذا أثنى اللَّه تعالى، عليهم وقدَّر لهم مواقفهم، فهم شروا أنفسهم للإسلام، وآثروا غيرهم على أنفسهم فاستحقوا لقب (الأبرار) في مواضع عدَّة في القرن الكريم، ومنها آيات الإثار التي نزلت بحقِّهم؛ لأنَّهم الأكمل، وآذانًا بأنَّهم الأخيار، وبرهانًا على أنَّهم صفوة الصَّفوة، والحجَّة على أنَّهم خيرة الخيرة.

٦- كما بدأت رسالة السَّماء بهم، كانوا مسك الختام لها؛ إذ جاءت آية (التَّبليغ) لتعلنَ عن إمامتِهم التي جعلها اللَّه تعالى إكمالًا لدينه، وإتمامًا لنعمته، وركنًا من أركان الإسلام الذي بُنِي على التوحيد والنبوَّة والإمامة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدّين السيوطي (ت ٩٨١هـ)، تحقيق: د مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثي، دمشق.

٢- الاحتجاج، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٥٨هـ)، مؤسسة الأعلمي، (د. ط)،(د. ت).

٣- إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، القاضي نور اللَّه بن شرف الدّين (ت ١٠١٩هـ)، تحقيق: آية اللَّه العظمى النجفيّ المرعشي، مكتبة آية اللَّه المرعشي، قم المقدَّسة، (د. ط)،(د. ت).

٤- الاختصاص، لأبي عبد اللَّه محمّد بن نعمان البكري البغدادي (الشيخ المفيد، ت ٤١٣هـ)، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميَّة، قم.

٥- أسباب النّزول، الشيخ أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: د السّيد الحميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ط)،(د.ت).

٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر بن يوسف بن عبداللَّه بن محمّد بن عبداللَّه، ابن عبد البّر، المطبوع بهامش الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر(ت: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي (ت: ١٣٩٩ هـ)، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، دار الجيل، بيروت – لبنان ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠.

٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير الجزري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨- أسرار البلاغة، تأليف أبي بكر عبدا لقاهر الجرجاني (١٠٧٨هـ)، إعداد خليل الشيخ، أبو ظبي، دار الكتب الوطنية، ط١، ٢٠١٥م.

٩- أسرار البيان في التعبير القرآني، د فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

١٠- الإسـلام الشّيعي، يان ريشار، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١١- الإصابة في تمييز الصحابة، لشهاب الدّين أبي الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ) دار الجيل، بيروت.

١٢- أصول الكافي، لأبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨هـ) قم ـ إيران.

١٣- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدّين الدّرويش، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط١١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

١٤- أمالي الصّدوق، لأبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسن بن موسى بن بابويه القمّي (٣٨١هـ)، طبع في طهران.

١٥- الإمام علي صوت العدالة صوت العدالة الإنسانية، جورج قرداح، اختصره وحقّقه حسن حميد السنيد، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٦- الإمام علي عليه السلام رحمة وذكرى رحمة وذكرى، تأليف العلاّمة الدكتور عبد الرسول الغفاري، أستاذ الأدب العربي بجامعة كاشان، دار القارئ، ط١، ١٤٢٦ـ ٢٠٠٥م.

١٧- الإمام عليّ في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، العتبة العلوية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، ط٤، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢ م.

١٨- الأمثل في تفسير كتاب اللَّه المنزل،تأليف آية اللَّه العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ١٤١٠هـ .

١٩- أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، تصنيف جمال الدّين عبداللَّه بن يوسف بن أحمد بن عبداللَّه بن هشام الأنصاري، (ت ٧٦١هـ)، قدَّم له ووضع هوامشه د إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٢٠- الآيات المتعلقة بالإمام عليّ عليه السلام دراسة في ضوء المعنى النحوي الدّلالي، تأليف رضي فاهم عيدان، مؤسسة علوم نهج البلاغة، العتبة الحسينية المقدسة، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

٢١- بحار الأنوار الجامعة لدر أخبار الأئمَّة الأطهار، لمحمَّد بن باقر بن محمَّد تقي المجلسي (ت: ١١١١هـ)، دار الكتب الإسلامية الآخوندي، طهران.

٢٢- البحر المحيط، أبو حيَّان محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: ماهر حبّوش، الرسالة العالمية، بيروت ـ لبنان.

٢٣- البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام بدر الدّين أبي عبداللَّه محمّد بن بهادر بن عبداللَّه الزركشي (٧٩٤هـ)، قدّم له وعلقّ على عليه وخرّج أحاديثه، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ٢٠١١م.

٢٤- بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، خطب، رسائل، كلمات، جعفر عبّاس الحائري، الشيخ محسن شراره العاملي، دار الصفوة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٥- بلاغة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، خطب ـ رسائل ـ كلمات، مصطفى محسن الموسوي، الشيخ محسن شرارة العاملي، دار الصفوة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٦- تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف السّيد محمّد مرتضى بن محمّد الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، اعتنى به ووضع حواشيه، د عبدالمنعم خليل إبراهيم والأستاذ كريم سيّد محمّد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٢٧- تاريخ أبي الفداء، عماد الدّين إسماعيل بن علي بن محمود بم محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م.

٢٨- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار التراث ـ بيروت.

٢٩- تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب أبي جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي (٢٨٤هـ)، دار صادر ـ بيروت.

٣٠- تاريخ دمشق، لأبي القاسم عليّ بن الحسن بن هبة اللَّه الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات - بيروت.

٣١- التّبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، (٦١٦هـ)، تحقيق علي البابي البجّاوي، عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٦م.

٣٢- التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٩٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٣- التحرير والتنوير، محمد بن طاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التّونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدّار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٣٤- تحف العقول هن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني (٣٨١هـ) مطبوعات رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية.

٣٥- التّسهيل لعلوم التّنزيل، أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزّي الكلبي الأندلسي الغرناطي، تحقيق: د عليّ بن أحمد بن حمد الصالحي، دار طيبة الخضراء، السعودية.

٣٦- تفسير أبي حاتم، تأليف عبدالرحمن بن أبي حاتم الرّازي(ت ٣٢٧هـ)، تحقيق: د أحمد بن عبداللّه العمّاري الزهرّاني، دار الجوزي، الدّمام ـ السعودية.

٣٧- تفسير الدّر المنثور: الشيخ جلال الدّين عبدالرحمن السيوطي، بهامشه كتاب تنوير المقياس في تفسير ابن عباس، منشورات مكتبة آية اللّه المرعشي النجفي، قم المقدّسة.

٣٨- تفسير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٩- تفسير العياشي، لأبي النظر محمد بن مسعود بن عيّاش السلمي السمرقندي، المعروف بالعيّاشي، علق عليه الحاج السّيد هاشم الرسولي المحلاّتي، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، طهران

٤٠- تفسير الفرات الكوفي، أبي القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي، من أعلام الغيبة الصغرى، تحقيق: محمد الكاظم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

٤١- تفسير القمّي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي المعروف بتفسير علي بن إبراهيم (ت ٣٠٧هـ) مكتبة علاّمة، قم المقدّسة.

٤٢- تفسير الكبير (تفسير الرازي) للإمام فخر الدّين الرازي (ت ٦٠٤هـ)، دار الكتب العلميّة ـ بيروت.

٤٣- تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم جار اللّه محمود بن عمر الزمخشري الرازي (ت ٥٣٨هـ)، دار الفكر ـ بيروت.

٤٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، المقتبس من دروس أستاذه محمد عبده.

٤٥- تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة حويزي (ت ١١١٢هـ)، المطبعة العلمية، ٢٠١٧م .

٤٦- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، مرتب ترتيبا ألف بائيا وفق الحروف الأصول، تحقيق: د رياض زكي قاسم، دار المعرفة ـ بيروت.

٤٧- جامع الدّروس العربية، تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني، راجعه ونقّحه الدّكتور عبدالمنعم خفاجه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

٤٨- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبداللّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٤٩- الجني الداني في الحروف والمعاني، صنعه الحسن بن القاسم المرادي، تحقيق: د فخر الدّين قباوه، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٥٠- جواهر العقدين في فضل الشريفين العلم الجلي والنسب العلي، علي بن عبداللّه الحسني السمهودي، تحقيق: موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف، العراق، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.

٥١- خصائص الوحيّ المبين، الحافظ ابن البطريق شمس الدّين يحيى بن الحسن الأسدي الربعي الحلّي (ت:٦٠٠هـ)، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، دار القرآن الكريم، ط١، ١٤١٧هـ .

٥٢- خلاصة التاريخ، العلاّمة سيدو، دار الآثار، بيروت، ١٤٠٠هـ .

٥٣- دعائم الإسلام، للقاضي أبي حنيفة النّعمان بن محمد التميمي المغربي (ت: ٣٦٣هـ)، تحقيق: آصف بن علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م.

٥٤- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبدالقاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٥٥- دلائل الإمامة، أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، من أعلام القرن الخامس الهجري، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف، ط١، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.

٥٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المعاني، أبو الفضل شهاب الدّين محمود الآلوسي البغدادي (ت: ١٢٧٠هـ)، دار الفكر.

٥٧- سفن البحار، الشيخ عبّاس بن محمد رضا القمّي، (ت: ١٣٥٩هـ)، المكتبة العلميّة، النجف الأشرف.

٥٨- السيرة الحلبية، العلاّمة أبي الفرج نور الدّين بن علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي الشافعي (ت: ١٠٤٤هـ)، ط٢، ٢٠٠٦م.

٥٩- الشافي في أصول الكافي، الشيخ عبدالحسين الشيخ عبداللّه المظفر، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان .

٦٠- الشافي في الإمامة، تأليف أبي القاسم علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى، حققه وعلق عليه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مؤسسة الصادق، العراق.

٦١- شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، ابن عقيل عبداللّه بن عبدالرحمن العقيلي الهمداني المصري (ت: ٧٦٩هـ)، تحقيق: محيي الدّين عبدالحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٦٢- شرح الرّضي على الكافية، محمد بن الحسن الإسترابادي السمنائي النجفي، تحقيق: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي ـ يحيى بن بشير مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٦٦م.

٦٣- شرح المفصل: لابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ)، قدّم له الدكتور أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٦٤- شرح نهج البلاغة، لعزّ الدّين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب الإسلاميّة، قم المقدّسة.

٦٥- شمائل عليّ عليه السلام في القرآن والسّنة، طالب السنجري، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٦٦- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني النيسابوري، من أعلام القرن الخامس الهجري، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٤م.

٦٧- الصاحبي في فقه العربية ومسائلها، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٦٨- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) لأبي عبداللّه محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) تحقيق الشماعي والرفاعي والكرماني، عالم الكتب، دار القلم، بيروت.

٦٩- صحيح الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (٢٥٦هـ)، تحقيق: الشماعي والرفاعي وكرماني، عالم الكتب، دار القلم، بيروت.

٧٠- صحيح مسلم، لأبي الحسن مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، دار الفكر.

٧١- الصواعق المحرقة، أحمد بن حجر الهيثمي، تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، ط٢، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٩١م.

٧٢- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلس، تحقيق أحمد أمين وآخرين، دار الأندلسي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٧٣- علي بن أبي طالب عليه السلام رجل الدولة والمعارضة، د محسن باقر القزويني، دار العلوم، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤.

٧٤- غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام، سيّد هاشم البحراني (١١٠٧هـ)، تحقيق: السّيد علي عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ٢٠٠١ م.

٧٥- الغدير في الكتاب والسّنة والأدب، للشيخ عبدالحسين بن أحمد الأميني (العلاّمة الأميني)، (ت١٣٩٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٧٦- فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧٧- فرائد السمطين، للجويني الحموينى، مؤسسة المحمودي، بيروت.

٧٨- الفصول المائة في حياة أبي الائمة علي عليه السلام، الأستاذ السّيد أصغر الناظم زادة القمّي، مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الاعلام الإسلامي)، ط١، ١٤٢٨هـ.

٧٩- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، علي بن محمد بن أحمد المالكي الشهير بابن الصباغ (ت ٨٥٥هـ)، مطبعة العدل، النجف الأشرف.

٨٠- فضائل الإمام علي عليه السلام، الشيخ محمد جواد مغنيّة، منشورات دار مكتبة الحياة، ط١، بيروت.

٨١- القيم الخلقية في شعر الشريف المرتضى دراسة في الموضوع والفن، د عبدالكريم النّفاخ، تموز للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٦م.

٨٢- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثيّ بالولاء، أبو بشر الملقب بسيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٨٣- الكشاف، جارالله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار عالم المعرفة.

٨٤- الكشف والبيان عن تفير القرآن (تفسير الثعلبي)، أحمد أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: صلاح باعثمان، حسن الغزالي وآخرون، دار التفسير، جدة، ط١، ٢٠١٥ م.

٨٥- كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، للكنجي الشافعي، دار إحياء التراث، طهران.

٨٦- الكلّيات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرّسالة، بيروت.

٨٧- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدّين علاء عليّ المتّقي بن حسام الدّين الهندي (ت ٩٧٥هـ)، مؤسسة الرّسالة.

٨٨- كنوز الحقائق من حديث خير الخلائق، عبدالرؤوف بن علي بن زين العابدين المناوي المصري الشافعي، شرح أحاديثه أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عريضه، مجاز في العلوم العربية والشرقية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٨٩- لسان العرب، للإمام العلّامة أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، مراجعة وتدقيق، د يوسف البقاعي وآخرون، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٩٠- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ١١٥٤هـ)، تصحيح السّيد هاشم الرسولي و السّيد فضل اللّه الطبطبائي، دار المعرفة، بيروت.

٩١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدّين عليّ بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربية، بيروت.

٩٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٩٣- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٨٥ هـ)، تحقيق: عبدالحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط١٤٢١،١هـ ـ ٢٠٠م.

٩٤- المخصص، أبو الحسن بن إسماعيل بن سيده المرسي، (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧ ـ ١٩٩٦م.

٩٥- المستدرك الحاكم (المستدرك على الصحيحين)، لأبي عبداللَّه الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٦- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، إعداد جماعة من العلماء، دار الإسلام للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

٩٧- معاني النحو، د فاضل السّامرائي، دار الفكر، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٩٨- المعجم الصغير، جمعه الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد مشكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٩٩- معجم العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السّامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٠٠- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبداللَّه بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: الشيخ بيت اللَّه بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط١، ١٤١٢هـ.

١٠١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المؤلف، عبداللَّه بن يوسف بن أحمد بن عبداللَّه بن يوسف بن هشام (ت ٧٦١هـ)، تحقيق: د مازن المبارك / محمد علي حمد اللَّه، دار الفكر، ط٦، ١٩٨٥م.

١٠٢- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، أبو عبداللَّه محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٢: ١٤٢٠هـ.

١٠٣- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠٤- المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: دعلي بو ملحم، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٩٣هـ.

١٠٥- مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، علي بن محمد الشافعي، الشهير بابن المغازلي (ت ٤٨٣هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٠٦- ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، لأبي عبداللّه محمد بن أحمد عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٠٧- الميزان في تفسير القرآن، العلّامة السّيد محمد حسين الطبطبائي، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدّسة، إيران.

١٠٨- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدّين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبدالحميد الهنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

١٠٩- ينابع المودة، للشيخ سليمان بن الشيخ إبراهيم المعروف بخواجة ابن (شيخ محمد) معروف بـ (بابا خواجه الحسيني البلخي القندوزي)، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

قال الأمام الصادق عليه السلام

(مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي الْمُصْحَفِ مُتِّعَ بِبَصَرِه وخُفِّفَ عَنْ وَالِدَيْه وإِنْ كَانَا كَافِرَيْنِ)

الكافي: 2/ 613

التَّفسِيرُ اللّغويُّ في رِوَايَاتِ الإمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام

أ.د. فضيلة عبوسي محسن العامري
كليَّة الفقه- جامعة الكوفة

Prof. Dr. Fadhila Aboussi Mohsen Al-Amiri
(College of Jurisprudence - University of Kufa)

الملخَّص

اعتمد الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للقرآن الكريم مناهج عدِّة بحسب مسار القصديَّة في الآيات القرآنية وكذلك مقام البيان وحاجته المعرفيَّة من الآية القرآنيَّة أو بعض ألفاظها، فأحيانًا يعتمد الإيضاح اللفظيّ للكلمة القرآنيَّة داخل سياقها، مثل بيان معنى (صبغة)، وأحيانًا يعتمد الإيضاح الصرفيّ مثل بيان اشتقاق لفظ الجلالة (اللَّه)، وبيان الفرق بين صيغتي (الرحمن الرحيم)، وأحيانًا يجتمع الإيضاح النحويّ والدلالة الإيحائيَّة كما في بيان معنى قوله تعالى في أوائل بعض السور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأحيانًا أخرى يعتمد الإيضاح البلاغي على النحو الذي نجده في بيان معنى السميع في صفات اللَّه تعالى، وفي مواطن أخرى يعتمد الإيضاح الدلالي في البيان للألفاظ القرآنيّة مثل ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ و﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، وعلى أساس ما تقدَّم وجدنا تنوّعًا غزيرًا في التفسير اللغويّ للقرآن الكريم بحسب تفسير الإمام الصادق عليه السلام، وهو تنوُّع تقتضيه طبيعة القرآن الكريم الذي جاء حاويًا لكلِّ العلوم ومعجزًا لها في الوقت نفسه، ومن هنا قرَّرنا البحث في نماذج من تفسير الإمام الصادق عليه السلام؛ بوصفه أحد العترة الذين أوصانا الرسول صلى الله عليه وآله باتِّباعهم، وكذلك بيان سعة المساحة للدَّلالة القرآنيَّة التي لا تتوقف عند أحد مستويات اللغة؛ بل تتعدَّاها لتجتمع تلك المستويات وتتفاعل من أجل الوصول إلى شيء من دلالاتها، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف استعنَّا بمساراتٍ بحثيَّة يمكن تقسيمها على مبحثين: الأوَّل تبنَّى جانب التنظير فتكفَّل بتعريف التفسير اللغويّ والروايات التفسيريَّة، في حين تخصَّص المبحث الآخر بالجانب التطبيقي من الدِّراسة فدرس المستويات: الصوتيَّة، والصرفيَّة، والنحويَّة، والبلاغيَّة في الروايات التفسيريَّة للإمام الصادق عليه السلام، ثمَّ جاءت الخاتمة مشتملةً على بعض النتائج التي توصَّلت إليها الدِّراسة، وأما

المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يعتمد على رصد الظاهرة ثمَّ وصفها، ومن بعد ذلك تحليلها على وفق المعطيات المنهجيَّة في الدَّرس اللغويّ.

الكلمات المفتاحيَّة: القرآن الكريم، الإمام الصادق عليه السلام، التفسير اللغويّ.

Abstract:

Imam Al-Sadiq (peace be upon him) employed various methodologies in his interpretation of the Holy Quran, adapted to the context and purpose of the Quranic verses, as well as the explanatory position and the knowledge sought from the verse or specific terms within it. Sometimes, he would use verbal clarification for a Quranic word within its context, such as explaining the meaning of “sibghah” (coloring). At other times, he provided morphological explanations, such as discussing the derivation of the word “Allah” and distinguishing between the forms “Al-Rahman” and “Al-Rahim.” He would also combine syntactic clarification and connotative explanation, as seen in his interpretation of the phrase “O you who have believed” found at the beginning of some chapters. On other occasions, he employed rhetorical clarification, for instance, elucidating the meaning of “As-Sami” (the All-Hearing) as an attribute of God. Additionally, he used semantic clarification to explain Quranic terms like “ashraqati al-ard” (the earth will shine) and “an-naba' al-azim” (the great news).

Based on this diversity, a rich variety of linguistic interpretations of the Holy Quran emerged from Imam Al-Sadiq's (peace be upon him) commentaries. This diversity reflects the nature of the Quran itself, which encompasses all sciences and remains miraculous. Therefore, this study explores examples of Imam Al-Sadiq's interpretations, highlighting his position as one of the Ahl al-Bayt, whom the Prophet (peace and blessings be upon him and his family) urged followers to adhere to. It also illustrates the extensive scope of Quranic meanings that extend beyond a single linguistic level, integrating these levels to interact

and reveal deeper significances.

To achieve this goal, the research follows two main paths: the first part offers theoretical definitions of linguistic interpretation and interpretive narrations, while the second part focuses on the practical analysis of the phonetic, morphological, syntactic, and rhetorical levels found in Imam Al-Sadiq's interpretative narrations. The study concludes with key findings. The methodology applied in this research is descriptive-analytical, tracking the phenomenon, describing it, and then analyzing it according to the methodological frameworks of linguistic study.

Keywords: Holy Quran, Imam Al-Sadiq (peace be upon him), linguistic interpretation.

المقدِّمة:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على محمَّدٍ وعلى آله الطيِّبين الطاهرين

أمَّا بعد:

فقد ورد عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، أنَّ قوله: الرَّاسخون في العلم هم أمير المؤمنين والأئمَّة من بعده عليهم السلام، وقوله عليه السلام: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله، ولمَّا كان أهل البيت عليهم السلام هم الراسخون في العلم؛ كان لرواياتهم وجودٌ واضحٌ في تفسير القرآن الكريم، لبيان حكم أو لإيضاح لفظ، أو لردِّ سؤال؛ ومن أجل ذلك جاء البحث بعنوان (التَّفسير اللغويُّ في روايات الإمام الصَّادق عليه السلام) الذي تألَّف من مبحثين عرض الأوَّل منهما: تفسير أهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم، وجاء المبحث الآخر مخصَّصًا للدراسة التطبيقية في رصد الدَّلالة اللغويَّة؛ الصَّوتيَّة، والصَّرفيَّة والنَّحويَّة، والبلاغيَّة في الروايات التَّفسيريَّة، ولا بدَّ من التنويه إلى أنَّنا لم نقسِّم تلك الدلالات اللغويَّة تحت عنوانات منفصلة؛ وذلك لتداخلها في التَّفسير، ولكن ركَّزنا في كلِّ رواية على دلالة لغويَّة تظهر في اللفظ، أو التركيب، أو الآية التي أراد الإمام الصَّادق عليه السلام بيان المراد منها للسائل، أو المتلقي، أو القاريء في كلِّ زمان ومكان، ثم جاءت الخاتمة مشتملة على بعض النتائج، فكانت مشكلة البحث متمثلة بتتبع الروايات التَّفسيرية، وفرضيَّة البحث رصدت الدلالات اللغويَّة في تلك الروايات، وأمَّا المنهج المتَّبع فهو المنهج الوصفيُّ التحليليُّ، وتأتي أهميَّة البحث في معرفة أثر التَّفسير اللغوي لأهل البيت عليهم السلام في بيان فهم المعاني القرآنيَّة ودلالاتها المختلفة، التي لا يمكن تحصيلها إلَّا من طريق روايات أهل بيت النبَّوة، ومعدن الرِّسالة محمَّد وآله الطيِّبين الطَّاهرين عليهم السلام، ومنهم الإمام الصَّادق عليه السلام، وتوصَّل البحث إلى مجموعة من النتائج التي ذُكرت في مظانِّها مشفوعة بالمصادر.

المبحث الأوَّل: تفسير أهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أمْ عَلى قُلُوبٍ أقْفالُها﴾ (محمد:٢٤)، لا بدَّ من التأمُّل والتدبُّر في قراءة القرآن الكريم، وأن لا تكونُ لقلقة في اللسان، لا تفقهُهُ القلوبُ المقفلةُ التي تحولُ أقفالُهَا دونَ فهمِه والانتفاع منه، بل في القلبِ السَّليم المبصرِ، ومعرفةِ المرادِ منه تفكُّرًا وإحاطةً وتدقيقًا واستنباطًا وتمحيصًا، وتطبيقُ ما جاءَ فيه، وأنَّ القراءةَ من دونِ تدبُّرٍ لا خيرَ فيها؛ إذ أكَّدَ أهلُ البيتِ عليهم السلام ذلك في أكثر من روايةٍ، فقد جاءَ عن الإمامِ الصَّادق عليه السلام قوله: ((لا خير في قراءة ليس فيها تدبُّر))[١] وأكَّد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله على فضيلة الاجتماع لقراءة القرآن وتدارسه، وأنَّ الملائكةَ تحفُّ القرَّاءَ بالسَّكينةِ والرَّحمةِ في قوله صلى الله عليه وآله :((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرَّحمة وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده)[٢]، وأكَّدت رواياتُ أهلِ البيتِ عليهم السلام على تعلُّم القرآن، والنظر فيه، وقراءته، قال الإمام الصَّادق عليه السلام: ((ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتَّى يتعلَّم القرآن أو يكون في تعلُّمه))[٣]، وقال عليه السلام: ((اَلْقُرْآنُ عَهْدُ اَللَّهِ إلى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ اَلْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ وَ أَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً، وقال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: عليكم بالقرآن فاتخذوه إمامًا وقائدًا))[٤].

وقد ذكر جعفر مرتضى العاملي[٥] روايةً عن الإمام الصَّادق عليه السلام يذمُّ فيها الغاصبينَ والمعاندينَ الذين تركوا أوصياءَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وهم الشهداءُ على أهلِ كلِّ زمانٍ، مبيِّنًا أصولَ التَّفسير، وشروطَه التي لا بدَّ من الوقوف عندها، والانتهاء

(١) الكافي: ١/ ٣٦.
(٢) المصدر نفسه:٣/ ٢٥٢٢.
(٣) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٥٢١.
(٤) دروس في تفسير القرآن الكريم: ٢.
(٥) تفسير سورة الحمد: ١/ ٥.

إليها، والانطلاق منها، وهي رواية مهمة جدًا، من فقراتها، روي عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال في جملة حديث له: ((وذلك أنَّهم ضربوا بعضَ القرآن ببعضٍ، واحتجُّوا بالمنسوخ، وهم يظنُّون أنَّه الناسخ، واحتجُّوا بالمتشابه، وهم يرونه أنَّه المحكم، واحتجُّوا بالخاصِّ وهم يُقدِّرون أنَّه العام، واحتجُّوا بأوَّل الآية، وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلّوا وأضلّوا))[1].

بيَّن الإمامُ الصَّادقُ عليه السلام صفاتِ العالمِ بكتابِ اللَّه (سبحانه) من الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه ومعرفةَ المكِّيِّ والمدنيِّ، وحلاله وحرامه وغيرها من العلوم المتعلِّقةِ بهِ، ومن لم يعرفْها فليس بعالمٍ في قوله عليه السلام: ((واعلموا رحمكم اللَّه أنَّه من لم يعرفْ من كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ الناسخَ من المنسوخِ، والخاصَّ من العامِّ والمحكمَ من المتشابهِ، والرُّخصَ من العزائم والمكيَّ من المدنيِّ، وأسبابَ التنزيلِ، والمبهمَ من القرآنِ في ألفاظِهِ المنقطعةِ والمؤلَّفة، وما فيه من علمِ القضاءِ والقدرِ، والتقديم والتأخيرِ، والمبينِ والعميقِ، والظاهرِ والباطنِ والابتداءِ والانتهاءِ، والسؤالِ والجوابِ، والقطعِ والوصلِ، والمستثنى منه والجاري فيه، والصفة لما قبل ممَّا يدلُّ على ما بعد، والمؤكَّد منه، والمفصَّل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ، والمحمول على ما قبله، وعلى ما بعده، فليس بعالمٍ بالقرآن، ولا هو من أهله، ومتى ما ادَّعى معرفةَ هذه الأقسام مدَّعٍ بغيرِ دليلٍ، فهو كاذبٌ مرتابٌ، مفترٍ على اللَّهِ الكذب ورسوله، ومأواه جهنم وبئس المصير))[2]

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٢٠١، وينظر: تفسير سورة الحمد: ١/ ٥.
(٢) بحار الأنوار: ٩٠/ ٤، وينظر: تفسير سورة الحمد: ١/ ٦.

وفي حديث أبي بصير مع الإمام الصَّادق عليه السلام سأله عن السبب في عدم ذكر أهل البيت عليهم السلام صريحًا في القرآن الكريم، فأجابه الإمام عليه السلام أنَّه (سبحانه) إنَّما ذكر في القرآن أصول الشريعة وكليَّات الأحكام، أمَّا الفروع والجزئيَّات، فموكول إلى بيان الرسول صلى الله عليه وآله يبيِّنها للناس على سواء[١]، وقال الإمام الصَّادق عليه السلام: ((نزل القرآن بإيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة))[٢] هذه هي عمدة مهنة المفسِّر الخبير؛ إذ يستخرج عموم الأحكام الجارية من مواردها الخاصَّة التي نزلَ بها القرآنُ الكريمُ، فيعلم بطنَ القرآنِ من ظاهرِه وتأويله من تفسيره، وهو أمرٌ مستصعبٌ لا يقوم به سوى المطَّلعين بأسرار كلامه تعالى، وهم الأئمَّةُ من أهلِ البيتِ الذين هم أدرى بما في البيت[٣].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: من الآية٧)، عن أبي صباح قال: قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: ((إنَّ اللَّه علم نبيَّه التنزيل والتأويل، قال: فعلَّمه رسول اللَّه صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام))[٤] وعن سليمان الأعمش عن أبيه قال: قال علي عليه السلام: ((ما نزلت آية إلَّا وأنا علمتُ فيمن أُنزلت، وأين أُنزلت، وعلى من نزلت، إنَّ ربِّي وهب لي قلبًا عقولًا ولسانًا طلقًا))[٥] نعم، لا يهتدي إلى ذلك سوى أولئك الذين هداهم اللَّه عزَّ وجلَّ إلى منابع فيضه، وأبواب رحمته، ممَّن تمسَّكوا بعرى أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وهم الأخصَّاء من شيعتهم ومواليهم، قال الصَّادق عليه السلام:((إنَّا أهل بيت لم يزل اللَّه يبعث منَّا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره))[٦] وقال عليه السلام: ((نحن الراسخون في العلم ونحن

(١) تفسير كنز الدقائق:٣/ ٦٠.
(٢) ميزان الحكمة: ٣/ ٢٥٣٥، وينظر: تفسير كنز الدقائق:٣/ ٦٠.
(٣) تفسير كنز الدقائق:٣/ ٦٠.
(٤) تفسير العياشي:١/ ١٧، وينظر: بحار الأنوار: ٨٩/ ٩٧.
(٥) تفسير العياشي:١/ ١٧، وينظر: بحار الأنوار: ٨٩/ ٩٧.
(٦) تفسير العياشي: ١/ ١٦، وينظر: بحار الأنوار: ٨٩/ ٩٦.

نعلم تأويله))[1]، وهذا هو المعنى بقوله صلى الله عليه وآله: ((إنِّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب اللَّه وعترتي أهل بيتي وأنَّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[2] فأهل البيت عليهم السلام هم الراسخون في العلم، حتى أنَّ ابن عباس حبر الأمَّة وترجمان القرآن كان مرجعه في التَّفسير هو الأخذ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول:((ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب))[3] وآثاره في التَّفسير كثيرة في المجاميع التَّفسيريَّة المدونة التي منها جامع البيان للطبري(ت: ٣١٠هـ) وتفسير القرطبي(ت:٦٧١هـ) وابن كثير(ت: ٧٧٤هـ) والدر المنثور للسيوطي(ت: ٩١١هـ) وغيرها من نوع التَّفسير بالمأثور[4].

وقد ذكر الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)[5] أنَّ معانيَ القرآنِ على أربعة أقسام:

أحدها: ما اختص اللَّه تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلُّف القول فيه، ولا تعاطي معرفته، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان:٣٤) إلى آخرها فتعاطي معرفة ما اختص اللَّه تعالى به من الخطأ.

وثانيها: ما كان ظاهره مطابقًا لمعناه، فكلُّ من عرف اللغة التي خوطب بها، عرف معناها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام:١٥١)، ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١) وغير ذلك.

(١) الكافي: ١/ ٢١٣.
(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٣٤.
(٣) كتاب الواضح في علوم القرآن: ٢٢٠.
(٤) تفسير كنز الدقائق: ٣/ ٦٠.
(٥) التبيان: ١/ ٤-٥، وينظر: القرآن في مدرسة أهل البيت: ١٢٥.

وثالثها: ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)، ومثل قوله: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، وقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ (المعارج: ٢٤)، وما أشبه ذلك فإنَّ تفصيل أعداد الصلاة وعدد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجه إلَّا ببيان من النبيﷺ ووحي من جهة اللَّه تعالى، فتكلُّف القول في ذلك خطأ ممنوع منه، يمكن أن تكون الأخبار متناولة له.

ورابعها: ما كان اللفظ مشتركًا بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كلُّ واحد منهما مرادًا، فإنَّه لا ينبغي أن يقدم أحدٌ به فيقول: إنَّ مرادَ اللَّه ﷻ فيه بعضُ ما يحتمل- إلَّا بقول نبي أو إمام معصوم- بل ينبغي أن يقول: إنَّ الظاهر يحتمل لأمور، وكلُّ واحد يجوز أن يكون مرادًا على التفصيل، واللَّهﷻ أعلم بما أراد، ومتى كان اللفظ مشتركًا بين شيئين، أو ما زاد عليهما، ودلَّ الدليل على أنَّه لا يجوز أن يريد إلَّا وجهًا واحدًا، جاز أن يُقال: إنَّه هو المراد.

المبحث الثاني: الدلالة اللغويَّة في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام:

عُرِّف التَّفسير بتعريفات عدَّة منها أنَّه ((اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسع))[١] وأمَّا اللغة في الاصطلاح فهي((أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم))[٢]، وأمَّا التَّفسير اللغوي فهو مصطلح مركب من الموصوف (التَّفسير) والصفة (اللغوي) ويعني ((بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب))[٣] وقد فصَّل القول في شرح التعريف أحدُ الباحثين قائلًا: ((أمَّا الشقُّ الأوَّل من التعريف، وهو بيان معاني القرآن، فإنَّه عام يشمل كلَّ مصادر البيان في التَّفسير، كالقرآن، والسنَّة، وأسباب النزول وغيرها، وأمَّا الشقُّ الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب: فإنَّه قيد واصف لنوع البيان الذي وقع لتفسير القرآن، وهو ما كان طريق بيانه عن لغة العرب))[٤] وممَّا تقدم يظهر لنا أنَّ اللغة هي الأساس في عمليَّة التَّفسير مهما كان المنهج المتَّبع في التَّفسير سواء كان المنهج الظاهري، والمنهج الباطني، والتَّفسير بالرأي أم التَّفسير اللغوي الذي هو مجال الدراسة والبحث الذي عرض الدلالات اللغويَّة التي وردت في روايات الإمام الصَّادق عليه السلام وأنَّ هذه الدلالة تتعلق بالقرآن الكريم، و((تعدُّ الدلالة اللغويَّة من أهم الأسس التي اعتمدها المفسِّرون لفهم معاني القرآن واستنباط أحكامه))[٥] فكيف إذا كان هذا التَّفسير اللغوي والدلالات المتعلِّقة به صادرة من لدن عترة أهل البيت عليهم السلام ومنهم الإمام الصَّادق عليه السلام وهو((الخط الصالح الذي يجب على الإنسان ـ لكي يكون إنسانًا صالحًا ـ أن يواصل الاستمرار فيه والبذل له والعطاء له بقدر ما يمكنه))[٦]

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ١١، وينظر: المدخل إلى علوم التَّفسير: ٢١٢.
(٢) الخصائص: ١/ ٣٤.
(٣) التَّفسير اللغوي للقرآن الكريم:٣٧.
(٤)المصدر نفسه:٣٧.
(٥) ينظر: أثر الدلالة اللغوية في التأويل عند المفسرين: ٢٤٩.
(٦) محمد باقر الصدر.. دراسات في حياته وفكره:٢/ ١٨١.

وقد عُرف الشيعة بالجعفرية؛ ((لأنَّ معظم تعاليم الإسلام مأخوذة من الإمام جعفر بن محمد الصَّادق عليه السلام لأنَّ الظروف السياسيَّة والاجتماعيَّة أتيحت له أكثر من غيره لنشر تلك التعاليم))[١] وكان له عليه السلام جهودٌ تفسيريَّةٌ تمثَّلت في روايات عدَّة تنوَّعت في الجمع بين إيضاح معاني الألفاظ مرَّة مثل معنى (صبغة) ومعنى (القوارير) وغيرها، وبيان الفرق بين المشتقَّات كما في الفرق بين (الرحمن والرحيم)، وعرض اشتقاق بعض الألفاظ، منها لفظ الجلالة (اللَّه)، ومنها ما يتعلق بالنداء ودلالته (يا أيها الذين آمنوا)، ومنها ما يتعلق بكنايات بعض الألفاظ، منها (السميع) وغيرها كثير في البحث، ولا بدَّ من التنويه إلى أنَّنا لم نقسِّم تلك الدلالات اللغويَّة تحت عنوانات منفصلة صوتيَّة، أو صرفيَّة، أو نحويَّة، أو بلاغيَّة، أو سياقيَّة؛ وذلك لتداخلها في التَّفسير، وليس من الممكن فصل بعضها عن بعض لبيان المعاني المقصودة، لكن ركَّزنا في كلِّ رواية على دلالة لغويَّة أكَّد عليها الإمام الصَّادق عليه السلام في تفسيره للآيات القرآنية التي وردت فيها تلك الدلالات وعلى النحو الآتي:

١-السائق: بمعنى الملائكة التي تسوق الناس للمحشر[٢] في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:٢١)

جاء عن الإمام الصَّادق عليه السلام لمَّا سأله زنديق عن علَّة الملائكة، واللَّه عالم السرِّ وأخفي؟[٣]، فقال الإمام عليه السلام: ((استعبدهم بذلك، وجعلهم شهودًا على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيَّاهم أشدّ على طاعة اللَّه مواظبة، وعن معصيته أشدّ انقباضًا، وكم من عبد يهم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكفَّ، فيقول ربِّي يراني، وحفظتي عليَّ بذلك يشهد، وإنَّ اللَّه برأفته ولطفه أيضا، وكلهم بعباده

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت عليهم السلام: ١/ ٥١.
(٢) ينظر: لسان العرب: ١٠/ ١٦٦.
(٣) الأمثل: ١٩/ ٤٩٠.

يذبّون عنهم مردة الشياطين، وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن اللَّه، إلى أن يجيء أمر اللَّه عز وجل))[1].

يُفاد من هذه الرواية أنَّ للملائكة وظائفَ أُخر، إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان، منها حفظ الإنسان من الحوادث والآفات ووساوس الشيطان[2]، فأشار الإمام عليه السلام إلى ما خُصَّ به لفظ (السائق) من معنى وهو إشارة إلى الملائكة وقد رُشِّح هذا المعنى من النسق اللغوي الذي وردت فيه مفردة (السائق).

٢-المشيئة في اللغة بمعنى الإرادة[3]، وقد جاءت في الآية الكريمة بمعنى الحريَّة والاختيار في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٦)؛ إذ تبيِّن الآية السابقة (أمر بين الأمرين) التي أشار إليها الإمام الصَّادق عليه السلام، فمن جهة أنَّ الإرادة والقرار بيدكم، ومن جهةٍ أُخرى، يلزم تلك الإرادة وذلك القرار ما يشاء اللَّه ربّ العالمين، وإن خلقتم أحرارًا مختارين، فالحريَّة والاختيار منه جلَّ اسمه، ولولا إرادته ذلك لما كان[4].

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقًا، ولا هو بمختار بكلِّ معنى الاختيار، ولكنْ كما روي عن الإمام الصَّادق عليه السلام: فيما روى عنه مفضل بن عمرو قوله: ((لا جبر ولا تفويض؛ ولكن أمر بين أمرين، قال: قلت: ما أمر بين أمرين؟ قال: مثل ذلك مثل رجل رأيته على معصيةٍ فنهيته فلم ينتهِ، فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصي))[5]، فكلُّ ما للإنسان من: عقل، وفهم، وقدرة بدنيَّة، وقدرةٍ على اتِّخاذ القرار، كلُّ ذلك من اللَّه عز وجل، فهو من جهةٍ في حالة الحاجة الدائمة للاتِّصال به جلَّ شأنه، ولو شاء اللَّه

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٣٧.
(٢) الأمثل: ١٩/ ٤٩٠.
(٣) ينظر: لسان العرب: ٣/ ١٩١.
(٤) الأمثل: ١٩/ ٤٧٠.
(٥) ميزان الحكمة: ١/ ٣٦٣.

لتوقف كلُّ شيءٍ وانتهى، وهو من جهةٍ أخرى مسؤول عن أعماله لما له من حريَّة واختيار على تنفيذها[١].

٣-السفرة بمعنى الملائكة في قوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (عبس: ١٥)، سفراء من الملائكة، وهؤلاء السفراء: (كِرام بررة). (سفرة): جمع (سَافِرْ) من (سَفَر) على وزن (قمر)، ولغةً: بمعنى الكشف[٢]، ولذا يُطلق على الرسول ما بين الأقوام (السَّفير)؛ لأنَّه يُزيل ويكشف الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم (السَّافر)، وعلى الكتاب (سِفر)؛ لما يقوم به من كشف موضوع ما وعليه فالسَّفرة هنا، بمعنى: الملائكة الموكَّلين بإيصال الوحي الإلهيّ إلى النّبي، أو الكاتبين لآياته[٣]، وما ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام في قوله: ((الحافظ للقرآن، العامل به، مع السَّفرة الكرام البررة))[٤] بجعل الحافظين للقرآن العاملين به في درجة السَّفرة الكرام البررة، فليسوا هم السَّفرة؛ بل في مصافِّهم؛ لأنَّ جلالة مقام حفظهم وعملهم، يماثل ما يؤدِّيه حملة الوحي الإلهيّ.

٤-النبأ العظيم في اللغة الخبر العظيم[٥]، وفي الآية الكريمة بمعنى الولاية[٦] في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ: ١-٢)، فقد روي عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: ((النبأ العظيم الولاية))[٧]، فقدَّم الإمام الصادق عليه السلام مصداق النبأ العظيم استنادًا إلى المعنى اللغوي للنبأ العظيم؛ ليُخصِّصه معنًى لمصطلح (الولاية) بوصفها من مرتكزات الإسلام.

(١) الأمثل: ١٩/ ٤٧٠.
(٢) ينظر: لسان العرب: ٤/ ٣٦٨.
(٣) الأمثل: ١٩/ ٤١٧.
(٤) الكافي: ٢/ ٦٠٣.
(٥) ينظر: لسان العرب: ١/ ١٦٢.
(٦) الأمثل: ١٩/ ٣٢٣.
(٧) الكافي: ١/ ٤١٨.

٥- القوارير جمع قارورة، وهي من الزجاج ماقرَّ بها الشراب، وتسمِّي العرب المرأة قارورة وتكنِّي بها عنها، وفي الآية الكريمة بمعنى أواني زجاج في بياض الفضَّة وصفاء القوارير[١] في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ (الإنسان: ١٥).

جاء في تفسيرها أنَّ الأكواب الأقداح عن مجاهد، (كانت) تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا﴾ أي زجاجات[٢]، ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ قال الصَّادق عليه السلام: ((ينفذ البصر في فضَّة الجنَّة، كما ينفذ في الزجاج))[٣]، ويرى الشيرازي أنَّ هذه الأوعية والكؤوس تكون جامعة بين صفاء الزجاجة وشفافيَّة البلُّور وبين بياض الفضَّة وجمالها، ويكون الشراب فيه متجليًّا[٤]، والملاحظ أنَّ هذا المعنى قد أشار إليه الإمام الصَّادق عليه السلام أيضًا إذ قال: ((ينفذ البصر في فضَّة الجنَّة كما ينفذ في الزجاج))[٥] وفي العصر الحديث تمّ اكتشاف أنواع من الأشعة (مثل أشعة أيكس) لها قابليَّة النفوذ إلى باطن المواد والأجسام المعتمة واستجلاء محتوياتها[٦].

٦- المقام اسم مصوغ للمكان وللزمان[٧]، وجاء في الآية الكريمة بمعنى علم اللَّه تعالى بعمل الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: ٤٠). فـ(المقام): هو علم اللَّه ومقام مراقبته للإنسان[٨]، بدلالة ما روي عن الإمام الصَّادق عليه السلام: قوله: ((مَن عَلِمَ أنَّ اللَّه يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم مِن خيرٍ أو شرٍّ فيحجزه ذلك عن القبيح من

(١) ينظر: لسان العرب: ٥/ ٨٧.
(٢) ينظر: مجمع البيان: ١٠/ ٢٢١.
(٣) بحار الأنوار: ٨/ ١١١.
(٤) ينظر: الأمثل: ١٩/ ٢٧١.
(٥) بحار الأنوار: ٨/ ١١١.
(٦) ينظر: الأمثل: ١٩/ ٢٧١.
(٧) ينظر: شذا العرف في فنِّ الصَّرف: ٧١.
(٨) ينظر: الأمثل: ١٩/ ٢٢٨.

الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى))[١].

فذِكْر الموت له الأثر البالغ والعميق في كسر الشهوات، وإنهاء الآمال الطويلة والبعيدة، ومحو آثار الغفلة عن مرآة القلب، لذا ورد في حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام قال: ((ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوِّي القلب بمواعد اللَّه ويرقّ الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقِّر الدنيا))[٢]، وتتمَّة الحديث في بحار الأنوار ((وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا، ويشدها في الآخرة، ولا يشكُّ بنزول الرحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت وقلَّة حيلته، وكثرة عجزه و طول مقامه في القبر، وتحيُّره في القيامة فلا خير فيه))[٣].

وفي حديث آخر عن الإمام الصَّادق عليه السلام عندما طلب شخص منه أن يوصف له الموت، فقال الإمام عليه السلام: ((للمؤمن كأطيب ريح يشمُّه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كلُّه عنه، وللكافر كلسعِ الأفاعي ولدغ العقارب أو أشدّ))[٤].

٧-التقوى والمغفرة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: ٥٦)؛ فهو أهل؛ لأن يخافوا من عقابه، وأن يتَّقوا في اتِّخاذهم شريكًا له تعالى شأنه، وأن يأملوا مغفرته، وفي الحقيقة أنَّ في هذه الآية إشارةً إلى الخوف والرجاء والعذاب والمغفرة الإلهيَّة، وهي تعليلٌ لما جاءَ في الآية السابقة[٥]، لذا نقرأُ في حديث وردَ عن الإمام الصَّادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنَّهُ قال: ((قالَ اللَّهُ: أنا أهل أن أتقى ولا يشركَ بي عبدي شيئًا، وأنا أهل إن لم يُشرك بي شيئًا أن أدخله الجنَّة))[٦].

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٣٦٤.
(٢) مصباح الشريعة: ١٧١.
(٣) بحار الأنوار: ٦/ ١٣٣.
(٤) علل الشرائع: ١/ ٢٩٨.
(٥) ينظر: الأمثل: ١٩/ ١٩٥.
(٦) التوحيد: ٢٠.

٨-تفسير المنَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦)؛ أي لا تعط شيئًا مقدَّرًا لتأخذ بدله ما هو أكثر منه[١]، فـ (لا) الناهية تجزم الفعل المضارع وتخلِّصه للاستقبال[٢]، والفعل المجزوم ﴿تَمْنُنْ﴾ مأخوذ من مادة (المنَّة) وتعني في هذه الموارد الحديث عن تبيان أهميَّة النعم المعطاة للآخرين، وهنا تتَّضح لنا العلاقةُ بينه وبين الاستكثار؛ لأنَّ من يستصغر عمله لا ينتظر المكافأة، فكيف إذن بالاستكثار، فإنَّ الامتنان يؤدِّي دائمًا إلى الاستكثار، وهذا ممَّا يزيل قيمة النعم، وما جاء من الرِّوايات يشير إلى هذا المعنى، قال الإمامُ الصادقُ عليه السلام: ((لا تعط العطيَّة تلتمس أكثر منها))[٣]، وجاء كذلك في حديثٍ آخر عن الإمام الصَّادق عليه السلام في تفسير الآية: ((لا تستكثر ما عملت من خير للَّه))[٤]، وهذا فرع من ذلك المفهوم[٥].

٩-تفسير طهارة الثياب بالقصر في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر:٤)، وهو تفسير كنائي، قال الطبرسي رحمه الله (ت: ٥٤٨ هـ): أي وثيابك الملبوسة فطهِّرها من النجاسة للصلاة، وقيل: ((وثيابك فقصِّر))[٦]، رُوي ذلك عن أبي عبد اللَّه عليه السلام [٧] وذكر الشيرازيُّ أنَّ التعبير بالثوب قد يكون كناية عن عمل الإنسان؛ لأنَّ عمل الإنسان بمنزلة لباسه، وظاهره مبيِّن لباطنه، وقيل المراد منه: القلب والروح، أي طهِّر قلبَكَ وروحَكَ من كلِّ الأدران، فإذا وجبَ تطهيرُ الثوب فصاحبُه أولى بالتطهير[٨]. وقيل: هو اللباسُ الظاهرُ؛ لأنَّ نظافةَ اللباسِ دليلٌ على حُسنِ التربيةِ والثقافةِ، ولا سيَّما في عصر الجاهليَّة؛ إذ كان الاجتناب من

(١) ينظر: لسان العرب: ١٣/ ٤١٨.
(٢) ينظر: الجنى الدَّاني: ٦٨.
(٣) بحار الأنوار: ٩/ ٢٤٤.
(٤) الكافي: ٢/ ٤٩٩.
(٥) ينظر: الأمثل:١٩/ ١٦٠.
(٦) بحار الأنوار: ٦٤/ ٢٧٨.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٦٤/ ٢٧٨.
(٨) ينظر: الأمثل: ١٩/ ١٥٨.

النجاسة قليلًا، وإنَّ ملابسَهم وسخةٌ غالبًا، وكان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس بحيث كان يُسحل على الأرض، وما ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام في معنى أنَّه: (ثيابك فقصِّر) ناظر إلى هذا المعنى[١].

١٠-ناشئة الليل أي: قيام الليل مصدر جاء على (فاعلة)، وهو بمعنى النشء[٢]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦)؛ إذ إنَّ المراد هو إحياء الليل بالصلاة والعبادة وقراءة القرآن[٣]، بحسب ما ورد في حديث عن الإمامين الصَّادق والباقر عليهما السلام؛ إذ قالا: ((هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليل))[٤]، وفي حديث آخر عن الإمام الصَّادق عليه السلام في تفسير هذه الآية، قال: ((قيامه عن فراشه لا يريد إلَّا اللَّه))[٥]، ومنها عن الإمام الصَّادق عليه السلام قال: ((إنَّ من روح اللَّه تعالى ثلاثة: التهجُّد بالليل، وإفطار الصَّائم، ولقاء الإخوان))[٦].

١١-تفسير المحروم، والحق المعلوم في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩)، فالمحروم هو الذي لا يسأل لتعفُّفه وحيائه[٧]، وجاء في حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام: ((المحروم من يجد المشقَّة في كسبه وعمله وهو محارف))[٨].

١٢-الحقُّ المعلوم غير الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ (المعارج: ٢٤)؛ إذ ذكر الشيرازيُّ[٩] أنَّ بعضَ المفسِّرينَ[١٠] يعتقدون أنَّ المراد

(١) ينظر: الأمثل: ١٩/ ١٥٨.
(٢) ينظر: لسان العرب: ١/ ١٧٢.
(٣) ينظر: الأمثل: ١٩/ ١٣٢.
(٤) ميزان الحكمة: ٢/ ١٦٥٣.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ٦/ ١٢٥.
(٧) ينظر: الأمثل: ١٩/ ١٢٥.
(٨) المصدر نفسه: ١٩/ ٢٤٥.
(٩) ينظر: الأمثل: ١٩/ ٢٥.
(١٠) ينظر: التبيان: ١٠/ ١١٧، مجمع البيان: ١٠/ ١١٠، تبيين القرآن: ٣/ ٢٣١.

هنا من ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ هو الزّكاة المفروضة التي فيها المقدار المعين، ومن موارد صرف ذلك المقدار هو السائل والمحروم؛ لكن هذه السورة مكّيَّة، وحكم الزَّكاة لم يكن قد نزل في مكَّة، ولو فرض نزوله لم يكن هناك تعيُّن للمقدار، ولذا يعتقد بعضُهم أنَّ المرادَ من ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ هو شيء غير الزَّكاة الذي يجب على الإنسان منحه للمحتاجين، والشَّاهد على هذا ما نُقِل عن الإمام الصَّادق عليه السلام عندما سُئل عن تفسير هذه الآية، هل هذا شيء غير الزَّكاة فقال عليه السلام: ((هو الرجل يؤتيه اللَّه الثروة من المال، فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه، ويحمل به الكَلَّ عن قومه))[1].

١٣-تفسير العرش بالعلم والقدرة، وهو تفسير كنائي في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧). إنَّ تفسير كلمةِ (العرش)[2] جاء في حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: في الصحيح عن أبي حمزة، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: ((حملة العرش، والعرش العلم، ثمانية: أربعة منَّا وأربعة ممَّن شاء اللَّه))[3]، ثمَّ يقول الشاهرودي: ((المراد بالأربعة الأخيرة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، والأربعة الأول: محمَّد، وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام، كما هو صريح الروايات المذكورة في البحار وفي الروايات الأخرى: حملة العرش ثمانية، لكلِّ واحدٍ ثمانية أعين، كلُّ عين طباق الدنيا يظهر من هذه الروايات المباركات أنَّ العرش اسم علم وقدرة، والرسول وخلفاؤه المعصومون (صلوات اللَّه عليهم) حملة عرشه، فهم حملة علمه وقدرته، وفي العرش تمثال ما خلق اللَّه))[4].

(١) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٧.
(٢) ينظر: الأمثل: ١٨/ ٥٩٠.
(٣) مستدرك سفينة البحار: ٧/ ١٥٦.
(٤) المصدر نفسه.

١٤-الشّح في اللغة هو حرص النّفس على ما ملكت وبخلها به[١]، فهو أشدُّ من البخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)

وقد رُوي عن الفضل بن أبي قرَّة السمندي أنَّه قال: قال لي أبو عبد اللَّه عليه السلام: ((أتدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل، فقال: الشحُّ أشدُّ من البخل، إنَّ البخيل يبخل بما في يده، والشحيح يشحُّ بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتَّى لا يرى في أيدي الناس شيئًا إلَّا تمنَّى أن يكون له بالحلِّ والحرام، ولا يقنع بما رزقه اللَّه عزَّ وجلَّ))[٢].

١٥-السميع: ذكر الحويزي[٣] أنَّه في كتاب الإهليلجة المنقول عن الصَّادق إنَّما سُمِّي سميعًا؛ لأنَّه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧)، يسمع دبيب النمل على الصفا وخفقان الطير في الهواء، لا يخفى عليه خافية، ولا شيء ممَّا أدركه الأسماع والأبصار، وما لا تدركه الأسماع والأبصار، ما حلَّ من ذلك وما دقَّ، وما صَغُر وما كَبُر.

١٦-دلالة لفظة (الشهداء) وهي دلالة سياقيَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وذكر الشيرازيُّ أنَّ المراد من (الشهداء) في الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يُفاد من الآيات القرآنيَّة

(١) ينظر: لسان العرب: ٢/ ٤٩٦.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٦٣.
(٣) ينظر: تفسير نور الثقلين: ٥/ ٢٥٨.

الأُخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال أُممهم، ورسول الإسلام شاهد عليهم وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة، والمسلمون أيضًا شهداء على أعمال الناس[1]، وبناءً على هذا، فإنَّ الشهادةَ على الأعمالِ مقامٌ عالٍ، يكون من نصيب المؤمنين.واحتُمل أنَّ ﴿شُهَدَاء﴾ هنا هو الشهداء في سبيل اللَّه سبحانه، أي الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر الشهادة وثوابها، يحسبون بمنزلة الشهداء، لذا ذُكِر في حديث أنَّ شخصًا ذهب إلى الإمام الصَّادق عليه السلام فقال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام: ((ادع اللَّه أن يرزقني الشهادة فقال: المؤمن شهيد، ثمَّ تلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (الحديد: ١٩)، وعن الإمام الصَّادق عليه السلام قوله لأبي بصير: ((يا أبا محمد! إنَّ الميِّت على هذا الأمر شهيد، قلت: جُعلت فداك وإن مات على فراشه؟ قال: وإن مات على فراشه، فإنَّه حيٌّ يُرزق))[2]، وذكر الشيرازيُّ من الطبيعيِّ أنَّه يمكن الجمع بين المعنيين، خصوصًا أنَّ القرآن الكريم أطلق مصطلح (شهيد وشهداء) في الغالب على الأعمال وما إلى ذلك[3].

١٧-تفسير (السابقون السابقون) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (الواقعة: ١٠) إنَّ اللَّه تعالى يصف المؤمنين الحقيقيِّين هنا بوصفين[4]: جاء في رواية عن أبي عبد اللَّه جعفر بن محمد الصَّادق عليه السلام: قال ((خرجت أنا وأبي ذات يوم إلى المسجد فإذا هو بأناس من أصحابه بين القبر والمنبر، قال: فدنا منهم وسلَّم عليهم، وقال: إنِّي واللَّه لأحبُّ ريحكم وأرواحكم فأعينوا على ذلك بورع واجتهاد، واعلموا أنَّ ولايتنا لا تُنال إلَّا بالورع والاجتهاد، من ائتمَّ منكم بقوم فليعمل بعلمهم. أنتم شيعة اللَّه، وأنتم أنصار اللَّه، وأنتم السابقون الأوَّلون، والسابقون الآخرون والسابقون في الدُّنيا إلى محبَّتنا، والسابقون في الآخرة إلى الجنَّة ضمنت

(١) ينظر: الأمثل: ١٨/ ٥٣.
(٢) ميزان الحكمة: ٢/ ١٥١٧.
(٣) ينظر: الأمثل: ١٨/ ٥٣.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٧/ ٤٥١.

لكم الجنَّة بضمان اللَّه ﷻ، وضمان النبيِّ ﷺ، وأنتم الطيِّبون ونساؤكم الطيِّبات))[١] فالسابقون السابقون ليس من التوكيد اللفظيّ كما هو عليه في اللغة، فلكلِّ لفظٍ دلالته الخاصَّة في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام.

١٨-النفاذ في اللغة بمعنى جواز الشيء والخلوص منه[٢]، وقد جاءت بمعنى الهبوط من أقطار السموات والأرض في يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)، وهناك من فسَّرها بلحاظ جملة: ﴿تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ إذ عدَّها إشارة إلى الرحلات الفضائيَّة التي يقوم بها الإنسان، وقد ذكر القرآن الكريم شروطها من القدرة العلميَّة والصناعيَّة، وقيل: إنَّ المقصود بالنفوذ هو النفوذ الفكريّ والعلميّ في أقطار السماوات، الذي يمكن للبشر إنجازه بواسطة القدرة الاستدلاليَّة[٣]، ورجَّح الشيرازيُّ التَّفسير الأوَّل ووصفه بالأنسب؛ إذ إنَّ بعض الأخبار التي نُقلت من المصادر الإسلاميَّة تؤيِّده[٤]، ومن جملتها حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام إذ يقول: ((إذا كان يوم القيامة جمع اللَّه العباد في صعيدٍ واحد، وذلك أن يوحي إلى السَّماء الدُّنيا أن اهبطي بمن فيك، فيهبط أهل السَّماء الدُّنيا بمثلي من في الأرض من الجنِّ والإنس والملائكة، ثمَّ يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرَّتين، فلا يزالون كذلك حتَّى يهبط أهل سبع سماواتٍ فيصير الجنُّ والإنس في سبع سرادقات من الملائكة، ثمَّ ينادي مناد: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣) فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواقٍ من الملائكة))[٥].

(١) فضائل الشيعة: ٨.
(٢) ينظر: لسان العرب: ٣/ ٥١٤.
(٣) الأمثل: ١٧/ ٤٠٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه .
(٥) بحار الأنوار: ٧/ ٨٠.

١٩-اللَّمَمَ في اللغة صغار الذنوب[١]، وجاء بمعنى الرجل، وبمعنى الذنب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: ٣٢)

هناك تفسيرات عدَّة لهذه الكلمة ﴿اللَّمَمَ﴾ في الرّوايات الإسلاميَّة، فقد جاء عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: ((اللمم الرجل يلمُّ به الذنب فيستغفر اللَّه منه))[٢]، وورد عنه أيضًا أنَّه قال: ((هو الذنب يلمُّ به الرجل فيمكث ما شاء اللَّه، ثمَّ يلمُّ به بعد))[٣].

٢٠-سدرة المنتهى تعبير تشبيهي في وصف الملائكة على أوراقها بالتسبيح أو تغطية الأمم في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: ١٥) جاء في اللغة ﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ شجرة في السماء السابعة لا يجاوزها ملك ولا نبيّ، وقد أظلَّت الماء والجنَّة، وقيل: إنَّها في أقصى الجنَّة إليها ينتهي علم الأوَّلين والآخرين ولا يتعدَّاها[٤]، وذكر الشيرازيُّ أنَّه لم يرد توضيحٌ عن سدرةِ المنتهى في القرآن الكريم، إلَّا أنَّ الأخبار والرِّوايات الإسلاميَّة ذكرت لها أوصافًا كثيرة، وجميعها كاشف عن أنَّ انتخاب هذا التعبير هو لبيان نوع من التشبيه، ولغاتنا قاصرة عن بيان هذه الحقائق الكبرى[٥]. ففي حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: ((رأيت على كلِّ ورقة من أوراقها ملكًا قائمًا يسبِّح اللَّه تعالى))[٦]. وجاء عن الإمام الصَّادق عليه السلام بروايته عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله أنَّه قال: ((انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلُّ أُمَّةً من الأُمم))[٧].

(١) ينظر: لسان العرب: ١٢/ ٥٤٩.
(٢) الكافي: ٢/ ٤٤٢.
(٣) شرح أصول الكافي: ١٠/ ١٨٢.
(٤) ينظر: لسان العرب: ٤/ ٣٥٥.
(٥) الأمثل: ١٧/ ٢٢١.
(٦) بحار الأنوار: ١٨/ ٢٨٩.
(٧) المصدر نفسه: ٥٥/ ٥١.

٢١-يعبدون بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)؛ إذ ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه حين سُئل عن الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال عليه السلام: ((خلقهم للعبادة))[١] وفي حديث آخر عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قال: ((إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ ما خلق العباد إلَّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه))[٢].

٢٢-تفسير الرحمن من الأسماء الخاصَّة باللَّه، قيل: إنَّ كلمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ اسم أعظم مثل كلمة اللَّه ((فإذا رجعنا إلى استعمالات هذا اللفظ في القرآن الكريم نرى أنَّه استُعمل مقرونًا بالتعظيم والتجليل بالنسبة إلى عالمي الدُّنيا والآخرة))[٣] و﴿الرَّحِيمِ﴾ صفة تُنسب للَّه وللعباد[٤] في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي رواية عن الإمام جعفر بن محمَّد الصَّادق عليه السلام قال: ((عن القاسم، عن جدِّه عن عبد اللَّه بن سنان، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: سألته عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: الباء بهاء اللَّه، والسين سناء اللَّه، والميم مجد اللَّه، وروى بعضهم ملك اللَّه، واللَّه إله كلِّ شيءٍ، الرحمن بجميع العالم، والرحيم بالمؤمنين خاصَّة))[٥].

وفي اللغة لفظ (الرحمن) من أبنية المبالغة، و(رحيم) فعيل بمعنى فاعل، ولا يجوز أن يُقال رحمن لغير اللَّه سبحانه، فالرحمن الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وقيل إنَّهما اسمانِ مشتقَّانِ من الرحمة، وقيل: (الرحمن) الرقيق، و(الرحيم) العاطف على خلقه بالرزق[٦]، ولذلك كانت دليلًا آخر على عموميَّة رحمته. وعدّ بعضهم[٧] (الرحيم) صفة مشبَّهة تدلُّ على الدوام والثبات، وهي خاصَّة بالمؤمنين.

(١) ميزان الحكمة: ١/ ٢٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ٢٣/ ٨٣.
(٣) مفردة (الرحمن) في القرآن، الشيخ فاضل علي الصددي، بحث منشور، مجلة رسالة القلم، العدد٣١، ١٢ - ٤ - ٢٠١٦م، ملف العدد المبعث والإسراء والمعراج.
(٤) ينظر: الأمثل: ١/ ٣٣.
(٥) بحار الأنوار: ٨٩/ ٢٣١.
(٦) ينظر: لسان العرب: ١٢/ ٢٣١.
(٧) ينظر: مفاهيم القرآن: ٦/ ٢٦٧، والأمثل: ١٧/ ٢٢١.

وثمَّة دليل آخر[1]، هو أنَّ (الرحمن) من الأسماء الخاصَّة باللَّه سبحانه، ولا تستعمل لغيره، بينما (الرحيم) صفة تُنسب للَّه سبحانه ولعباده، وقد وصف القرآن بها الرَّسولَ الكريم؛ إذ قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصَّادق عليه السلام فيما روي عنه: ((اَلرَّحْمنُ اسْمٌ خَاصٌّ بِصِفَةٍ عَامَّة، وَالرَّحِيمُ عَامٌّ بِصِفَةٍ خَاصَّة))[2]. ومع كلِّ هذا، نجد كلمة (الرحيم) تستعمل أحيانًا كوصف عام. وهذا يعني أنَّ التمييز المذكور بين الكلمتين إنَّما هو في جذور كلٍّ منهما، ولا يخلو من استثناء[3]، فقد وردت في دعاء عرفة المنقول عن الحسين بن علي عليه السلام عبارة: ((يَا رَحْمنَ الدُّنْيا وَالْاٰخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا))[4].

٢٣-اشتقاق لفظ الجلالة (اللَّه): اختُلف في أصل اشتقاق هذا الاسم فقيل: من (أله)، وقيل: من (لاه)، وقيل: إنَّه اسم جامد مرتجل ليس بمشتق ألبتَّة، وقيل: اسم علم، ورُجِّحَ اشتقاقه من (أله)[5]، وهذا يوافق ما جاء في قول الإمام الصَّادق عليه السلام: ((اللَّه مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهًا، والاسم غير المسمَّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئًا، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد))[6].

٢٤-صبغة اللَّه بمعنى الإسلام في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨)؛ إذ ورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام: ((أَنَّ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ هِيَ الْإِسْلَام))[7]، كان اليهود وغيرهم يحاجُّون المسلمين بصور

(١) ينظر: الأمثل: ١٧/ ٢٢١.
(٢) تفسير نور الثقلين: ١/ ١٤.
(٣) ينظر: الأمثل: ١٧/ ٢٢١.
(٤) إقبال الأعمال: ١/ ٢٥٦.
(٥) ينظر: أصل لفظ الجلالة (اللَّه) عند سيبويه، أ.د. عبد اللَّه أحمد جاد الكريم حسن، بحث، معهد سيبويه للغة العربية، ٢٩- ١٢- ٢٠١٤م.
(٦) ميزان الحكمة: ٢/ ١٣٦٦.
(٧) المصدر نفسه: ٢/ ١٣٣٨.

شتَّى، فكانوا يقولون: إنَّ جميع الأنبياء مبعوثون منَّا، وإنَّ دينَنا أقدمُ الأديان، وكتابَنا أعرقُ الكتب السماويَّة[١].

٢٥-لذَّة النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يزيل التعب والعناء، وهذا نوع من الدَّلالة النفسيَّة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)، إذ فسَّر الشيرازيُّ فلسفة هذه العبادة التربويَّة في عبارةٍ قليلة الألفاظ، عميقة المحتوى؛ إذ تبتدئ الآية أوَّلًا بأُسلوبٍ خطابي وتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو نداء يفتح شغاف القلب، ويرفع معنويَّات الإنسان، ويشحذ همَّته، وفيه لذَّةٌ قال عنها الإمام الصَّادق عليه السلام: ((لَذَّةُ مَا فِي النِّدَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَزَالَ تَعَبَ الْعِبَادَةِ وَالْعَنَاءِ))[٢]، وهذا الخطاب خاصٌّ بالمؤمنين تكريمًا لهم على أنَّ الحكمَ عامٌّ، ففي الحديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام لذَّة هذا النداء أزال تعب العبادة والعناء، ((وأنَّ في الغاية التي لوَّحت إليها الآية الشريفة ما تستريح إليه نفس العارف دلالة، ويملؤها إيمانًا بأنَّ الصيام من أشرف العبادات غاية، وأجلبها نفعًا، وشرف العمل بشرف غايته، يدلُّ على هذا الطلب الجميل بهذا الأسلوب الفذِّ، وهذه الصورة الرائعة أنَّ الصوم جنَّة يُتقى بها أسوأ الأضرار الدنيويَّة والأخرويَّة))[٣].

٢٦-الكفر بمعنى ترك الحجِّ في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

وللتأكيد على أهميَّة الحجِّ قال سبحانه في ذيل الآية السابقة: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنَّ الذين يتجاهلون هذا النداء، ويتنكَّرون لهذه الفريضة، ويخالفونها لا يضرُّون بذلك إلَّا أنفسهم؛ لأنَّ اللَّه سبحانه غنيٌّ عن العالمين، فلا

(١) ينظر: الأمثل: ١/ ٣٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٥١٨.
(٣) شرح رسالة الحقوق: ٣٦٦.

يصيبه شيء بسبب إعراضهم ونكرانهم وتركهم لهذه الفريضة[1].

إنَّ لفظة (كفر) تعني في اللغة الستر والتغطية[2]، وأمَّا في المصطلح الدِّيني فتعطي معنًى أوسع، فهي تعني كلَّ مخالفةٍ للحقِّ، وكلَّ جحدٍ وعصيان سواء أفي الأُصول والاعتقاد، أم في الفروع والعمل، فلا تدلُّ كثرة استعمالها في الجحود الاعتقاديّ على انحصار معناه في ذلك، ولهذا استعملت في (ترك الحجّ)؛ ولذلك فُسِّرَ الكفر في هذه الآية عن الإمام الصَّادق عليه السلام بترك الحجِّ[3].

٢٧-السَّفيه في اللغة الخفيف العقل[4]، وجاء بمعنى شارب الخمر، وهو تفسير كنائي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥)، ففي رواية عن الإمام الصَّادق عليه السلام نقرأ أنَّ شخصًا يُدعى (إبراهيم بن عبد الحميد) يقول: سألت أبا عبد اللَّه عن قول اللَّه سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: ((كلُّ من يشرب المسكر فهو سفيه فلا تعطوهم أموالكم))[5].

٢٨-الكسوة في اللغة بمعنى اللباس[6]، وقد جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

(١) ينظر: الأمثل: ٢/ ٦١٠.
(٢) ينظر: لسان العرب: ٥/ ١٤٤.
(٣) ينظر: الأمثل: ٢/ ٦١٠.
(٤) ينظر: لسان العرب: ١٣/ ٤٩٩.
(٥) بحار الأنوار: ١٠٠/ ١٦٥.
(٦) ينظر: لسان العرب: ١٥/ ٢٢٣.

وقد ذكرت الرِّوايات أنَّ الإمام الصَّادق عليه السلام بيَّن أنَّ المقصود بالكسوة في هذه الآية قطعتا اللباس (الثوب والسروال)، أمَّا الرواية المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام بأنَّ ثوبًا واحدًا يكفي، فربَّما تكون إشارة إلى الثوب العربي الطويل المعروف، الذي يكسو الجسم كلَّه، أمَّا بشأن النسوة فلا شكَّ أنَّ ثوبًا واحدًا لا يكفي؛ بل لا بدَّ من غطاء للرأس والرقبة، وهذا هو الحدُّ الأدنى لكسوة المرأة، لذلك لا يُستبعدُ أن تكونَ الكسوةُ التي تُعطى كفَّارةً تختلفُ -أيضًا- باختلاف الفصولِ والأمكنةِ والأزمنة[1].

٢٩-فسَّر معنى الماء بالحياة، وهو تفسير كنائي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

في حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّ رجلًا سألَه: ما طعم الماء؟ فقال الإمام: ((أوَّلا: سل تفقُّهًا ولا تسأل تعنُّتًا -ثمَّ أضاف - طعم الماء طعم الحياة! قال اللَّه سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾))[2]، ولا سيَّما عندما يصل الإنسان إلى الماء السائغ بعد عطش طويل في الصيف، وفي ذلك الهواء المحرق، فإنَّه حينما تدخل أوَّل جرعة ماء إلى جوفه يشعر أنَّ الروح قد دبَّت في بدنه، وفي الواقع أراد الإمام عليه السلام أن يجسِّد الارتباط والعلاقة بين الحياة والماء بهذا التعبير الجميل[3].

٣٠-حفظ الفرج بمعنى الغطاء عن الأنظار، وهو تفسير كنائيّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠). القصد من حفظ الفرج -بحسب ما ورد في الأحاديث- هو تغطيته عن الأنظار[4]، وقد جاء في حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام قوله: ((كلُّ آيةٍ في القرآن في ذكر الفروج فهي من الزنا إلَّا هذه الآية، فإنَّها من النظر، فلا يحلُّ لرجلٍ مؤمنٍ أن ينظرَ إلى فرجِ أخيه، ولا يحلُّ للمرأةِ أن تنظرَ إلى فرجِ أختِها))[5].

(١) ينظر: الأمثل: ٤/ ١٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ٦٣/ ٤٤٧.
(٣) ينظر: الأمثل: ١٠/ ١٥٧.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٧٤.
(٥) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٢٩٠.

٣١-بلغ أشدَّه، أي ثمانية عشر عامًا، واستوى بمعنى التحى، وهو تفسيرٌ كنائيٌّ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص: ١٤)، ونقرأ في حديثٍ عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه قال: ((أشدَّه ثمان عشرة سنة واستوى، التحى))[١].

٣٢-معنى أشرقت الأرض، ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه وهو تفسيرٌ كنائيٌّ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩)، وتأكيدًا لهذا المعنى، وهو عند ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه تصبح الدنيا أنموذجًا حيًّا من مشاهد القيامة؛ إذ يملأ هذا الإمام بالحقِّ ونائب الرَّسول الأكرم وخليفة اللَّه سبحانه الأرضَ بالعدل إلى الحدِّ الذي ترتضيه الحياة الدنيا. ونقل المفضَّل بن عمر عن الإمام الصَّادق عليه السلام ((إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربِّها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظُّلمة))[٢].

٣٣-تفسير الحروف المقطَّعة في أوائل السِّور عند الإمام الصَّادق عليه السلام، وهو تفسير دَلاليّ لكلِّ حرف، أراه خاصًّا بأهل البيت عليهم السلام فالحروف المقطَّعة في أوائل السِّور التي هي نوع من الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم، التي لا يقوى أحدٌ من البشر على تفسيرها، فعلمها عند اللَّه تعالى ومن أذن لهم، وما ورد من أقوالٍ عنها فهي احتمالات، وقد ورد عن سفيان بن السعيد الثوري، قال: ((قلت لجعفر بن محمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: يا ابن رسول اللَّه ما معنى قول اللَّه عزَّ وجلَّ: «ألم» و«المص» و«الر» و«المر» و«كهيعص» و«طه» و«طس» و«طسم» و«يس» و«ص» و«حم» و«حمعسق» و«ق» و«ن»؟ قال عليه السلام: أما «ألم» في أوَّل البقرة فمعناه: أنا اللَّه الملك، وأمَّا «ألم» في أوَّل آل عمران فمعناه: أنا اللَّه المجيد، و«المص» فمعناه: أنا اللَّه المقتدر الصَّادق، و«الر» فمعناه: أنا اللَّه الرؤوف،

(١) معاني الأخبار: ٢٢٦.
(٢) بحار الأنوار: ٥٢/ ٣٣٧.

و«المر» فمعناه: أنا اللَّه المحيي المميت الرَّازق))[١]، وهناك احتمال في أنَّ حرف «الحاء» يشير إلى الحاكميَّة، فيما يشير حرف «الميم» إلى المالكيَّة الإلهيَّة[٢].

٣٤-معنى استجابة الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّه سُئل: أليس يقول اللَّه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد نرى المضطرَّ يدعوه ولا يُجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوِّه فلا ينصره؟ قال: ((ويحك! ما يدعوه أحدٌ إلَّا استجاب له، أمَّا الظالم فدعاؤه مردودٌ إلى أن يتوب، وأمَّا المحقُّ فإذا دعا استجاب له وصرف عنه البلايا من حيث لا يعلمه، أو ادَّخر له ثوابًا جزيلًا ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيرًا له إن أعطاه أمسك عنه))[٣]. وقد وصف الشيرازيُّ هذا الحديث بالجامع[٤]، وقال عليُّ بن إبراهيم: قال رجلٌ للصادق عليه السلام: ((يقول اللَّه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنَّا ندعوا فلا يُستجاب لنا؟ فقال: إنَّكم لا توفون للَّه بعهده؛ فإنَّه تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، واللَّه لو وفيتم للَّه سبحانه لوفى لكم))[٥].

٣٥-معنى الحسنة التقيَّة، والسيِّئة الإذاعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤). في حديث عن الإمام الصَّادق أنَّه عليه السلام قال في تفسير الآية السابقة: ((الْحَسَنَةُ: التَّقِيَّةُ، وَالسَّيِّئَةُ: الْإِذَاعَةُ))[٦]، وفي حديث آخر عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ((﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال: الحسنة التقيَّة،

(١) معاني الأخبار: ٢٢.
(٢) ينظر: الأمثل: ١٥/ ١٧٩.
(٣) الاحتجاج: ٢/ ٨٧.
(٤) ينظر: الأمثل: ١٥/ ٣٠٢.
(٥) بحار الأنوار: ٦٦/ ٣٤١.
(٦) الكافي: ٢/ ٢١٧.

والسيئة الإذاعة، وقوله عز وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ قال: التي هي أحسن التقيَّة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾))[1].

ويرى الشيرازيُّ أنَّ هذا الحديث الشريف ناظرٌ إلى الموارد التي تكون فيها الإذاعة سببًا في إتلاف الطَّاقات والملاكات الجيدة وإفشاء الخطط للأعداء، ثمَّ تضيف الآية: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[2].

٣٦-معنى (فضله) الشَّفاعة في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور: ٣٨). فقد روى ابن مسعود عن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنَّه قال في قوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممَّن صنع إليه معروفًا في الدُّنيا[3]، جاء في حديثٍ عن الإمام الصَّادق عليه السلام عن الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تفسير: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: ((الشفاعة لمن وجبت له النَّار ممَّن أحسن إليهم في الدُّنيا))[4]، وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: ((ما أحد من الأوَّلين والآخرين إلَّا وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة))[5]، وعنه عليه السلام لمَّا سُئل عن المؤمن، هل له شفاعة؟ قال: ((نعم، فقال له رجلٌ من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يومئذ؟ قال: نعم، إنَّ للمؤمنين خطايا وذنوبًا، وما من أحدٍ إلَّا يحتاج إلى شفاعة محمَّد يومئذ))[6].

٣٧-معنى حبل الوريد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦) جاء عن محمد بن مسلم قوله: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: رأيت ابنك موسى يصلي والناس يمرون بين يديه، فلا ينهاهم، وفيه ما فيه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ((ادعوا لي موسى،

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٤٢٨.
(٢) ينظر: الأمثل: ١٥/ ٤٠٦.
(٣) ينظر: تفسير مجمع البيان: ٨/ ٢٤٣.
(٤) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٥٧٩، الأمثل: ١٥/ ٥٣١.
(٥) تفسير القمِّي: ٢/ ٢٠٢.
(٦) ميزان الحكمة: ٢/ ١٤٧٤.

فدُعِي، فقال له: يا بني إنَّ أبا حنيفة يذكر أنَّك كنت تصلي والناس يمرُّون بين يديك فلم تنههم فقال: نعم يا أبت، إنَّ الذي كنت أصلي له كان أقرب إليَّ منهم، يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ قال: فضمَّه أبو عبد اللَّه عليه السلام إلى نفسه ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي يا مودع الأسرار))[1]، وفسَّر الوريد في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الوريد عرق متفرِّق في البدن فيه مجاري الدم، وقيل: هو العرق الذي في الحلق، وكيف كان فتسميته حبلًا لتشبيهه به، وإضافة حبل الوريد بيانيَّة، والمعنى: نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، المخالط لأعضائه، المستقر في داخل بدنه، فكيف لا نعلم به وبما في نفسه؟[2].

(١) بحار الأنوار: ٤٨/ ١٧١.
(٢) ينظر: تفسير الميزان: ١٨/ ٣٤٧.

الخاتمة:

١- تنوَّعت الدلالات اللغويَّة في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام؛ إذ جمعت بين الدلالة النحوية والصرفية، والسياقية، والبلاغية.

٢- اعتمد الإمام الصَّادق عليه السلام مناهج عدَّة بحسب بيان المقصود من الآيات القرآنيَّة، فأحيانًا يعتمد الإيضاح اللفظي فقط؛ منها بيان معنى (صبغة) بمعنى الدين، وأحيانًا يعتمد الإيضاح الصرفي مثل اشتقاق لفظ الجلالة (اللَّه) وبيان الفرق بين صيغتي (الرحمن) و(الرحيم) وأحيانًا يجتمع الايضاح النحوي والدلالة الإيحائية كما في بيان معنى قوله تعالى في أوائل بعض السور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ اجتمع النداء مع بيان ما في هذه المفردات من آثار نفسيَّة على المتلقِّي، وأحيانًا يعتمد الإيضاح البلاغي كما في بيان معنى السميع في صفات اللَّه تعالى، والإيضاح الدلالي في بيان معنى الألفاظ مثل أشرقت الأرض أي بنور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، والنبأ العظيم بالولاية، والفسق بالكفر، وغيرها من المفردات التي عرضتها الدراسة.

٣- يذكر الإمام عليه السلام احيانًا الآية كاملة، أو لفظ من الآية، أو الاستعانة بحديث لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله.

٤- بحسب اطلاعي البسيط لم أجد ذكرًا للدلالة الصوتية في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام عدا الحروف المقطعة في أوائل السور.

٥- وجدت في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام مصطلحات كنائيَّة مثل حديث (الإهليجة) الذي يرمز إلى رسالة التوحيد التي كتبها الإمام الصَّادق عليه السلام إلى تلميذه المفضل بن عمر الجعفي في مواجهة الملحدين ويحتج بالبراهين عليهم، وهو ما يعرف في الدراسات اللغويَّة المعاصرة بعلم العلامات (السيميائيَّات).

٥- اتَّسم التَّفسير اللغوي في روايات الإمام الصَّادق عليه السلام بالشموليَّة في بيان مقاصد الآيات القرآنيَّة التي وردت فيها الدلالات اللغويَّة المختلفة، والتي بيَّنها الإمام الصَّادق عليه السلام أحيانًا للسائل، وأحيانًا أخرى يستعين بها المفسِّر لبيان المقصود في الآيات القرآنيَّة أو المفردات القرآنيَّة، بل حتى في بيان فضل بعض السور والآيات، وفضل البسملة، ومعاني الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور.

٦- تبيَّن أنَّ (السابقون السابقون) ليس من التوكيد اللفظي كما هو عليه في اللغة، فلكلِّ لفظ دلالته الخاصة في تفسير الإمام الصَّادق عليه السلام؛ فالسابقون في الدنيا إلى محبَّة أهل البيت عليهم السلام، والسابقون في الآخرة إلى الجنَّة.

٧- يجب اعتماد تفسير أهل البيت عليهم السلام في القضايا الإعجازيَّة، ولا سيَّما الحروف المقطَّعة في أوائل السور التي فسَّرها الإمام الصَّادق عليه السلام تفسيرًا دلاليًّا، فكلُّ حرف له دلالة.

٨- جاءت بعض الألفاظ في التَّفسير مطابقة للدلالة اللغويَّة منها (الكسوة) بمعنى الغطاء، ومنها اتسمت باتساع الدلالة اللغويَّة منها (اللمم) بمعنى الذنب ومعنى الرجل.

٩- أقصد بالتَّفسير اللغوي في روايات الإمام الصَّادق عليه السلام ما استعان به المفسِّر من روايات في بيان مقاصد القرآن الكريم، وكانت الدلالة اللغويَّة واضحة فيها، فليس هناك تفسيرٌ لغويٌّ خاصٌّ بالإمام الصَّادق عليه السلام، ولعلَّ السِّرَّ الإعجازيَّ في ذلك هو أن تكون العترة الطاهرة ملازمة للقرآن الكريم في كلِّ زمان ومكان، ونحن المتمسِّكون بهما وننهل من علمها ونعود إليه، وهو مصداق لحديث الثقلين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت: ٦ق هـ)، تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٢- إقبال الأعمال، السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٣- الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزَّل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ط١، ١٤٢٦هـ.

٤- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي(ت: ١١١١هـ)، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني، عبد الرحيم الرباني الشيرازي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥- التبيان، أبو جعفر محمد المعروف بشيخ الطائفة والشيخ الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، ط١، ١٤٠٩هـ.

٦- تبيين القرآن، السيد محمد الحسيني الشيرازي(قدس)، مكتبة مدرسة الفقاهة.

٧- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس،١٩٨٤م.

٨- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي (ت: ٣٢٠هـ).

٩- التَّفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد بن سليمان ناصر الطيارْ، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٣٢هـ.

١٠- تفسير سورة الفاتحة، جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات.

١١- تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان، ط٤، ١٤١٢ق،١٣٧٠هـ.

١٢- الجنى الداني في حروف المعاني، حسن بن قاسم المرادي (ت:٧٤٩هـ)، تحقيق: فخر الدين قباوة و أ. محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

١٣- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، ط٤، ١٣١٨هـ.

١٤- شذا العرف في فن الصرف: الشيخ، أحمد الحملاوي (ت: ١٣١٥هـ)، تحقيق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ -٢٠٠٥م.

١٥- شرح أصول الكافي، مولي محمد صالح المازندراني، تحقيق: الميرزا أبو محمد الشعراني، ضبط وتصحيح: السيد علي عاشور، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٦- شرح رسالة الحقوق، للإمام زين العابدين عليه السلام، تحقيق وشرح: حسن السيد علي القبانجي، مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر، اسماعيليان، قم، ١٤٠٦هـ.

١٧- الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت عليهم السلام: الجزيري، الغروي، مازح، ط١، ١٤١٩- ١٩٩٨م.

١٨- القرآن في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، السيد هاشم الموسوي، مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، ط١، ٢٠٠٠م.

١٩- الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني(ت: ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٥، ١٣٦٣ ش.

٢٠- كنز الدقائق وبحر الغرائب، الميرزا محمد المشهدي القمي، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٧هـ.

٢١- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصَّادق العبيديّ، دار صادر-بيروت، لبنان، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨.

٢٢- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه: هاشم الرسولي المحللاتي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٢٣- محمد باقر الصدر، دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين، دار الإسلام، ط١.

٢٤- المدخل إلى علوم التَّفسير، الدكتور فاروق حمادة، مكتبة المعارف.

٢٥- مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٢٦- معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ١٣٧٩هـ- ١٣٣٨ش.

٢٧- مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصَّادق، ط٣.

٢٨- من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٢، ١٣٧٩هـ-١٣٣٨ش.

٢٩- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، الشيخ هادي النجفي، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، تحقيق: دار الحديث، ط١، (د.ت)

٣١- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٩٩٧م.

٣٢- الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٣٣- وسائل الشيعة، الحر العاملي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ.

المجلات والدوريات:

١. أثر الدلالة اللغويَّة في التأويل عند المفسرين، د.كمال أحمد فالح المقابلة (بحث منشور) المجلد الخامس، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت عمادة البحث العلمي، الأردن، العدد (٣/ ب)١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

٢. أصل لفظ الجلالة (اللَّه) عند سيبويه، أ.د. عبد اللَّه أحمد جاد الكريم حسن، بحث، معهد سيبويه للغة العربية، ٢٩- ١٢- ٢٠١٤م.

٣. مفردة (الرحمن) في القرآن، الشيخ فاضل علي الصددي، بحث، مجلة رسالة القلم، العدد٣١، ١٢- ٤- ٢٠١٦م، ملف العدد المبعث والإسراء والمعراج.

قال الأمام الصادق عليه السلام

(الْحَافِظُ لِلْقُرْآنِ، الْعَامِلُ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ)

الكافي: 2/ 603

آياتُ الأنفُس في القُرآنِ الكَريمِ – دِرَاسةٌ تحليليَّةٌ

أ. م. دَ. خالد عبدَ النبي عيدانَ الأسدي

كلية العلوم الإسلاميَّة/ جامعة كربلاء

Asst. Prof. Dr. Khalid Abdul Nabi Aidan Al-Asadi

(College of Islamic Sciences /University of Karbala)

الملخَّص:

البحث في كتاب اللَّه العزيز فضل من اللَّه تعالى على عباده، وهذا لا يناله إلَّا ذو حظٍّ عظيم، ومن أراد أن يسبر غور هذا المنجم العلميِّ عليه أن يقطع من وقته ويتخلَّى عن انشغالاته الدنيويَّة، فكم يعطي للقرآن من وقته؛ سيُعطيه القرآن الكريم من أسراره، ولذا انبرى كثيرٌ من العلماء إلى تدارس العلم واستنباطه من كتاب اللَّه المجيد.

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنفد علومه، ففي كلِّ آيةٍ من آياته من الأسرار ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وقد اختصَّ هذا البحث بلفظ (الأنفس) المجردة من كلِّ إضافةٍ وبجمعها المعروف بجمع القلَّة على وزن (أَفْعُل)، في محاولةٍ لتأصيل معنى هذه اللفظة القرآنيَّة، وتفسير الآيات التي وردت فيها، وتبيان اختلاف معانيها في سياقاتها عند مدرسة الصحابة، وموازنة ذلك بما ورد عند أهل البيت عليهم السلام.

الكلمات المفتاحيَّة: آيات الأنفس، القرآن الكريم، دراسة تحليلية.

Abstract

Researching the Holy Book of Allah is a divine favor granted to His servants, providing them with the grace to study and delve into its majestic contents. Such an endeavor is only achieved by those endowed with great fortune. Whoever seeks to explore the depths of this vast source of knowledge must dedicate time and set aside worldly distractions. The time one devotes to the Quran will be reciprocated with revelations of its secrets. For this reason, many scholars have committed themselves to studying and extracting knowledge from the Book of Allah.

The wonders of the Holy Quran never cease, and its sciences are inexhaustible. Each verse holds secrets unseen by any eye and beyond human imagination. This study focuses on the term “anfus” (selves), detached from any addition and in its plural form known as the “plural of paucity” (on the pattern af‘ul). The aim is to establish the foundational meaning of this Quranic term, interpret the verses in which it appears, and explore the varied meanings in their contexts as understood by the School of the Companions, comparing these interpretations with those provided by the Ahl al-Bayt (peace be upon them).

Keywords: verses of the self, Holy Quran, analytical study.

المقدِّمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه وحافظ سرِّه، ومبلِّغ رسالاته محمد بن عبد اللَّه، وعلى آله الغرِّ الميامين الطيبين الطاهرين، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وبعد

فالكتابة في آيات اللَّه سبحانه ميدان رحب، يزيد متأمِّله معرفة وعلمًا؛ إذ لا أجدى من استثمار الوقت في دراسة آيات كتاب اللَّه العزيز، الذي مهما اجتهد الباحثون في استخلاص درره ونكاته العلميَّة يبقَ في طياته كثير، وقد يممت وجهي شطره علِّي بتأملي هذا أبلغ مبتغى الغاية، وأنال ثواب المتدبِّرين.

وقد اختصَّ هذا البحث بلفظ (الأنفس) المجردة من كلِّ إضافةٍ وبجمعها المعروف بجمع القلَّة على وزن (أَفْعُل)، في محاولة لتأصيل معنى هذه اللفظة القرآنيَّة، وتفسير الآيات التي وردت فيها، وبيان اختلاف معانيها في سياقاتها عند مدرسة الصحابة، وموازنة ذلك بما ورد عند أهل البيت عليهم السلام.

وقد توزَّع البحث على تمهيدٍ وأربعة مباحث، حملت عنوانات الآيات المباركة التي بُحث فيها اللفظ، ففي التمهيد: درسنا مفهوم النفس وماهيَّتَها، والروحَ وماهيَّتَها، وأقسامَهما، والفرق بينهما. وقد تكلَّم المبحث الأوَّل عن مفهوم البلاء بنقص الأنفس، وأثر ذلك في المجتمع. و بيَّن المبحث الثاني عبارة (شُحَّ الأنفس) وماهيَّته، وما آل إليه هذا المركَّب. و تكلَّم المبحث الثالث عن استيفاء اللَّه عز وجل للأنفس. أمَّا المبحث الرابع: فتخصَّص بما تشتهيه الأنفس في الجنَّة. وانتهى البحث بخاتمة حملت أبرز نتائج البحث، ثمَّ قائمة بالمصادر التي كانت الروافد المعرفيَّة للبحث. والحمد للَّه ربِّ العالمين.

تمهيد:

منذ أن أنْزل اللَّه تعالى القرآن الكريم على خير خلقه وحافظ سرِّه ومبلِّغ رسالاته محمد بن عبد اللَّه ﷺ؛ أعجبَ العربُ ببلاغته وفصاحته، فقد هزَّ كيانهم وأسكتهم دهرًا من الزمن، حتَّى رَوَوا ((في قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ حِينَ جَاءَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرِ بنِ حَرْبٍ، والأَخْنَسِ بْنُ شَرِيْقٍ، وَلَا يَشْعُرُ واحدٌ مِنْهُمْ بِالْآخَرِ. فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَمِ الصُّبْحُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ لِلْآخَرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ لَهُ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا، لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتِنُوا بِمَجِيئِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ كُلٌّ مِنْهُمْ ظَنًّا أَنَّ صَاحِبَيْهِ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَجْمَعُوا جَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا. فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ جَاؤُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا))[1] وكيف لا وهو في أعلى وأسنى وأطيب ما سَمِعَتْ الأذن، وما خطر على قلب بشر!؛ ولذلك صمتَ مَن صمت، وأُعجب فيه الكثير، وقد وفَّق اللَّه تعالى عباده الذين اختارهم لحمل علمه وأسرار كتابه للبحث فيه، وتدارسه وكشف مكامنه الثريَّة، ونشرها في أوساط خلقه، فمنهم مَن انبرى لتفسيره، ومنهم مَن حاول جاهدًا كشف القواعد العامَّة لأصوله ونحوه، ومنهم مَن أجال نظره فيه لكشف جمال بلاغته.

ومن جماليَّات التحليل القرآنيّ؛ ما جاء في آيات الأنفس المباركة: وهي الآيات القرآنيَّة التي جاءت فيها كلمة (الأنفس) بصيغتها الجمعيَّة بجمع القلَّة التي هي على وزن (أفْعُل) مجرَّدة من أيِّ إضافة؛ أي: مجرَّدة من ضمير الجمع (هم) و(هُنَّ) وغيرها من الإضافات، ولسبر غور هذه الآيات المباركة؛ لا بدَّ من بيان المعاني اللغويَّة والاصطلاحيَّة لمفردات العنوان، وبوساطتها نفكُّ شفرات ما قد يُستغلق داخل مباحث البحث.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٥١.

المطلب الأوَّل: الأنفس مفهومها وأقسامها:

مفهوم الأنفُس:

جمعُ قلَّةٍ على وزن (أَفْعُل)، مفردها (نفس) وهي مصطلح خاصٌّ لما أطلقَ عليه من ذاتيَّة المُحرِّك العام لجسم الإنسان ((والنَّفَسُ: التَّنَفُّسُ، أي: خروج النَّسيم من الجَوْف، وشَرِبْتُ الماءَ بنَفَس، وثلاثة أَنفاس. وكلُّ مُستَراح منه نَفَسٌ. وشيءٌ نَفيسٌ: مُتَنافَسٌ فيه. ونَفِسْتَ به عليّ نَفَسًا ونَفاسةً: ضَنِنْت. ونَفُسَ الشَّيْءُ نَفاسةً، أي: صار نَفيسًا، وهذا المكانُ أَنْفَسُ من ذاك))[1] أي صار عزيزًا وغاليًا. و((النَّفْسُ: العَظَمة والكِبْر. والنَّفْسُ: الْعِزَّة. وَالنَّفس: الهِمَّة، والنَّفْسُ: الأنفة، والنَّفْس: عَينُ الشَّيْء، وكُنْهُه وجَوهَرُه، والنفسُ: العينُ الّتي تُصيب المَعينَ، والنفسُ: الدَّم. والنَّفْس: قَدْرُ دَبْغة. والنَّفْس: الماءُ))[2]، فكلُّ شيء ثمينٌ فهو نفيس.

وقد أطلق عليها بعضهم (المُخبتة)؛ لأنَّها لم تكن محسوسة أو ملموسة لحواسِّ الإنسان[3]، ومنهم مَن قال: ((إنَّ (النَّفْسَ) يعني القلب (لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) للجسد يعني بالإثم))[4]، ومنهم مَن توسَّع في ذلك فجعلها لفظًا دالًّا على كلِّ الإنسان[5]، ومنهم مَن رادف بينها وبين الرُّوح[6]؛ فقد اختلط مفهوم النفس عند المفسِّرين وعلماء الحديث الذين نظروا إلى اللفظ من زاوية سياقٍ واحد.

ماهيَّة النفس في فكر أهل البيت عليهم السلام جاء مفهوم النَّفس وبيان ماهيَّتها عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بما رواه كميل بن زياد النخعي رضي الله عنه،

(١) ينظر: العين: ٧/ ٢٧١.
(٢) تهذيب اللغة: ١٣/ ٨.
(٣) يُنظر: تفسير مجاهد: ١/ ٧٢٨.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/ ٣٤٠.
(٥) يُنظر: معاني القرآن، الأخفش الأوسط: ٢/ ٤١٩.
(٦) يُنظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ١١٨.

قال: ((سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين أريد أن تعرِّفني نفسي، قال: يا كميل وأيُّ الأنفس تريد أن أعرِّفك؟ قلت: يا مولاي وهل هي إلّا نفسٌ واحدة؟ قال: يا كميل إنَّما هي أربعة: النامية النباتيَّة، والحسيَّة الحيوانيَّة، والناطقة القدسيَّة، والكليَّة الإلهيَّة، ولكلٍّ واحدةٍ من هذه خمس قوى وخاصيَّتان: فالنامية النباتيَّة لها خمس قوى: جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ومربيَّة، ولها خاصِّيتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد، والحسيَّة الحيوانيَّة لها خمس قوى: سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس، ولها خاصِّيتان: الشهوة والغضب، وانبعاثها من القلب، والناطقة القدسيَّة لها خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنّفوس الملكيَّة، ولها خاصيَّتان: النزاهة والحكمة، والكليَّة الإلهيَّة لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلٍّ، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيَّتان: الرضاء والتسليم: وهذه التي مبدأها من اللَّه وإليه تعود، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر: ٢٩)، وقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٨)، والعقل وسط الكلِّ))[١]، فما خفي عن الناس نجده عند باب مدينة العلم الذي لا يُؤتى إلّا منه، ومَن غير أمير المؤمنين عليه السلام يأتي بالقول الفصل؟!.

*** أنواع النفس في القرآن الكريم: أمَّا أنواع النفس فهي[٢]:**

١. النفس الأمَّارة بالسوء: وهي التي تأمر الإنسان بالسيِّئات، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

٢. النفس اللَّوَّامة: وهي التي تندَم بعد ارتكاب المعاصي والذنوب فتلوم نفسها، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢).

(١) ينظر: شرح أصول الكافي: ٣/ ٣٨١.
(٢) ينظر: استنباط أنواع النفس من القرآن الكريم للباحث.

٣. النفس المطمئنَّة: وهي النفس الآمنة التي لا يستفزُّها خوف ولا حزن، وهي الواصلة إلى مرحلة الاطمئنان والراحة والطاعة التامَّة لأوامر اللَّه تعالى، والمشمولة بعناياته الربانيَّة، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر: ٢٧).

٤. النفس الراضية: وهي النفس التي رضيت بما أوتيت، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٨).

٥. النفس المرضيَّة: وهي النفس التي رضي اللَّه ﷻ عنها، وقد قال فيها القرآن الكريم: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٨).

٦. النفس المُلهَمَة: وهي النفس التي ألهَمَها اللَّه ﷻ، وهي التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨).

والفرق بين الأنواع والماهيَّة واضحٌ: أي أنَّ الأنواع تكون إحداها في ذات الشخص، في حين أنَّ الماهيَّة ((وهي تقسيمات الإمام علي عليه السلام تكون كلَّها في جميع الأنواع؛ أي: كلُّ نوع من الأنواع المذكورة في القرآن الكريم يحتوى على جميع التقسيمات من الماهيَّة))[١].

(١٠) تفسير نور الثقلين: ١/ ٩٦.

المطلب الثاني: مفهوم الروح

مفهوم الروح في فكر أهل البيت عليهم السلام:

رادف العلماء بين الروح والنَّفس ـ كما تقدَّم ـ في حين فرَّق الإمام الباقر عليه السلام بينهما؛ فجاء: ((عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر إنَّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح، روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوَّة، وروح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثَّرى، ثمَّ قال: يا جابر إنَّ هذه الأربعة الأرواح يصيبها الحدثان إلَّا روح القدس فإنَّها لا تلهو ولا تلعب))[1] فيشترك الناس في أربع منها، وروح القدس تكون خاصَّة في الأنبياء والأوصياء، ومن ذلك صار الفرق واضحًا بين الروح والنفس؛ فلا ترادف بينهما.

ولتوضيح الفرق بين الروح والنفس أكثر: فالروح كأنَّها بطاريَّة السيارة تقوم بتشغيلها ومدِّها بالطَّاقة الكهربائيَّة؛ أمَّا النفس فهي الآليَّات التي تحتوي عليها السيارة من مِقْوَد وفرامل وأجزاء أخرى، والدليل على ذلك أنَّ الإنسان لمَّا ينام ترتفع روحه من جسده إلَّا أنَّ نفسه تبقى في الجسد فيتحرك يمينًا وشمالًا، وما إن تعود روحه إليه؛ يستيقظ وينهض وتتمُّ عمليَّة الحركة بطاقة الروح وأعضاء النفس.

والبحث سيُخصِّص في الآيات القرآنيَّة التي وردت فيها لفظة (الأنفس) التي هي على وزن (أفعل) بجمع القلَّة والمجرَّدة من أي إضافة في الآيات المباركة الآتية: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥). وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٢٨).

(١) تفسير نور الثقلين: ١/ ٩٨.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ٧).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢) .

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف: ٧١) .

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم: ٢٣) .

في هذه الآيات المباركة سيعمد البحث إلى سبر أغوارها والولوج إلى خزائنها بالتدبُّر في تحليل معانيها.

المطلب الثالث: بين التفسير والتأويل.

توطئة:

انبرى رهطٌ من العلماء للعكوف على تدارس كتاب اللَّه تعالى المجيد ببيان معانيه للذين يستشكل عليهم فهمها؛ وورد ذلك في القرآن الكريم بمصطلحين خاصَّين لإيضاح دلالته المباركة وهما: (التفسير والتأويل)، وقد اختلط هذان المصطلحان في الدِّراسات القرآنيَّة، فكان لا بدَّ من التمييز بينهما في هذا البحث؛ لكي نوجِّهه في المنحى المراد.

فالتفسير في اللغة: هو مصطلح مشتق من الفَسر أو السفر، فالسفر هو ((الانكشاف والجلاء، من ذلك: السَّفر، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ الناس ينكشفون عن أماكنهم... وسفرت المرأة عن وجهها؛ إذا كشفته، وأسفر الصبح؛ وذلك انكشاف الظلام...))[١]، فهو الكشف والبيان والإيضاح.

التفسير في الاصطلاح: هو الكشف عن مراد اللَّه تعالى في كلماته بقدر الطاقة البشريَّة، فتفسير الكلام معناه: الكشف عن دلالات المعنى المراد منه[٢].

فهنا لا بدَّ من طرح سؤال مفاده: ((هل يُعتبر بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه؛ تفسيرًا، بحيث يصدق عليه التفسير اللغوي أو لا ؟))[٣] .

هناك اتِّجاهان:

الأوَّل قال: إنَّ الكشف والبيان المرادين من معنى التفسير يستبطنان افتراض شيء من الغموض، أي بمعنى آخر: يجب أن يكون التفسير لشيءٍ فيه غموض ليُكشف ويُزال الغموض عنه بالتفسير. أمَّا الكلام الذي يحصل منه معنى

(١) مقاييس اللغة: ٣/ ٨٢ .
(٢) يُنظر: الأصول المنهجية للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم: ٣٠ .
(٣) علوم القرآن: ٢٠٧ .

خارجيّ مفهوم لا يحتاج إلى تفسير، فهو من باب (توضيح الواضحات من أشكل المشكلات)، وهذا الرأي السَّائد عند الأصوليين.

الثاني قال: إنَّ ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرًا أيضًا، وتوضيح الخفي قد لا يكون تفسيرًا[1] .

فهذا الرأي يرى: أنَّ التفسير يشمل الكلَّ ولا يختصُّ في توضيح الغامض والخفيّ، فالتفسير عنده يتَّبع السِّياق، ويبدو أنَّ هذا الرأي أقرب .

التأويل في اللغة: هو من آلَ يَؤولُ، يقول ابن فارس: ((الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه ... أمَّا الأول؛ وهو مبتدأ الشيء... يُقال: أوَّل الحكمَ إلى أهله؛ أي أرجعه ورُدَّه إليهم ... وآل يؤول؛ أي: رجع))[2] .

التأويل في الاصطلاح: انقسم المفسِّرون على قسمين في اصطلاح التأويل:

١ـ رادف بين التفسير والتأويل: ولعلَّ هذا الاتجاه كان هو السَّائد عند المفسِّرين القُدامى، فعندهم كلُّ تفسيرٍ تأويل، وكلُّ تأويلٍ تفسير، وعلى هذه النسبة بينهما تساوي.

٢ـ التفسير شيء والتأويل شيء آخر: وهذا الاتِّجاه تميَّز به المتأخِّرون والمحدثون، فالفرق بينهما إمَّا في طبيعة المجال المُفَسَّر والمؤوَّل، أو في نوع الحكم الذي يصدِّره المفسِّر أو المؤوِّل أو يكون في الدليل الذي يستدلُّ به كلٌّ منهما[3]. وهذا الاتِّجاه أوفق من سابقه، لأنَّ القرآن الكريم ميَّز بين المصطلحين، ففي التفسير لم تأتِ إلا آية واحدة فقط، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣).

(١) يُنظر: علوم القرآن، للحكيم: ٢٠٨ .
(٢) مقاييس اللغة: ١/ ١٥٨، يُنظر: المعجم القرآني (دراسة معجميَّة لألفاظ القرآن الكريم): ١/ ٦٤٨.
(٣) يُنظر: علوم القرآن، للحكيم: ٢١٦ .

وكلمة (جئناك) تدلُّ دلالة واضحة على أنَّ التفسير محصور باللَّه تعالى وتعليمه لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام تباعًا، ولا يحقُّ لأحدٍ ان يُفسِّر من عنده .

أمَّا التأويل: فقد وردت في القرآن الكريم في سبع عشرة آية مباركة، منها في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، والمتتبع للآيات المباركة التي وردت فيها كلمة التأويل؛ يجد أنَّ التأويل ممكن للناس، أمَّا التفسير فهو خاصٌّ، وهذا لا يعني أنَّ التأويل مبسوط لكلِّ الناس؛ بل للرَّاسخين في العلم فقط .

إذن: التفسير خاصٌّ باللَّه تعالى، وهو الذي يأتي بالتفسير للنبي وآله من طريق الوحي، والتأويل للَّه والراسخين في العلم، وعلى هذا سيسير البحث على وفق المنهج القرآنيّ في التفسير .

فيُقسَّم هذا المبحث بحسب المفاهيم الواردة في آيات الأنفس.

المبحث الأول: البلاء بنقص الأنفس

الطبيعة البشريَّة تنماز من غيرها بالعقلنة؛ لذا فرض اللَّه عليها العبادة والالتزام بشرائعه وتنفيذ أحكامه، وإذا ما خالفها؛ سيتعرَّض لبلاء يكون رادعًا لإعادة الإنسان إلى اللَّه، ومن هذه البلاءات ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة: ١٥٥).

تتكلَّم عن بلاءٍ واقع لا محالة في يوم ما؛ بوساطة التوكيد باللَّام والنون الثقيلة، وما فيها من شدَّة صوتيَّة، وهذا البلاء جاء بطريقة الإجمال والتفصيل، إذ أجمل القول في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ثمَّ فصَّل القول في ﴿الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، وردفها تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، أي أنَّ هذا البلاء سيُخرج كثير من النَّاس عن جادَّة الصواب والانحراف عن الحقِّ؛ إمَّا لعدم الإطاقة لهذا البلاء أو لضعف الإيمان، لذلك الصَّبر عليه سيكون صعبًا جدًّا ؛ فجاء التبشير من قِبَلِه تعالى للصابرين.

تفسير مدرسة الصحابة

ورد تفسير مدرسة الصحابة لهذه الآية المباركة بآراء متعدِّدة، قال الطبري (ت: ٣١٠هـ): ((معنى قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ولنختبرنَّكم. وقد أتينا على البيان عن أنَّ معنى الابتلاء الاختبار، فيما مضى قبل. وقوله: ((﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ﴾، يعني من الخوف من العدوّ، و(بالجوع)، وهو القحط، يقول: لنختبرنَّكم بشيءٍ من خوفٍ ينالكم من عدوّكم، وبسَنَةٍ تُصيبكم، ينالكم فيها مجاعة وشدَّة، وتتعذَّر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفَّار، فينقص لها عددكم، وموتُ ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدُث، فتنقص لها ثماركم، كلّ ذلك امتحان منِّي لكم، واختبار منِّي لكم، فيتبيَّن صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم

منكم، من أهل النفاق فيه، والشكّ والارتياب))[١]، فقد اعتمد المفسِّر على استدعاء المعاني اللغويَّة في تفسير الآية المباركة .

وبعد أن ذكر الرأي الخاصّ به؛ أورد قول الربيع ((قال، قد كان ذلك، وسيكونُ ما هو أشدُّ من ذلك))[٢]، إلَّا أنَّ هذا الكلام يُحمل على الجِفر؛ لأنَّ المتكلم لم يُفصِّل القول في وقوع البلاء في سابقه ولا في مَن يقع لاحقًا، وما دعا الطبريُّ إلى تفسير الآية بالامتحان؛ هو أنَّه فسَّر البلاء (بالابتلاء). وإلى هذا المعنى ذهب أبو حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، والثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، والبغوي (ت: ٥١٠هـ)، وابن عطيَّة (ت: ٥٤٢هـ)[٣] .

ولكنَّ الزمخشريّ (ت: ٥٣٨هـ) أشار إلى وقوع المصيبة في البلاء وليس الابتلاء، وذلك في قوله: ((﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبنَّكم بذلك إصابةً تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبّتون على ما أنتم عليه من الطَّاعة، وتسلِّمون لأمر اللَّه وحكمه أم لا؟ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليلٍ من كلِّ واحدٍ من هذه البلايا، وطرف منه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ المسترجعين عند البلاء؛ لأنَّ الاسترجاع تسليم وإذعان))[٤]، وهذا الرأي أقرب من الابتلاء؛ لأنّ البلاء ليس بمعنى الامتحان؛ إذ الامتحان يأتي بالفتن، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢). والابتلاء ليس بمعنى البلاء كما فسَّروها؛ لأنَّ اللَّه تعالى أورد الابتلاء وأراد منه الاختبار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/ ٢٢٠ .
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢١ .
(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٦٣، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٢/ ٢٢، معالم التنزيل في تفسير القرآن: ١/ ١٨٥، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٢٢٧. وغيرها من التفاسير.
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/ ٢٠٧ .

ومبتليكم غير بلوكم، فالبلوى غير الابتلاء، وعادة يأتي الابتلاء للتمحيص كما ورد في الآية المباركة.

ممَّا تقدَّم نفهم أنَّ هذه الأمور التفصيليَّة هي نتيجة لنزول بلاء وليست امتحان للعباد، فلا ابتلاء بعقوبة، وهذه تنتج من طريق نزول البلاء على عصيان أو انحراف عن جادَّة الحقِّ .

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام

لا نعتمد في تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام على آراء العلماء من هذه المدرسة؛ وإنَّما سنقتصر على روايات النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين (صلوات ربِّي وسلامه عليهم)؛ لأنَّ كلام العلماء يُمثِّل أشخاصهم، وكلام الأئمَّة يمثل الدين؛ ولذا الاعتماد على كلام الأئمَّة عليهم السلام هو الذي يمثِّل الخطَّ النبويَّ العلويَّ الجعفريَّ المهدويَّ .

وانطلاقًا من قول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لعمر بن يزيد لمَّا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ (الرعد: ٢١)، قال ((نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه وآله، وقد يكون في قرابتك فلا تكونَنَّ ممَّن يقول للشيء إنَّه في شيءٍ واحد))[١]، فلم تُخصَّص الكلمة القرآنيَّة أو الموضوع في شيءٍ واحدٍ، وهذا من باب ((إنَّ للقرآن بطنًا وللبطنِ بطنًا، وظهرًا وللظهر ظهرًا...))[٢] ولا يمكن حصر وجوه القرآن الكريم ومراد اللَّه في معنى تستبطنه العقول الناقصة، وقد فسَّر الأئمة عليهم السلام الآية في أكثر من خمسةٍ وجوه وزيادة . فمن الممكن أنَّ الإمام أورد وجهًا واحدًا للآية المباركة بقدر الطاقة الاستيعابيَّة للسائل ولم يسأله آخر عن المعنى الثاني والثالث؛ فبقي منها كثير من المعاني عند الأئمَّة الأطهار.

(١) الكافي: ١/ ٦٨ .
(٢) تفسير العياشي: ١/ ٢٣ .

فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥) جاء تفسيرها ((عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ قُدَّامَ قِيَامِ الْقَائِمِ عَلَامَاتٍ بَلْوَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، قَالَ: ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ مِنْ مُلُوكِ بَنِي فُلَانٍ فِي آخِرِ سُلْطَانِهِمْ، ﴿وَالْجُوعِ﴾ بِغَلَاءِ أَسْعَارِهِمْ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ﴾ فَسَادِ التِّجَارَاتِ، وَقِلَّةِ الْفَضْلِ فِيهَا، ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ قَالَ: مَوْتٌ ذَرِيعٌ، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ قِلَّةِ رَيْعِ مَا يُزْرَعُ، وَقِلَّةِ بَرَكَةِ الثِّمَارِ، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ بِخُرُوجِ الْقَائِمِ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ هَذَا تَأْوِيلُهُ، إِنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾))[1]، هذا التأويل جاء لسؤال محمَّد بن مسلم.

وجاء تفسير آخر للإمام الباقر عليه السلام لهذه الآية المباركة لسؤال جابر بن يزيد الجعفيّ؛ إذ قال: ((سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ ذَلِكَ خَاصٌّ وَعَامٌّ، فَأَمَّا الْخَاصُّ مِنَ الْجُوعِ فَبِالْكُوفَةِ، وَيَخُصُّ اللَّهُ بِهِ أَعْدَاءَ آلِ مُحَمَّدٍ فَيُهْلِكُهُمْ، وَأَمَّا الْعَامُّ فَبِالشَّامِ يُصِيبُهُمْ خَوْفٌ وَجُوعٌ مَا أَصَابَهُمْ مِثْلُهُ قَطُّ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَقَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ عليه السلام، وَأَمَّا الْخَوْفُ فَبَعْدَ قِيَامِ الْقَائِمِ عليه السلام))[2] إذ التفسير ناظر إلى المصداق الحيّ الحاضر إبَّان زمان الإمام الباقر عليه السلام، وقد أشار إلى مصداقها الآخر، وهي إحدى علامات الظهور المبارك، ولعلَّه لو سُئل الإمام من غير جابر الجعفيّ لأجاب بجواب آخر، كما جاءت التأويلات في كثيرٍ من الآيات، إذن: لم تكن الآية المباركة ذات دلالة واحدة فقط؛ وإنَّما لها ظاهرٌ وللظاهر ظاهر، ولها باطن

(١) الغيبة: ٢٥٠، يُنظر: تفسير العياشيّ: ١/ ٦٨، البرهان في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٨ .
(٢) الغيبة، النعماني: ٢٥١ .

وللباطن باطن، ولا يعلم ذلك إلَّا اللَّه، والراسخون في العلم وهم آل محمد.

ينتج من تفسير المدرستين: أنَّ مدرسة الصحابة فسَّرت البلاء بالابتلاء، والفرق بينهما واضح، إذ البلاء ينزل بسبب غضبٍ من اللَّه تعالى لسوء أعمال العبد، أمَّا الابتلاء فهو امتحان لغرض ترفيع الإنسان درجة من دون أن يكون قد أذنب ذنبًا، كابتلاء الأنبياء والأوصياء والأولياء، فلم يصدر منهم ذنبٌ، وقد ابتلاهم اللَّه ونجحوا فرفعهم درجات كلًّا بحسب ابتلائه .

أمَّا البلاء فهو عقوبة تعقب ذنبًا يصدر من إنسانٍ أو مجموعةٍ أو قريةٍ أو بلد، فيتمُّ عقابهم بنزول البلاء عليهم، وهذا شواهده كثيرة في القرآن الكريم، كالبلاء على فرعون وأتباعه بالغرق، ونزول الدم والقمَّل والضفادع والجراد على بني إسرائيل، والبلاء على قوم ثمود وعاد وغيرهم ممَّن أهلكوا ببلاء اللَّه تعالى. وقد أشار إلى ذلك الإمام الباقر عليه السلام على أنَّه بلاء ينزل على الناس قبيل خروج القائم عجل الله فرجه الشريف، ولم يكن ابتلاءً، وسببه كثرة ذنوب العباد، فيكون في ذلك عدم الأمان فيُخيِّم الخوف على الناس، والجوع بغلاء الأسعار فتُسلب البركة من الطعام، وتسلُّط الفجرة الخونة على رقاب الناس من تُجَّار وحكَّام.

ثمَّ يكون في ذلك نقص (الأنفس): وهو الموت الذريع والمنتشر بين الناس ممَّا يُسبب الهلع، وهذا أحد مصاديق نقص (الأنفس)، ورُبَّما من مصاديق نقص (الأنفس) تغييب الإمام الذي هو عماد الأرض وأمانها، فيُغيِّبه اللَّه تعالى في عباده كي لا يلتجئ إليه أحد، وهذا من أكبر البلاءات التي يُصاب بها الإنسان؛ لأنَّ اللَّه تعالى جعل الإمام أمانًا للأرض ومَن عليها، فتغييبه من البلاء الفادح، ولذا لم يقل: ونقص من (النفوس) بالجمع الكثرة؛ لأنَّ الأئمَّة هم قليلو العدد بالنسبة إلى أهل الأرض، فكان للفظ (الأنفس) بجمع القلَّة دليل على نقص الأئمَّة التي وقعت مصيبتها على الناس، فسُلبَ الأمان ولا ملجأ للناس يلجؤون إليه أو يلوذون به .

المبحث الثاني: شُحّ الأنفس

الشحيح من: شحَّ يشحُّ شحيحًا، و((الشُّحُ: بخلٌ مع حرص، وذلك فيما كان عادة. قال تعالى: ﴿وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ﴾ (النساء: ١٢٨)، و قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ (الحشر: ٩). يقال: رجل شَحِيحٌ، وقوم أَشِحَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (الأحزاب: ١٩)، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ (الأحزاب: ١٩). وخطيب شَحْشَحٌ: ماضٍ في خطبته، من قولهم: شَحْشَحَ البعير في هديره))[١]، فهو بخلٌ في الشيء وحرصٌ عليه.

وتبقى هذه الكلمة حبيسة السياق وتبعية القرينة لتعطي المعنى العام والدقيق للبخل، والحرص على الشيء المقرون فيها وبمعيَّتها، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٢٨).

تفسير الآية في مدرسة الصحابة:

تنماز تفاسير مدرسة الصحابة بالنظر إلى السياق اللغويِّ وأسباب النزول في تفسير الآيات القرآنيَّة، ولم تتعدَّ ذلك في حدود التفسير النظري الخاصِّ بالمفسِّر، ولم تبن تفسيرها على ما يرد عن الصَّحابة على أنَّه هو التفسير الحقيقي؛ وإنَّما يأتون به عرضًا على أنَّه مأثورٌ للاستئناس، ويبقى نظر المفسِّر هو الحاكم على دلالة الآية القرآنيَّة المباركة. ففي تفسير هذه الآية من سورة النساء الشريفة أورد الطبري (خمسة عشر) تفسيرًا كلَّها ناظرة إلى نشوز المرأة، وما يتعلَّق بطلاقها ـ من أيَّام ونصيب ونفقة ـ في إطار وحدود الآية المباركة[٢]، ولم يخرج عن ذلك إلى ما خلف الآية وأنّها لا تُحدَّد بموضوعٍ واحد، وكأنَّ هذه الآية هي آية من آيات الأحكام ولا تُفسَّر في غيرها .

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٤٦ .
(٢) يُنظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٩/ ٢٧٩ـ٢٨٣ .

ولا يخرج الزمخشريُّ عمَّا جاء به الطبريُّ في تفسيره لهذه الآية، وقد قال في تركيب ﴿الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾: ((قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ﴾ الشُّحَّ ومعنى إحضار الأنفس الشحِّ أنَّ الشحَّ جعل حاضرًا لها لا يغيب عنها أبدًا ولا تنفكُّ عنه، يعنى أنَّها مطبوعة عليه، والغرض أنَّ المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها، وأحبّ غيرها، وَإِنْ تُحْسِنُوا بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهنَّ وأحببتم غيرهنَّ، وتصبروا على ذلك مراعاةً لحقِّ الصُّحبة، وَتَتَّقُوا النشوز والإعراض وما يؤدِّي إلى الأذى والخصومة؛ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ من الإحسان والتقوى خَبِيرًا، وهو يثيبكم عليه))[1]، أي: ما شحَّت المرأة على نفسها. وإلى هذا المعنى ذهب غير واحد من المفسِّرين الممثِّلين لمدرسة الصحابة[2]؛ إذ لم يخرجوا عن إطار السياق الذي ورد فيه تركيب ﴿الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام

نسير على المنهج الذي سرنا عليه في الآية السابقة؛ إنَّنا لا نأخذ تفسير الآية المباركة إلَّا من روايات العترة الطاهرة (صلوات ربِّي وسلامه عليهم أجمعين)، وهم الذين أمرنا اللَّه ورسوله بأن نأخذ منهم حصرًا، فقد ورد تفسير هذه الآية المباركة وبالتحديد ﴿الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ ما جاء ((عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَوَجَدْتُهُ مُفَكِّرًا يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ مَا لِي أَرَاكَ مُفَكِّرًا؟ قَالَ: فِي مَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ ظَهْرِ الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ يُضِلُّ بِهَا أَقْوَامًا، وَيَهْدِي بِهَا آخَرِينَ، أُولَئِكَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَعَ أَبْرَارِ هَذِهِ الْعِتْرَةِ، فَقُلْتُ:

(١) الكشَّاف: ١/ ٥٧١ .

(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٠٨١، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٣/ ٣٩٦، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ٢/ ١٢٥، معالم التنزيل في تفسير القرآن: ١/ ٧٠٨، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: ١١/ ٢٣٦ .وغيرها من التفاسير .

ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ، مِنَ الرَّجْعَةِ الْبَيْضَاءِ وَالْكَرَّةِ الزَّهْرَاءِ، وَإِحْضَارِ الْأَنْفُسِ الشُّحِ وَالْقِصَاصِ وَالْأَخْذِ بِالْحَقِّ وَالْمُجَازَاةِ بِكُلِّ مَا سَلَفَ، ثُمَّ يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ))[1]، فأشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام المهديّ عجل الله فرجه بأنَّه هو الممثِّل عن الأنفس الشُّح، وقد شحَّ ظهوره ووجه عن الناس مع حرص اللَّه تعالى عليه وحفظه من كلِّ شيطانٍ رجيم، ومن النَّاس وهذا ما كشفت عنه الرواية من أنَّ الأنفس الشحّ هم آل محمَّد وكلُّ إمامٍ في زمانه إذا يبتلي اللَّه الناس به يشحّه عنهم ويغيِّبه، وبعد الابتلاء والمجيء بالجزاء يُحضرهم اللَّه تعالى لإقامة الحُجَّة على الناس.

ومن المؤيِّدات لهذا الرأي؛ ما جاء في الحديث القدسيّ في قوله تعالى: ((يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ مَلَأَهُ هَمُّ دَيْنٍ مِنْ أُمَّتِكَ، فَلْيَنْزِلْ بِي وَلْيَقُلْ يَا مُبْتَلِيَ الْفَرِيقَيْنِ: أَهْلِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الْغِنَى، وَجَازِيَهُمْ بِالصَّبْرِ فِي الَّذِي ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ، وَيَا مُزَيِّنَ حُبِّ الْمَالِ عِنْدَ عِبَادِهِ، وَمُلْهِمَ الْأَنْفُسِ الشُّحَ وَالسَّخَا، وَفَاطِرَ الْخَلْقِ عَلَى الْفَظَاظَةِ وَاللِّينِ، غَمَّنِي دَيْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، وَفَضَحَنِي بِمَنِّهِ عَلَيَّ بِهِ وَأَعْيَانِي بَابُ طَلِبَتِهِ إِلَّا مِنْكَ يَا خَيْرَ مَطْلُوبٍ إِلَيْهِ الْحَوَائِجُ، يَا مُفَرِّجَ الْأَهَاوِيلِ، فَرِّجْ هَمِّي وَأَهَاوِيلِي فِي الَّذِي لَزِمَنِي مِنْ دَيْنِ فُلَانٍ بِتَيْسِيرِكَهُ لِي مِنْ رِزْقِكَ، فَاقْضِهِ يَا قَدِيرُ، وَلَا تُهِنِّي بِتَأْخِيرِ أَدَائِهِ، وَلَا بِتَضْيِيقِهِ عَلَيَّ، وَيَسِّرْ لِي أَدَاءَهُ، فَإِنِّي بِهِ مُسْتَرَقٌّ فَافْكُكْ رِقِّي مِنْ سَعَتِكَ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَغِيضُ أَبَدًا، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ صَرَفْتُ عَنْهُ صَاحِبَ الدَّيْنِ، وَأَدَّيْتُهُ إِلَيْهِ عَنْهُ))[2]، فالأنفس الشح: هي الأنفس الملهمة من اللَّه تعالى بالعلم والمعرفة، ومَن غيرهم عليهم السلام أن يُلهموا بالعلم اللَّدنِّي؟!، ولذا نجد هذا الرأي أنَّه أحد مصاديق ﴿الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، ولم نقل: أنَّ المعنى الأوَّل مُقصى؛ وإنَّما هو الآخر مصداق من مصاديق الأنفس

(١) الهداية الكبرى: ٣٦٢ .

(٢) المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية): ١٧٣ . ويُنظر: الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: ٣٥٤ . بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: ٩٢/ ٣٢٠، جامع أحاديث الشيعة: ٢٣/ ٧٨٨ .

الشُّح، وأهل البيت عليهم السلام مصداقٌ آخر له. والروايات التي تُشير إلى معنى البخل؛ ناظرةً إلى النفس الإنسانية وهي إحدى مصاديق الشُّح، وهذا لا يمنع من أنَّ الأنفس الشُّح هي المصداق الأوفر في هذه الآية المباركة من باب أنَّها حريصة على الدِّين وشحيحة بالحفاظ عليه.

ربَّما جاء تركيب ﴿الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ على سبيل الجملة الاعتراضية، وهي من أساليب العرب التي يُؤتى بها لغرض لفت النظر والاهتمام بالمذكور، فقد أشار إليهم سبحانه وتعالى ليؤكِّد مكانتهم العُليا من جهة؛ ويؤيِّد حضورهم في كلِّ زمان ومكان بأمره سبحانه وفي أي موقف، وأشار إلى ذلك الإمام الهادي عليه السلام في قوله من الزيارة الجامعة الكبيرة المباركة: ((ذِكْرُكُمْ فِي الذّاكِرِينَ، وَاَسْماؤُكُمْ فِي الْاَسْماءِ، وَاَجْسادُكُمْ فِي الْاَجْسادِ، وَاَرْواحُكُمْ فِي الْاَرْواحِ، وَاَنْفُسُكُمْ فِي النُّفُوسِ، وَآثارُكُمْ فِي الْآثارِ، وَقُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ))[1]، ومن اللافت للنظر؛ أنَّ الإمام الهادي عليه السلام ذكر أهل البيت عليهم السلام بالجمع القليل، فلم يقل: ونفوسكم في النفوس، على الرغم من أنَّهم أربعة عشر معصومًا، وجمع القلَّة ينتهي للعدد تسعة، فكانت الإشارة ناظرةً إلى القلة منهم والكثرة من الخلق، فكانت عبارة الإمام دقيقة جدًّا (أنفسكم) بالقلَّة، و(النفوس) بالكثرة، فإحظار الأنفس الطاهرة (وهم محمد وآل محمد) من مصاديقها ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١)، وهو إحضارهم (صلوات ربِّي وسلامه عليهم أجمعين) فهم الأنفس الشحّ التي يأتي بها اللّه تعالى شاهدة على العباد والخلق أجمعين .

(١) مفاتيح الجنان: ٣٤٣.

المبحث الثالث:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾

وكَّل اللَّه تعالى لملك الموت قبض الأرواح من الناس جميعًا، وكذلك سحب النفوس منهم، وهذا جارٍ في جميع الناس، وقد درج المفسِّرون هذا الأمر كلّه لملك الموت، ولم يُفرِّقوا بين الناس والبشر الذين اختارهم اللَّه تعالى على خلقه وجعلهم الوسطاء بينه وبين ما خلق .

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢).

تفسير مدرسة الصحابة لهذه الآية المباركة

كما تقدَّم في البحث التمهيدي مرادفة مدرسة الصحابة للنفس والروح؛ فها هم يُرادفون ذلك في تفسيرهم ليكن ما أوردوه في المعاني مطبَّقًا في تفسيرهم، قال الطبريُّ في تفسير هذه الآية المباركة: ((...إِنَّهُ يُميتُ وَيُحْيِي، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ شَيْءٌ سِوَاهُ؛ فَجَعَلَ ذَلِكَ خَبَرًا نَبَّهَهُمْ بِهِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) فَيَقْبِضُهَا عِنْدَ فَنَاءِ أَجَلِهَا، وَانْقِضَاءِ مُدَّةِ حَيَاتِهَا، وَيَتَوَفَّى أَيْضًا الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، كَمَا الَّتِي مَاتَتْ عِنْدَ مَمَاتِهَا ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ (الزمر: ٤٢) ذِكْرُ أَنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَلْتَقِي فِي الْمَنَامِ، فَيَتَعَارَفُ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْهَا، فَإِذَا أَرَادَ جَمِيعُهَا الرُّجُوعَ إِلَى أَجْسَادِهَا أَمْسَكَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ عِنْدَهُ وَحَبَسَهَا، وَأَرْسَلَ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَجْسَادِهَا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَذَلِكَ إِلَى انْقِضَاءِ مُدَّةِ حَيَاتِهَا، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنا يَعْقُوبُ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) الْآيَةَقَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَ أَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ، وَأَرْوَاحِ الْأَمْوَاتِ، فَيَتَعَارَفُ مِنْهَا

مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَعَارَفَ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجْسَادِهَا))[1]، فركَّز المفسِّر على النوم وكيفيَّة سحب الروح من الجسد وإعادتها عند اليقظة، فكان المورد عنده هو الوفاة .

وإلى هذا المعنى ذهب جلُّ المفسِّرين من مدرسة الصحابة[2]، وقد ذكر أبو حاتم الرازي رواية ((عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ، قَالَ كَلامًا لَمْ نَفْهَمْهُ، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ، عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ تَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَتُمْسِكُ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ، وَتُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّانِي، فَإِنْ أَنْتَ تَوَفَّيْتَنِي فَاغْفِرْ لِي، وَإِنْ أَنْتَ أَخَّرْتَنِي فاحفظني))[3]، وهذه الرواية في غاية الأهميَّة؛ إلّا أنَّ المفسِّر لم يُعقِّب عليها .

وقد فرَّق الفخر الرازيّ بين النفس المقبوضة: وهي التي تُقبض من لدن اللَّه تعالى عند الموت، ولا ترجع إلى الإنسان، وبين النفس المُرسلة: وهي التي تقبض عند النوم وتُرسل عند اليقضة[4]، ولم يمنع هذا من إقراره بترادف الروح والنفس.

تفسير مدرسة أهل البيت عليهم السلام

خير ما نذكره في هذا المضمار قول سيدنا عيسى عليه السلام روح اللَّه وكلمته التي ألقاها إلى مريم عليها السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧)، ولم يقل: توفيتُ أو توفتني الملائكة.

وقد أشار إلى ذلك خير الخلق ومعدن الصدق النبي الأكرم ﷺ في دعائه:

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٠/ ٢١٥ .
(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٣٠٥، الكشف والبيان: ٤/ ١٢٩، تفسير الراغب الأصفهاني: ٥/ ٥٠٣، معالم التنزيل: ٤/ ٩١، الكشاف: ٣/ ٥٠٩، الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣٧٧، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٥/ ٤٤ . وغيرها.
(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو حاتم: ١٠/ ٣٢٥٢ .
(٤) يُنظر: مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٤٥٦ .

((اللَّهُمَّ أَنْتَ تَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَتُمْسِكُ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ، وَتُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّانِي، فَإِنْ أَنْتَ تَوَفَّيْتَنِي فَاغْفِرْ لِي، وَإِنْ أَنْتَ أَخَّرْتَنِي فاحفظني))[1]، فنسب استيفاء الأنفس بيد اللَّه تعالى .

ومِمَّا يُؤيِّد ذلك قوله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وفي الآية المباركة من التأكيدات الخبرية ما يُؤكِّد تولِّي اللَّه تعالى بنفسه قبض الأنفس الخاصَّة وهم الأنبياء والأولياء؛ ولذا قال الإمام زين العابدين عليه السلام لعبيد اللَّه بن زياد: ((...وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، قَالَ: أَ لَيْسَ قَدْ قَتَلَ اللَّهُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ؟ فَقَالَ: كَانَ لِي أَخٌ يُسَمَّى عَلِيًّا فَقَتَلَهُ النَّاسُ. قَالَ ابْنُ زِيَادٍ: بَلْ قَتَلَهُ اللَّهُ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فَغَضِبَ ابْنُ زِيَادٍ، وَقَالَ: لَكَ جُرْأَةٌ عَلَى جَوَابِي، وَفِيكَ بَقِيَّةٌ لِلرَّدِّ عَلَيَّ، اذْهَبُوا بِهِ وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَتَعَلَّقَتْ بِهِ زَيْنَبُ عَمَّتُهُ، فَقَالَتْ يَا ابْنَ زِيَادٍ حَسْبُكَ مِنْ دِمَائِنَا...))[2]، ولم يقل عليه السلام: يتوفَّى النفوس، وهو بصدد بيان استيفاء النفس بشكل عام، إلّا أنَّ الإمام كان قاصدًا إلى استشهاده بهذه الآية المباركة . نُريد القول: إنَّ الأنفس في هذه الآية المباركة (بجمع القلَّة) من مصاديقها هم عليةُ المسلمين، وهم محمَّد وآل محمد؛ واللَّه تعالى هو الذي يتوفَّاهم بنفسه بتأكيد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله بالحديث الذي ذكرناه، وعُضِّد بالآيات القرآنيَّة المباركة ورواية الإمام زين العابدين عليه السلام .

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو حاتم: ١٠/ ٣٢٥٢ .
(٢) إعلام والورى بأعلام الهدى: ٢٥٢، يُنظر: شرح أصول الكافي: ٣/ ١٠٦، ٦/ ٢٣ .

وما ذكرناه هو مصداق واحد من مصاديق الآية المباركة، وهذا لا يمنع من إيراد المصاديق الأخرى كما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في ردِّه على سؤال السائل: ((﴿اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ وَالَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وَعَنْ قَوْلِهِ عز وجل ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾، وَقَدْ يَمُوتُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَمِيعِ الْآفَاقِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ عز وجل فَكَيْفَ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ أَعْوَانًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقْبِضُونَ الْأَرْوَاحَ، بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ لَهُ أَعْوَانٌ مِنَ الْإِنْسِ يَبْعَثُهُمْ فِي حَوَائِجِهِ، فَتَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَيَتَوَفَّاهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ مَا يَقْبِضُ هُوَ، وَيَتَوَفَّاهَا اللَّهُ عز وجل مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ))[1]، فكان الجواب على قدر ما يُريده السائل، ولو سأله آخر لوجدنا جوابًا آخر بقدر الطاقة التي يحملها السائل، وقد أُمروا عليهم السلام أن يُكلِّموا النَّاس على قدر عقولهم .

وقد سُئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآيات الشريفة فقال: ((﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾، وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾، فإنَّ اللَّه تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء، ويوكِّل من خلقه من يشاء بما يشاء، أمَّا ملك الموت فإنَّ اللَّه يوكِّله بخاصَّة من يشاء من خلقه، ويوكِّل رسله من الملائكة خاصَّة بمن يشاء من خلقه، والملائكة الذين سمَّاهم اللَّه عز وجل وكَّلهم بخاصَّة من يشاء من خلقه، إنَّه تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء، وليس كلُّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسِّره لكلِّ الناس؛ لأنَّ

(١) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ١/ ٣٥٥ .

منهم القوي والضعيف، ولأنَّ منه ما يُطاق حمله، ومنه ما لا يُطاق حمله، إلَّا أن يسهل اللَّه له حمله، وأعانه عليه من خاصَّة أوليائه، وإنَّما يكفيك أن تعلم أنَّ اللَّه هو المحيي المميت، وأنَّه يتوفَّى الأنفس على يديّ من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم، قال السائل: فرَّجت عنِّي يا أمير المؤمنين، فرَّج اللَّه عنك يا أمير المؤمنين، ونفع اللَّه المسلمين بك))[1]، ولو أنعمنا النظر في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناه يحمل من الحشد المعنوي ما يحمل، ففي قوله عليه السلام: (فإنَّ اللَّه تبارك وتعالى يدبِّر الأمور كيف يشاء)، قد أجمل المعاني جميعها، ومن هذه المعاني ما ذهبنا إليه من إيراد مصداق الأنفس .

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٥/ ٨٥٥، يُنظر: بحار الأنوار: ٩٠/ ١٣١ .

الخاتمة:

الحمد للَّه ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقة محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد .

بعد هذه الرحلة في آيات الذكر الحكيم وسبر أغوار أسرارها التفسيرية؛ نتج عن البحث الآتي :

١ـ حاول البحث النأي بنفسه عن التفسير بالرأي قدر الإمكان وإقصاء مَن قال برأيه في كتاب اللَّه المجيد؛ ولكنَّنا وجدنا بعض الالتفاف على الأدلَّة واستنطاقها بما لا يظهر منها وتحميلها ما ليس فيها.

٢ـ اعتمد البحث على تفاسير مدرسة الصحابة المعتمدة وترك ما دون ذلك .

٣ـ ركَّز البحث على تفسير أهل البيت عليهم السلام حصرًا في تفسير الآيات المباركة، ولم يذكر آراء المفسِّرين في مضمار الكلام في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، اعتقادًا منه بأنّ التفسير منهم حقٌّ ومن غيرهم يُبنى على الظنِّ، والظن لا يُغني من الحقِّ شيئًا .

٤ـ أكَّد البحث المفهوم العام للآيات المباركة ووحدة الدلالة المركزيَّة من جهة؛ وتعدد المصاديق والتمثُّلات من جهةٍ أخرى، فالآية المباركة ـ على وفق أقوال أهل البيت عليهم السلام ـ لها ظاهر وللظاهر ظاهر، ولها باطن وللباطن باطن، فلم يقطع البحث بالمعنى للآية؛ لأنَّ تمثُّلاتها ومصاديقها جارية في كلِّ زمانٍ ومكان .

٥ـ آيات الأنفس المباركة دلالتها المركزيَّة على المفهوم العام للمقامات العالية، لذلك جاءت بصيغة جمع القلَّة، وهي ناظرة للعددين بين الكبرى والصغرى .

٦ـ مصاديق آيات الأنفس في زمن الأنبياء هم الأنبياء وأوصياؤهم عليهم السلام، وفي زمن أهل البيت هم أهل البيت عليهم السلام، ولذا فهي جارية إلى مقام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الاختصاص، محمد بن محمد المفيد (ت: ٤١٣هـ)، المؤتمر العالميّ لألفيَّة الشيخ المفيد، قم، إيران، ط١، ١٤١٣هـ

٢- الأصول المنهجيَّة للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم، د. مرتضى جمال الدين، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة، العراق، ط١، ٢٠١٦م.

٣- إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، المكتبة الإسلاميَّة، طهران، ط٣، ١٣٩٠هـ .

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد اللَّه بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ .

٥- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت: ١١١٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٦- البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم بن سليمان البحراني (ت: ١١٠٧هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، مؤسِّسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٦هـ .

٧- تفسير العياشيّ، محمد بن مسعود العياشيّ (ت: ٣٢٠هـ)، المطبعة العلميَّة، طهران، ط٢، ١٤٢٢هـ .

٨- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصريّ ثمَّ الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٩- تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، المحقِّق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ .

١٠- تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت:١٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

١١- تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت: ١٥٠هـ)، المحقِّق: عبد اللَّه محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ

١٢- تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت: ١١١٢هـ)، إسماعيليان، قم، إيران، ط٤، ١٤١٥هـ .

١٣- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، المحقِّق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠١م .

١٤- جامع أحاديث الشيعة، أغا حسين البروجردي (ت: ١٣٨٠هـ)، منشورات فرهنك سبز، طهران، إيران، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٥- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر مؤسَّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٦- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ الخزرجيّ شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

١٧- الجواهر السنيَّة في الأحاديث القدسيَّة، محمَّد بن الحسن الحر العاملي (ت: ١١٠٤هـ)، منشورات دهقان، طهران، ط٣، ١٤٢٢هـ .

١٨- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، محمد تقي المجلسي (ت: ١١٧٠هـ)، مؤسسة كوشنابور للثقافة الإسلاميَّة، قم، إيران، ط٢، ١٤٠٦هـ .

١٩- شرح أصول الكافي، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (صدر المتألهين) (ت: ١٠٥٠هـ)، مؤسَّسة الأبحاث الثقافية، طهران، ط١، ١٤٢٥هـ .

٢٠- علوم القرآن، محمَّد باقر الحكيم، مؤسَّسة تراث الحكيم، النجف الأشرف، العراق، ط٥، ٢٠١٠م .

٢١- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقِّق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

٢٢- الغيبة، محمَّد بن إبراهيم بن أبي زينب النعمانيّ (ت: ٣٦٠هـ)، نشر الصدوق، طهران، ط١، ١٣٩٧هـ .

٢٣- الكافيّ، محمَّد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٢٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشريّ جار اللَّه (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ.

٢٥- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م .

٢٦- مجموع الفتاوى، أحمد بن تيمية الحرَّاني (ت: ٦٢٨هـ)، دار طيبة، المدينة المنورة، السعودية، ط٣، ١٤١٤هـ .

٢٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، المحقِّق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ .

٢٨- المصباح (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت: ٩٠٥ هـ)، دار الرضي(زاهدي)، قم، إيران، د.ط: ١٤٠٥هـ .

٢٩- معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، المحقِّق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٣٠- معانى القرآن، أبو الحسن المجاشعيّ بالولاء، البلخي ثمَّ البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت: ٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .

٣١- المعجم القرآني (دراسة معجمية لألفاظ القرآن الكريم)، د. حيدر علي نعمة، د. أحمد علي نعمة، مطبعة السيماء، بغداد، د . ط، ٢٠١٣ م.

٣٢- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، أبو عبد اللَّه محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ .

٣٣- مفردات ألفاظ القرآن، حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت: ٤٠١هـ)، دار القلم، دمشق، سوريا، ط١، ١٤١٢هـ .

٣٤- الهداية الكبرى، حسين بن حمدان الخصيبي (ت: ٣٣٤هـ)، مؤسَّسة البلاغ، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤١٩هـ .

٣٥- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

قال الأمام الباقر عليه السلام

(إنَّما شيعةُ عليّ... كثيرةٌ صَلاتُهم كثيرةٌ تلاوتُهم للقرآن)

وسائل الشيعة: 4/ 843

جَدَليَّة جَامِعيَّة القُرآنِ الكَرِيمِ للأَحكَامِ الشَّرعِيَّة

دراسةٌ في ضَوءِ مَدرَسَةِ أَهلِ البَيتِ عليهم السلام

د. حسين فاضل محسن الحكيم

جامعة الكوفة/ كليَّة الفقه

Dr. Hussein Fadel Mohsen Al-Hakim

(University of Kufa /College of Jurisprudence)

الملخَّص:

إنَّ اللَّه تعالى أنزل القرآنَ الكريمَ فيه تفصيل كلِّ شيءٍ، وهذا ثابتٌ في القرآن الكريم نفسه، فبرزت إشكاليَّةٌ عند علماءِ المسلمينَ ألا وهي أتضمَّن القرآن الكريم الحكم الشرعيّ لكلِّ مسألةٍ فقهيَّةٍ، وهذه الإشكاليَّة لم تكن وليدة اللحظة، وإنَّما بدأت معالم وجودِها في القرن الأوَّل الهجريِّ، وأخذت التفسيراتُ والاتِّجاهاتُ تتكاثرُ حولَ هذه المسألةِ، منطلقةً من النصِّ القرآنيِّ نفسه ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) والنصوص الأخرى القريبة من هذا المعنى، وفي هذا البحث سنبيِّن الاتِّجاهات التي اختلفت في هذه المسألة مع بيان دليل كلِّ اتِّجاه، وتسليط الضوء على موقف مدرسة أهل البيت عليهم السلام من هذه الاتِّجاهات، ليصل البحث إلى بيان الاختلاف في داخل المدرسة الإماميَّة حول هذه المسألة الناشئ من اختلاف تفسيرات روايات أهل البيت عليهم السلام، التي تخصُّ مسألة جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة، ومحاولة تحليل أدلَّة كلِّ قولٍ للوصول إلى القول الأقوى.

الكلمات المفتاحية: جدليَّة، الشرعيَّة، القرآنيون، جامعيَّة.

Abstract:

Allah Almighty revealed the Holy Quran containing the details of everything, as affirmed within the Quran itself. This has led to a significant issue among Muslim scholars: whether the Quran includes legal rulings for every jurisprudential matter. This issue did not emerge recently; its origins trace back to the first century AH. Over time, various interpretations and perspectives have developed around this topic, often based on the Quranic verse “We have not neglected in the Register a thing” [Al-An'am: ٣٨] and other similar texts.

This research aims to present the different approaches taken on this issue, outlining the evidence supporting each perspective. It will also highlight the stance of the School of Ahl al-Bayt (peace be upon them) concerning these approaches, showing the internal differences within the Imami school regarding this issue, which stem from varying interpretations of the narrations of Ahl al-Bayt (peace be upon them) that pertain to the comprehensiveness of the Quran for legal rulings. The study will analyze the evidence for each viewpoint in an effort to identify the most compelling argument.

Keywords:
debate, legality, Quranists, comprehensiveness.

المقدِّمة:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، محمَّد وآله الطيِّبين الطاهرين.

وبعد

فإنَّ كتاب اللَّه العزيز كتابٌ أودعَ اللَّهُ تعالى فيه علومَ الأوَّلينَ والآخرينَ على الرغم من صفحاته المعدودة التي يصعب تعقُّل احتوائه على كلِّ ذلك، وهذا لا يخلو من الإعجاز بمكان، لكن هذه الجامعيَّة التي يحتويها القرآن قد اختلف علماء المسلمين في تشخيصها تشخيصًا دقيقًا، وقد دبَّ الخلاف في كلماتهم. وقد انجرَّ هذا الخلاف بشكلٍ أوسع إلى مسألة جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة، فجاء البحث ليسلط الضوء على هذا الاختلاف بشكلٍ مفصَّل مع بيان الأدلة ومناقشة الآراء وإبداء الرأي الذي يرجحه البحث -وأيضًا- بعد إقامة الأدلة.

يمكن صياغة مشكلة البحث بالتساؤل الذي يقول: ما أقوال العلماء في جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة؟ وما الرأي الراجح من بين تلك الأقوال؟

يهدف البحث إلى إيجاد الحل لهذه الإشكاليَّة المتداولة قديمًا وحديثًا، وإبراز ريادة أهل البيت عليهم السلام في استخراج العلوم المختلفة، ولا سيَّما الأحكام الشرعيَّة من القرآن الكريم.

يفترض البحث أنَّ القرآنَ الكريمَ شاملٌ لأصلِ كلِّ حكم شرعيٍّ، لكن لا يستطيع أن يستخرج كلَّ هذه الأصولِ إلَّا المعصوم عليه السلام، وأمَّا غير المعصوم فيمكنه أن يستخرج بعضًا منها، وستتحقق في نهاية البحث من هذه الفرضيَّة.

وقد سلك البحث طريق المنهج الاستقرائي التحليلي في بحث محاوره.

وقد جاء البحث مقسَّمًا على مقدِّمة وثلاثة مطالب وخاتمة، درس في المطلب الأوَّل جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة مطلقة العلم، وتطرق البحث في المطلب الثاني إلى جامعيَّة القرآن الكريم لأصول الأحكام الشرعيَّة، وختم المطلب الثالث البحث بتقديم جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة مقيدة العلم.

وختامًا أسأل اللَّه تعالى أن يوفقنا للعلم والعمل الصالحَين، وأن يتقبَّل هذا الجهد القليل، وأعتذر عن أي تقصير أو سهو أو خطأ في هذا البحث، والحمد للَّه ربِّ العالمين.

المطلب الأوَّل: جَامِعِيَّةُ القُرآنِ الكَرِيم للأَحكَام الشرعيَّة مُطلَقَة العِلم.

يُعدُّ هذا الرأي الذي يمثِّله القرآنيونَ أحدَ أطراف جدليَّة جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة، ولا بدَّ للبحث من أن يقفَ عندَه وقفةً تفصيليَّةً بقدر المكنة وبما يسعه المقام، لذا سينتظم الكلام في هذا المبحث على فرعين، بحسب الآتي:

الفرع الأوَّل: نبذة مختصرة عن القرآنيِّينَ:

هذا الاتجاهُ الذي يدعو إلى الاعتماد على القرآن الكريم من دون السُّنَّة الشريفة، فالمرجعيَّةُ تنحصرُ للنصِّ القرآنيِّ وحده في عمليَّة الاستنباط الفقهيِّ، ويبنونَ على أنَّ العالِمَ الفقيهَ القرآنيَّ يستطيعُ أن يستخرجَ من القرآن الكريم كلَّ الأحكام الشرعيَّة وغيرها؛ لجامعيَّة القرآن لكلِّ شيء، ولا يعيرونَ أيَّ اهتمام للسُّنَّة، ولا يأخذونَ حتى بالرواياتِ المشهورة التي لم يُختلَفْ في صحتها عندَ المسلمينَ، وأطلقوا على أنفسهم تسمية (القرآنيُّون) نسبةً إلى القرآن الكريم[1]؛ ولعلَّ اختيارَهم هذا الاسم؛ لإيهام الناس بتمسُّكهم بالقرآن الكريم تلبيسًا للحقِّ بأنَّهم مستندونَ إلى كتاب الحقِّ ﷻ في التشريع الإسلاميِّ، على عكس غيرهم الذين يشتغلونَ بالسُّنَّة وضيَّعوا القرآنَ الكريم، لكنَّهم بهذه التسمية جنَّبوا أنفسَهم المؤاخذةَ، وسدُّوا بابَ الاعتراض من أن يُفتحَ عليهم؛ إذ كيف يُعترضُ على فرقةٍ اتَّخذت القرآنَ الكريمَ منهجًا لها وتتمسَّكُ به[2]؟

وقدْ ذهبَ العلماءُ والباحثونَ إلى أنَّ بواكيرَ مسألة رفض السُّنَّة الأولى كانَتْ منذُ زمن النبيِّ ﷺ؛ إذ يمكنُ تلمُّسُهَا بمواقف وأحداث قد ذُكِرَتْ بهذا الخصوص، منْهَا قضيَّةُ المخاصمة بينَ الزبير وأحد الصحابة، والقضيَّةُ مشهورةٌ، وفي حينِهَا حكمَ النبيُّ ﷺ للزبير فاعترضَ الآخرُ على حكمِه ورفضَهُ، مخاطبًا النبيَّ ﷺ

(١) ينظر: القرآنيون شبهات حول السُّنَّة: ١٩، والاستدلال بالدليل القرآني في التفسير: ٣٦٨.
(٢) ينظر: الاستدلال بالدليل القرآني في التفسير: ٣٦٨؛ وشبهات القرآنيين حول السُّنَّة النبوية: ٢-٣.

بأنَّكَ حكمتَ لَهُ لأنَّهُ ابنُ عمَّتك؟! ونزلَتْ وقتئذٍ الآيةُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)[١].

ومنها قضيَّةُ رفضِ عمرِ بنِ الخطَّابِ من تدوينِ النبيِّ ﷺ لكتابٍ لا تضلُّ الأمَّةُ من بعدِ رحيلِهِ ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى؛ إذ يذكرُ البخاريُّ هذه الحادثةَ في صحيحِهِ مُدوِّنًا: ((عن ابن عباس رضي اللَّه عنه، قال: لمَّا حضر رسول اللَّه ﷺ وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب، قال النبيُّ ﷺ: هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، فقال عمر: إنَّ النبيَّ ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب اللَّه. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبيُّ ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبيِّ ﷺ، قال رسولُ اللَّه ﷺ: (قوموا) قال عبيد اللَّه: فكان ابن عباس، يقول: إنَّ الرزيَّة كلَّ الرزية ما حال بين رسول اللَّه ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم))[٢].

فهاتان الحادثتان تبيِّنان نوعًا من تعطيلِ بعضِ السُّنَّةِ، ولا يُفهمُ منها تعطيلُ تمامِ السُّنَّة، ففي الأولى لربَّما كانَ ردُّ حكمِ النبيِّ ﷺ ناشئًا من الاندفاعِ والتسرُّعِ، وعدمِ فهمِ مقامِ النبوَّةِ بشكلٍ صحيحٍ، وأمَّا الأخرى فإنَّ عمر بن الخطاب عطَّلَ السُّنَّةَ في هذهِ الواقعةِ، ومنعَ من كتابةِ شيءٍ فيه رفعُ الخلافِ والحَيرةِ من بعدِ النبيِّ ﷺ، لكن ممَّا يعظم الخطب أنَّ هذا التعطيلَ - برأي الباحث - أعلى مراتبِ التعطيلِ للسُّنَّةِ الشريفةِ.

وفي أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرَ وبدايةِ القرنِ العشرينَ انبثقَت هذه الدعوةُ بينَ بعضِ المسلمينَ في الهندِ، بعد أن أصيبَ المسلمونَ بالجمودِ على المستوى

(١) ينظر: صحيح البخاري: ٣/ ١١١.
(٢) م . ن: ٧/ ١٢٠.

الفكريِّ والثقافيِّ والاجتماعيِّ؛ بسببِ فشلِ الثورةِ ضدّ الإنكليزِ عام (١٨٥٧م) وما بثَّه (السيد أحمدُ خان)[١] وأعضاءُ حركتِه الذين تأثَّروا بالحركة الغربيَّة ومناهجها من أنَّ التقدُّم والإزدهار للبلد يتحقَّق بتقليد الغرب ونبذ الأفكار التي أسَّستها السُّنَّة؛ بسبب تأثُّرهم بما أثاره بعض المستشرقين من إشكالات عدَّة حول السُّنَّة في العالم الإسلاميِّ، أمثال (جولدتسيهر) وغيره من المستشرقين، ماضين تحت غمامة الاستعمار الإنكليزي، فساروا على نهجهم في الردِّ والتشكيك[٢].

ومن أبرز الإشكاليَّات التي أثاروها[٣]:

١- أنَّ السُّنَّة النبويَّة هي صنيعة العلماء الذين اضطرهم الحال بعد انصدامهم بالواقع الخارجي الذي لم يملأه النصُّ القرآنيُّ في رسم خطط الحياة التفصيليَّة، فجاؤوا بالسُّنَّة لسدِّ الفراغ في مجالات العيش كافَّة.

٢- لم يعد النبيُّ صلى الله عليه وآله والصحابةُ الفقهَ والتشريعَ جزءًا من الدين، إلَّا أنَّ الفقهاء سعوا ـ في القرن الثاني الهجري ـ لاختلاق روايات فقهيَّة؛ لإكمال منظوماتهم القانونيَّة، بعد أن عدُّوا الفقهَ جزءًا من الدين، لكي يشرعنوا قواعدهم التي صاغوها على شكل روايات نبويَّة، وصنعوا أسانيدَ بلغوا بها عصرَ النبيِّ صلى الله عليه وآله.

وقد صارت هذه الإشكاليَّاتُ سماتِ منهجِ اتجاهِ المرجعيَّةِ للنصِّ القرآنيِّ، وردَّ الباحثون هذه الإشكاليَّات في مؤلَّفات كثيرة، لا يسعنا الخوض في مناقشتها[٤]،

(١) السيد أحمد خان بن محمد تقي، ولد سنة (١٨١٧م) في الهند، خدم في الحكومة الإنكليزية، وصار قاضيًا بها، أنشأ جمعيَّة الترجمة، وحصل على جائزة من الإنكليز بعد أن ترجم كثيرًا من الكتب الإنكليزية إلى الهنديَّة، له مؤلَّفات منها: حياة محمد، تفسير القرآن. ينظر: تراجم مشاهير الشرق: ٢/ ٧٨-٨٣.

(٢) ينظر: السُّنَّة في مواجهة الأباطيل: ٨٥-٨٦، وشبهات القرآنيِّين حول السُّنَّة النبويَّة: ٤، ونظرية السُّنَّة في الفكر الإماميِّ الشيعي: ٥٠٩.

(٣) ينظر: م. ن: ٥٠٩-٥١٠.

(٤) راجع: المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، وتأريخ تدوين السُّنَّة وشبهات المستشرقين، حاكم عيسان المطيري.

ثمَّ برزَ من أنصارِ (السَّيِّد أحمد خان) ممَّن رفضوا الحجاب وغيرها من الآراء الفقهيَّة والتأريخيَّة، إلى جانب رفضهم للسُّنَّة[١]، ثم شرعَ (عبدُ اللَّهِ جكرالوي)[٢] الذي قام بتأسيس الحركة القرآنيَّة بنشاطه في ترك السُّنَّة والاعتماد على القرآن؛ لأنَّه يشتمل على تمام التفصيلات، الذي شكَّل فرقةً فيما بعد أطلقَ عليها (أهل الذكر والقرآن)[٣] وهكذا انتشر هذا الاتجاه في بلاد الهند وباكستان وأصبح يلقى رواجًا كبيرًا فيهما.

الفرع الثاني: الأساس القرآني لاتِّجاه القرآنيِّين وأثره في مبنى جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة.

استند أصحاب هذا الاتجاه على الأساس القرآنيِّ المتمثِّل بتفصيل الشريعة وشمول النصِّ القرآنيِّ لكلِّ شيء في بناء هيكلهم العام للمنظومة المعرفيَّة، وهذا الأساس صرَّح به القرآن في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يوسف: ١١١).

فيُفهم من هذا الأساس أنَّ القرآن الكريم قد تكفَّل بذكر الأحكام الدينيَّة على التفصيل، لذا يذكر (عبد اللَّه جكرالوي) هذا المعنى فيقول ما نصُّه[٤]: ((إنَّ الكتاب المجيد ذكر كلَّ شيء يُحتاج إليه في الدين مفصَّلًا ومشروحًا من كلِّ وجهٍ، فما الداعي إلى الوحي الخفي؟ وما الحاجة إلى السُّنَّة؟))[٥] وكذا ذهب بعض

(١) ينظر: نظرية السُّنَّة في الفكر الإمامي الشيعي: ٥٠٩.
(٢) جكرالوي: عبد اللَّه بن عبد اللَّه الجكرالوي، عاش في لاهور، ودعا الناس إلى مذهب جديد بعد تأسيسه لجمعيَّة أهل الذكر والقرآن، يقوم مذهبه على إنكار السُّنَّة، توفي سنة (١٩١٤م). ينظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر: ٨/ ١٢٩٣.
(٣) ينظر: القرآنيُّون وشبهاتهم حول السُّنَّة: ١٩-٢١.
(٤) على الرغم من البحث الكثير عن كتب علماء أهل القرآن فلم أتمكن من الحصول عليها، فاعتمدت على أحد الباحثين الباكستانيين الذي كتب عنهم بشكل مفصَّل، والتقى بفرقهم واطَّلع على كتبهم وبحوثهم ألا وهو الشيخ خادم حسين إلهي بخش في كتابه (القرآنيُّون وشبهاتهم حول السُّنَّة).
(٥) مجلة إشاعة القرآن، العدد ٣، ١٩٠٢م: ٤٩.

علماء القرآنيِّين بأنَّ الكتابَ جاءَ على نحو الكمال والتفصيل، من غير حاجة إلى الشرح، ولا إلى تفسير محمد صلى الله عليه وآله له وتبيينه، أو التعليم العملي بمقتضاه[١].

وفي مقام الردِّ على فهمهم لهذا الأساس القرآني يذكر البحث أن القرآنيِّين قد استندوا على أساس لم يقصده النصُّ القرآنيُّ، لكنَّهم فهموا -اشتباهًا- أنَّ القرآنَ الكريمَ قد فصَّلَ الشريعةَ تفصيلًا يشملُ الكليَّاتِ والجزئيَّاتِ، والحال غير ذلك، فإنَّ القرآنَ الكريمَ فصَّلَ القولَ في أصولِ الشريعةِ وتثبيتِها، إضافة إلى ذكره للجزئيَّاتِ لكن بشكلٍ يسيرٍ جدًا، ثم إنَّهم قد أخذوا معنى التفصيل على ما هو متعارف في استعمال الباكستانيِّين والهنود الذين يستعملون هذا اللفظ بمعنى تعيين الجزئيَّات[٢]، لكن معنى الفصل والتفصيل في اللغة العربية يخالف ذلك؛ إذ يذكر الراغب: ((الفصل: إبانة أحد الشيئين عن الآخر))[٣]، وقال الفيُّومي: ((فصَّل الشيء تفصيلًا: جعله فصولًا متمايزة مستقلة))[٤] كما أنَّ أحد علماء القرآنيِّين قد انتقد هذا الفهم لـ(جكرالوي) وغيره؛ إذ يذكر ما نصُّه: ((كان محور خطأ عبد اللَّه أنَّه فهم استعمال المفصَّل والتفصيل بالعربية مثل استعمالها في الأُردية[٥]، وبذلك وضع حجر أساسه على الخطأ، ومن ثَمَّ كان عدم استقامة البنيان نتيجةً حتمية لذلك الأساس المنحرف))[٦].

عندما نأتي إلى علماء مرجعيَّة القرآن والسُّنَّة معًا فإنَّهم يفسِّرون قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بالتفصيل للأصول الشرعيَّة وما يحتاج الناس إليه[٧]، إمَّا

(١) ينظر: ترك افتراء تعامل: ١٠، برهان فرقان: ٤؛ و نكات قرآن: ٧٩.
(٢) ينظر: القرآنيون: ٢١٢.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ٣٨١.
(٤) المصباح المنير: ٢/ ٤٧٤.
(٥) الأردية: هي اللغة الرسمية لدولتي الهند وباكستان.
(٦) برويز، فرقة أهل القرآن: ١٢.
(٧) ينظر: تفسير الطبري: ١٣/ ٩١.

جملةً أو تفصيلًا[١]، لكن التفصيل قطعًا شمل القوانين والأصول العامة[٢].

وقد استند القرآنيُّون- أيضًا- على آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) في إثبات شموليَّة النصِّ القرآنيِّ لكلِّ شيء، فالقضايا التشريعيَّة داخلة ضمن هذا العموم؛ لذا نكتفي بالقرآن ولا نرجع إلى السُّنَّة رجوعًا لا داعي له[٣]. وفي الردِّ على هذا الاستدلال يرى البحث أنَّ القرآنيِّين لم يستندوا لبيان صحة مذهبهم إلى أدلَّة متينة لا تخالف النصَّ القرآنيَّ لا أقل؛ لذا فإنَّ هذا الدليل يكشف عن عدم فهمهم الصحيح للقرآن الكريم، ثم إنَّ اقتطاع نصٍّ منه من دون ضمِّه إلى باقي النصوص يؤدِّي إلى قراءة غير فاحصة، ورؤية غير واضحة لمراد اللَّه تعالى.

فلو كان النصُّ القرآنيُّ ذكر كلَّ شيءٍ على نحو التفصيل فما الداعي بأن يأمر اللَّهُ تعالى نبيَّه أن يُبيِّن لهم القرآن؟! على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤) فعدم التفريط في الكتاب من أيِّ شيءٍ يدلُّ على أنَّ الكتابَ لم يترك شيئًا يحتاجه الإنسان في أمور الدين والدنيا إلَّا وبيَّنه مجملًا أو مفصَّلًا، بحسب ما ذهب إلى ذلك أغلب المفسِّرين من الفريقين، وفسَّر بعضهم أنَّ المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، فاللوح المحفوظ فيه ذكر كلِّ شيءٍ[٤]. بحسب هذا المبنى يذهبون إلى أنَّ القرآن الكريم جامعٌ للأحكام الشرعيَّة، فكلُّ مسألة يستخرجون حكمها من القرآن، والبحث اختار بعض المسائل لباب الصلاة بوصفها مثالًا لبيان كيفيَّة شمول القرآن الكريم لأحكام المسائل الفقهية جميعًا.

(١) ينظر: التبيان: ٦/ ٢١٠.
(٢) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٦١.
(٣) ينظر: مجلة إشاعة القرآن، العدد ٣، ١٩٠٢م: ٤٩، نقلًا عن: شبهات القرآنيين حول السُّنَّة النبوية: ٤٩، وشبهات القرآنيين: ٢٦.
(٤) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٤/ ١٢٨-١٢٩.

اختلفت مباني القرآنيِّينَ في كيفيَّة الصلاة وما يُقرأ فيها، وعدد الركعات والأوقات اختلافًا كبيرًا؛ والسبب يعود -برأي الباحث- إلى أنَّ القرآنيِّين حينما أنكروا السُّنَّة صاروا أمام مشكلة كبيرة وهي أن يستنبطوا جزئيَّاتِ هذا الفعلِ العبادي من القرآن الكريم؛ لذا شرَّقت الأقوالُ وغرَّبَت، وأخذوا يحمِّلون النصَّ ما لا يحتمل، ويأتون بالآية التي لا سياق فيها بالصلاة ويستدلُّون بها عليها، كلُّ ذلك جعل استدلالاتهم لا تصمد حين وضعِها على طاولة النقد والتقييم.

عندما نأتي إلى عدد ركعات الصلاة يستند مثلًا (جكرالوي) في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (فاطر: ١) إذ يذكر في بيان وجه الاستدلال ما نصُّه: ((اقرؤوا يا أهل السماوات والأرض (الحمد للَّه) في صلواتكم الخمس؛ لإرضاء اللَّه عزَّ وجلَّ... وهو الذي يرسل إليكم رسله من الملائكة الذي يجلبون لكم الصلوات ذات الأركان الستَّة، ومن حق كلِّ ركن أن يؤدَّى مرتين وثلاثًا حينًا، وأربعًا أخرى، على وفق كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ))[1].

وهذا الاستدلال واضح الوهن؛ إذ إنَّ سياق الآية لم يكن عن الصلاة بالمرَّة، فالسياق ذاهب إلى الحديث عن الملائكة وأصنافها.

ويرى كذلك وضع اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر في أثناء الصلاة؛ استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ (القصص: ٣٢) أي: ((ضمَّ يديك على القلب بخضوعٍ وخشوعٍ أمام اللَّه عزَّ وجلَّ))[2].

إنَّ هذه الآية تتحدَّث عن أحد البُرهانين اللذين أعطاهما اللَّه تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام حينما أمره بإتيان فرعون لإظهار صدقه، قال تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام:

(١) ترجمة القرآن للجزء الخامس: ٧٦و٨٣.
(٢) برهان الفرقان: ١٤٣.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (القصص:٣٢) ولا دلالة فيها على الصَّلاة ووضع اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر[١].

وكان يرى أنَّ تكبيرة الإحرام هي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (الحج: ٦٢)، والتسليم قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)[٢]. وذهب إلى أنَّ عدَد الصلواتِ اليوميَّة هي خمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: ١١٤)، ﴿الصَّلَاةَ طَرَفَيِ﴾ هي صلوات الفجر والظهر والعصر، و﴿زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ هي صلاتا المغرب والعشاء[٣].

وقد ردَّ عليه أحدُ القرآنيينَ وهو (عناية اللَّه وزير آبادي) بأنَّ الصلوات اليوميَّة ثلاث: الفجر والظهر والعشاء بصريح القرآن ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (الإسراء: ٧٨)[٤]، وبعضهم قال: صلاتان فقط: الفجر والعشاء، وهو ما ذهب إليه (أحمد الدين)[٥]، وبعضهم أربع: (التهجد والفجر والظهر والمساء) نحو ما ذهب إليه (السيد رفيع الدين الملتاني)[٦]، ويتوجَّه (السيد رفيع الدين) في التهجُّد والفجر إلى مشرق الشمس، وفي الظهر والمساء إلى مغرب الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ (البقرة:١١٥)، وقد استدلَّ على إنكاره لصلاة العصر بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩)؛ إذ صلاة الصبح تتزواج بالعشاء والظهر بالمغرب، أمَّا العصر فلا زوج لها[٧].

(١) ينظر: القرآنيون وشبهاتهم حول السُّنَّة: ٣٨٠.
(٢) ينظر: برهان الفرقان: ١٤٢.
(٣) ينظر: م . ن: ٩٢.
(٤) ينظر: أحسن البيان فيما في صلاة القرآن: ٣٠-٣١.
(٥) ينظر: مجلة البلاغ، عدد أبريل لسنة ١٩٣٦م: ٧٧.
(٦) ينظر: الصلاة لله والصيام للرحمن: ١٣.
(٧) ينظر: خاتم النبيين: ١١٩-١٢١؛ والصلاة لله: ١٤.

مثل هذه الاستدلالات التي لا تصمد أمام أدنى نقد، ولا غرو منها أن تصدر من بعض القرآنيين؛ لأنَّهم ضيَّقوا على أنفسهم منابع الشريعة، فأخذوا يركبون الصعب والذلول في سبيل إيجاد كلِّ جزئيَّةٍ من القرآن الكريم، والحال أنَّ القرآن الكريم كتاب لم يكن يأتي إلى كلِّ الجزئيَّات التشريعيَّة فيبيِّنها؛ بل كان مهتمًّا بالأمور الكليَّة والجوانب الرئيسة في الدين، وترك التفصيلات للمعصوم عليه السلام يقوم بدور البيانِ والتفصيلِ لما أُجمِل.

المطلب الثاني: جامعيَّةُ القرآنِ الكريم لأصولِ الأحكامِ الشرعيَّة.

يمثِّل هذا الاتِّجاه جمهورَ المسلمينَ الذين يذهبونَ إلى أنَّ القرآنَ اشتملَ على أصولِ الأحكامِ الشرعيَّةِ من دونِ الجزئيَّاتِ التي يقولونَ بتكفُّلِ السُّنَّةِ الشريفةِ ببيانها. ونجدُ أنَّ العلماءَ يبحثونَ هذه المسألةَ بنحوٍ من التفصيلِ عندَ عرضِهم لمسألةِ تقسيماتِ السُّنَّة، وبالتحديدِ عندَ السُّنَّةِ التأسيسيَّة، فيُطرحُ السؤالُ أ هذا التأسيسُ من لدن السُّنَّةِ هو لأحكامٍ لم تُذكرْ في القرآنِ الكريمِ أصلًا أم قد ذُكِرَت إجمالًا؟

ذهبَ مشهورُ علماءِ الإماميَّةِ إلى أنَّ القرآنَ الكريمَ ذكرَ الأحكامَ الشرعيَّةَ العامَّةَ من العباداتِ والمعاملاتِ وفقهِ الأسرةِ والجناياتِ؛ لكن هذه الأحكامُ العامَّةُ لم يتطرَّقْ لها القرآنُ الكريمُ بكلِّ جزئياتِها وأحكامِها الفرعيَّةِ، و لم يتطرَّقْ -أيضا- للحالاتِ المختلفةِ والمتغيِّراتِ التي تطرأُ على موضوعِ الحكمِ، مفاد ذلك ما ذكرَه الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١). بأنَّ المراد من التفصيلِ هنا هو التفصيلُ للأصولِ الشرعيَّةِ، وما يحتاجُ الناسُ إليه بالتفصيلِ للأصولِ الشرعيَّةِ، وما يحتاجُ الناسُ إليه إمَّا جملةً أو تفصيلًا [١].

وكذلك ما يذكره أصوليُّو الإماميَّةِ عند بيانهم للسُّنَّة التأسيسيَّة بأنَّها السُّنَّة التي تأتي إلى موضوعات قد سكت عنها النَّص القرآنيِّ، ولم يبيِّن موقف الشارع منها ــ بحدود ما فهم عامَّة الناس من آياته ــ[٢]، ويذكرون أمثلة عدَّة لأحكام لم تُذكر في القرآن الكريم منها سببيَّة الشركة لحقِّ الشُّفعة، ومانعيَّة قتل الوارث مورثه من ميراثه، ووجوب نفقة الوالدين على ولدهما، وحرمة لبس الذهب للرجال، وكراهة أكل لحم الخيل، واستحباب غُسل الجمعة[٣].

(١) ينظر: التبيان: ٦/ ٢١٠.
(٢) مفتاح الوصول إلى علم الأصول: ٢/ ٣٩.
(٣) المصدر نفسه.

وقد حصل الخلاف في هذه المسألة في مدرسة أهل السُّنَّة، وقد ذكره الشافعيُّ (ت: ٢٠٤ هـ) بعد أن بيَّن أقسام السُّنَّة وفصَّل في النوع الثالث وهو السُّنَّة التأسيسيَّة؛ إذ ذكر ما نصُّه: ((فمنهم من قال جعل اللَّه له [صلى الله عليه وآله] بما افترض من طاعته وسبق في علمه من توفيقه لرضاه، أن يسنَّ فيما ليس فيه نصّ كتاب، ومنهم من قال: لم يسنّ سنَّة قط إلَّا ولها أصل في الكتاب))[١].

يظهر من كلامِ الشافعي أنَّ جماعةً ذهبت إلى استقلاليَّة السُّنَّة بمعنى: لها الأرضيَّة التي تمكِّنها من تشريع حكم لم يُذكر في القرآن مطلقًا، وهو رأي الشافعيّ[٢]، وذهبت جماعةٌ منهم: ابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ) والشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ) إلى عدم قبول استقلاليَّة السُّنَّة بالأحكام، بمعنى: أنَّ كلَّ حكم تذكره السُّنَّة فهو إمَّا أن يكون مؤيِّدًا وموافقًا لما ذكره القرآن، أو يكون مبيّنًا لحكم أُجمل، ولا يوجد حكم في السُّنَّة ليس له أصل في القرآن[٣]، فيظهر من هذا القول أنَّ القرآن الكريم مشتمل على أصول الأحكام الشرعيَّة جميعًا. واستدلَّ أصحاب إمكانيَّة الاستقلاليَّة للسُّنَّة بأنَّه لا مانع عقلًا من وقوع استقلال السُّنَّة بالتشريع ما دام الرسول صلى الله عليه وآله معصومًا عن الخطأ، وللَّه تعالى أن يأمر رسوله بتبليغ أحكامه إلى الناس من أيِّ طريق، زد على ذلك الآيات الدالَّة على وجوب اتِّباع النبيِّ صلى الله عليه وآله وطاعته وعدم مخالفته فيما يأمر وينهى[٤]، وإنَّ كلَّ الأحكام التي شرَّعتها السُّنَّة هي لاحقة في الحكم بما جاء في القرآن الكريم، فلابدَّ أن تكون زائدةً عليه[٥]، وهناك أدلة أخرى[٦]. فيما استدلَّ الشاطبيُّ على رأيه بآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)، التي تدلُّ على أنَّ السُّنَّة بيانٌ للقرآن

(١) الرسالة: ٩٣.
(٢) ذهب إلى هذا الرأي الشافعي، الرسالة: ٩٣؛ والشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: ٦٩.
(٣) ينظر: الموافقات، الشاطبي: ٤/ ٤٢٢؛
(٤) ينظر: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلاميّ: ٤١٦.
(٥) ينظر: الموافقات: ٤/ ١٦-١٧.
(٦) ينظر: السُّنَّة النبوية وعلومها: ٣٤.

الكريم، وتفصيلٌ لمجملِه، وبسطُ مختصرِه، فلا تجدُ في السُّنَّة أمرًا إلَّا والقرآن الكريم قد دلَّ على معناه دلالة إجماليَّة أو تفصيليَّة على وفق الاستقراء التام[1].

مناقشة:

يرى الباحث أنَّ اشتمال القرآن الكريم على الأحكام العامَّة والأصول التي يحتاجها الناس من دون التفصيلات كما مرَّ ذكره في الرأي المتقدِّم، لا يخلو من نظر؛ لعدم توافقه مع روايات أهل البيت عليهم السلام في هذا الصدد التي تثبت اشتمال القرآن الكريم على كلِّ شيء، وسيأتي الكلام عن هذه الروايات مفصَّلًا في المطلب الثالث. واستدلَّ أصحاب إمكانيَّة الاستقلاليَّة للسُّنَّة بآيات وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وآله في إثبات استقلاليَّة السُّنَّة في تشريع الأحكام؛ لكنَّها لا تنفع حقيقة في إثبات مدَّعاهم؛ إذ إنَّ وجه الدلالة ليس فيه انطباق تامٍّ مع الدليل؛ لأنَّ وجوب طاعة الناس لما يأمرهم به النبي صلى الله عليه وآله وما يُبيِّنه من النصِّ القرآنيّ لا يعني بالضرورة أنَّه يؤسِّس لحكم لا يوجد له أصلٌ في القرآن. أمَّا أدلَّة أصحاب القول الثاني فهي أضعف من الأوَّل؛ إذ إنَّهم يستندون إلى دليل لا يعطي دلالة واضحة ومنطبقة تمامًا مع وجه الدَّلالة، وإن كانت آيات الشموليَّة للكتاب ممكن أن تنفعهم في المقام؛ لكنَّهم توقَّفوا في الجانب النظري، ولم يُطبِّقوا ويتحقَّقوا بشكلٍ تامٍّ من وجود أحكام لم تُذكَر في الكتاب البتة، منها على سبيل المثال: حرمة لبس الحرير للرجال، وحرمة استعمال أواني الذهب في الأكل والشرب، أين نجدهما في القرآن؟ إذ لم يتطرَّق لهذين الحكمين لا من قريب ولا من بعيد، وإنَّما أسَّست لهما السُّنَّة، وكثير من الأحكام الأخرى.

وإذا يؤيِّد الباحث الرأي الأخير من جهة شمول القرآن الكريم على أصل كلِّ حكم فقهي؛ لكن يختلف معه من جهةٍ أخرى وهي مسألة إمكانيَّة استخراج أصل كلِّ حكمٍ فقهيٍّ من لدن العلماء، وهو ما لا يتحقَّق بنظر الباحث.

(١) الموافقات: ٤/ ١٢-١٣.

المطلب الثالث: جامعيَّة القرآن الكريم للأحكام الشرعيَّة مقيَّدة العلم.

يأتي الكلام في هذا المطلب عن رأيٍ آخر، وهو أنَّ القرآن فيه ذكر الأحكام العامَّة والتفصيليَّة، وكلُّ حكم شرعيٍّ فإنَّ له أصلًا في القرآن الكريم؛ لكن لا يمكن أن يَستخرج كلَّ هذه الجزئياتِ أيُّ حافرٍ ومنقِّبٍ في الكتاب الكريم – كما ذهب بعضهم في الرأي الثاني الذي مرَّ ذكره في المطلب السابق ـ وإنَّما يعلم كلَّ هذه الجامعيَّةِ هم الذين اختصَّهم اللَّه تعالى بعلمه، وهم محمَّد وآل محمَّد (صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين)، الذين يستطيعون أن يعطوا كلَّ حكم فقهيٍّ أصلَه من القرآن الكريم، أمَّا مَن دونهم عليهم السلام فلربَّما يستطيع أن يستخرج جزءًا من أصول الأحكام الشرعيَّة، وقد أشار إلى هذا الرأي الشيخ الصادقيّ[1].

وهذا الرأي يذهب إليه الباحث بدليل روايات عدَّة تُثبت علمهم عليهم السلام الشامل بكلِّ حكم في القرآن، وأكتفي بعرض بعضٍ منها بهذا الصدد وبحسب الآتي:

الرواية الأولى

عليُّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمَّد بن عيسى، عن يونس، عن حمَّاد، عن عبد اللَّه بن سنان، عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ((إذا حدَّثتكم بشيء فاسألوني من كتاب اللَّه، ثمَّ قال في بعض حديثه: إنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال، فقيل له: يا بن رسول اللَّه، أين هذا من كتاب اللَّه؟ قال: فإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾، وقال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾))[2].

---

(١) ينظر: الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسُّنَّة: ١٤/ ٤٤٨.
(٢) الكافي: ١/ ٦٠.

وجه الدلالة:

قوله عليه السلام: ((إذا حدَّثتكم بشيءٍ فاسألوني من كتاب اللَّه))، فيه دلالة صريحة على أنَّ كلَّ ما يخرج من عنده عليه السلام من أحاديث فقهيَّة وعقديَّة وأخلاقيَّة وغيرها فلها أصلٌ في القرآن الكريم.

وقد ذكر المازندرانيّ (ت: ١٠٨١هـ) في شرح هذا الحديث ما نصُّه: ((أي فاسألوني عن موضعه ومأخذه من كتاب اللَّه، وفيه تنبيه على أنَّ كلَّ شيء كان أو يكون أو كائن فهو في القرآن؛ لأنَّه برهان كلِّ علم، ودليل كلِّ شيء، ونور كلِّ حقٍّ، وصراط كلِّ غائب، وشاهد كلِّ حكم، وضياء كلِّ صدق، فكلُّ فعل لا يطابقه فهو باطل، وكلُّ قولٍ لا يوافقه فهو كاذب، وكلُّ من تمسَّك برأيه فهو خاسر))[1].

فيظهر ممَّا تقدَّم أنَّ المعصوم عليه السلام يعلم أصلَ كلِّ حكم شرعيٍّ في القرآن الكريم، فهذا يجعلنا نسلِّم بأنَّ القرآن الكريم جامع لأصول الأحكام الشرعيَّة.

البحث السندي

تتأكَّد صحَّة القول المتقدِّم في حال لو كانت هذه الرواية صحيحة سندًا؛ لذا لابدَّ من إمعان النظر جيِّدًا في رجال سند الحديث المتقدِّم.

اشتمل الحديث على سبعة رجالٍ وصولًا إلى المعصوم عليه السلام، وهنا سنقف على كلِّ واحدٍ وقفةَ عرضٍ لأقوال الرجاليِّين فيه:

١- علي بن إبراهيم بن هاشم أبو الحسن القميّ: ((ثقة في الحديث، ثبت، معتمد، صحيح المذهب))[2].

٢- أبو إسحاق إبراهيم بن هاشم أبو الحسن القميّ: قال العلَّامة الحلِّي فيه:

(١) شرح أصول الكافي: ٢/ ٢٨١.
(٢) رجال النجاشي: ٢٦٠.

((أصله من كوفة وانتقل إلى قم، وأصحابنا يقولون: إنَّه أوَّل من نشر حديث الكوفيين بقم، وذكروا انه لقي الرضا عليه السلام، وهو تلميذ يونس بن عبد الرحمن، ولم أقف لأحد من أصحابنا على قول في القدح فيه، ولا على تعديله بالتنصيص، والروايات عنه كثيرة، والأرجح قبول قوله))[1]، وذكر ابن طاووس (ت: ٦٦٤ هـ) أنَّه من الذين اتَّفق الأصحاب على وثاقته[2].

٣- محمَّد بن عيسى: اختلف علماء الإماميَّة في توثيقه وتضعيفه؛ لكن المشهور ذهبوا إلى توثيقه وردّ أقوال مَن ضعَّفه، وقد ذكر السيد الخوئي صحَّة إحدى الروايات عند مناقشة سندها ما نصُّه: ((الظاهر صحَّة الرواية فإنَّ الاستثناء لم يصدر إلَّا من الصدوق وشيخه ابن الوليد، فما في الكلمات من إسناده إلى القميِّين في غير محلِّه، وحيث إنَّ الصدوق تابع في ذلك لشيخه كما صرَّح قدس سره بالتبعيَّة وأنَّه لا رأي له في ذلك مستقلًّا فليس المستثني في الحقيقة إلَّا ابن الوليد فحسب؛ لكن المتأخرين عنه أنكروا عليه هذا الاستثناء وخطأوه في ذلك، قال النجاشيُّ بعد توصيف العبيديّ بجلالة القدر، وأنَّه ثقة عين))[3].

٤- يونس بن عبد الرحمن: وهو غنيٌّ عن التعريف وثَّقه كبار علماء الإماميَّة ولم يختلفوا فيه[4].

٥- حمَّاد بن عيسى الجهني، وثَّقه رجال الحديث، ولم يختلفوا فيه[5].

٦- عبد اللَّه بن سنان، وثَّقه النجاشيُّ في رجاله[6].

٧- أبو الجارود زياد بن المنذر، اختلف العلماء في الرجل؛ لكن السيِّد

(١) خلاصة الأقوال في معرفة الرجال: ٤٩.
(٢) ينظر: فلاح السائل: ١٥٨.
(٣) التنقيح: ٤/ ٢٠٩.
(٤) راجع على سبيل المثال: رجال النجاشي: ٤٤٦-٤٤٧، معجم رجال الحديث: ٢١/ ٢٠٩.
(٥) ينظر: رجال النجاشي: ١٤٢.
(٦) ينظر: م . ن: ٢١٤.

الخوئي فنَّد كلَّ أقوال التضعيف فيه وانتهي بالقول إلى وثاقته[١].

وبعد أن اتَّضح أنَّ رجال السَّند للرواية المتقدِّمة كلّهم ثقات، فإنَّ الرواية صحيحة وصالحة للاستدلال بها.

الرواية الثانية:

عن محمَّد بن يحيى، عن محمَّد بن عبد الجبار، عن ابن فضَّال، عن حماد بن عثمان عن عبد الأعلى بن أعين قال: ((سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: قد ولدني رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب اللَّه وفيه بدء الخلق، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وفيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر الجنَّة وخبر النار، وخبر ما كان، و[خبر] ما هو كائن، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفِّي، إنَّ اللَّه يقول: فيه تبيان كلِّ شيء))[٢].

وجه الدَّلالة:

قول الإمام الصادق عليه السلام ((وما هو كائن إلى يوم القيامة)) إذ يذكر المازندرانيُّ في شرح هذه العبارة أنَّ المعصوم عليه السلام يعلم ما هو كائن ((من الوقائع اليوميَّة والحوادث الجزئيَّة والآثار العلويَّة والسفليَّة وكلِّ ما يجري في هذا العالم))[٣].

وما لا يخفى على مَن يعلم بأساليب العموم والإطلاق في الكلام العربي، ويتفحَّص كلام المعصوم عليه السلام ويطَّلع على صيغ الإطلاق وسياق الكلام الذي نستنبط منه أنَّه عليه السلام في مقام الإطلاق، وما يعبِّر عنه في علم الأصول الإطلاق المقاميّ، فنفهم منه أنَّ القرآن الكريم مشتملٌ على كلِّ شيء من الوقائع اليوميَّة، وما يحتاجه الناس في حياتهم اليوميَّة بما فيها أحكام الشارع المقدَّس، التي هي أوْلى بشمول القرآن لها من جزئيَّاتٍ وحوادث مهمَّةٍ وغير مهمَّةٍ لربَّما في حياة الإنسان من خلق آدم إلى يوم القيامة.

(١) ينظر: معجم رجال الحديث: ٨/ ٣٣٥.
(٢) الكافي: ١/ ٦١.
(٣) شرح أصول الكافي: ٢/ ٣٠٠.

وبذلك نصل إلى نتيجة أنَّ المعصوم عليه السلام يعلم بأصول الأحكام الشرعيَّة كلِّها في القرآن الكريم، وعدم معرفة العلماء لأصول كثيرٍ من جزئيات الحكم الشرعيِّ من القرآن الكريم لا يعني أنَّ القرآن غير مشتملٍ عليه، إذ قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وأهل الذكر هم محمَّد وآل محمَّد (صلوات اللَّه عليهم أجمعين) كما ذهب في تفسير هذه الآية أغلب مفسِّري الإماميَّة، فعند الرجوع إليهم نصل إلى معرفة الأصل للحكم الشرعيّ من القرآن الكريم.

البحث السندي:

١- محمَّد بن يحيى: وثَّقه النجاشي[١].

٢- محمَّد بن عبد الجبار: وثَّقه السيد الخوئي[٢].

٣- الحسن بن علي بن فضال: وثَّقه الشيخ الطوسي[٣].

٤- حمَّاد بن عثمان: وثَّقه النجاشي[٤].

٥- عبد الأعلى بن أعين مولى آل سام: وثَّقه الشيخ الطوسي وعدَّه من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[٥].

وهناك روايات أُخر لا يسع المجال للوقوف عندها مفصَّلًا، وهي تثبت وتدعم هذا الرأي منها: عن المعلَّى بن خنيس قال: ((قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلَّا وله أصل في كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال))[٦]، فدلالته

(١) ينظر: رجال النجاشي: ٣٥٣.
(٢) ينظر: معجم رجال الحديث: ١٥/ ٢٧٦-٢٧٧.
(٣) ينظر: رجال الطوسي: ٣٥٤.
(٤) ينظر: رجال النجاشي: ١٤٣.
(٥) ينظر: رجال الطوسي: ٢٤٢.
(٦) الكافي: ١/ ٦٠.

واحدة على شمول القرآن الكريم على كلِّ شيء؛ لكن لا يمكن تحصيلها إلَّا من طريق المعصوم عليه السلام كما تقدَّم في الروايتينِ السابقتينِ.

وبعد هذه الجولة في المطالب الثلاثة يرجِّح البحث الرأي الثالث، وهو أنَّ القرآن الكريم جامعٌ لأصلِ كلِّ حكم شرعيٍّ؛ لكن لا يعلمُ كلَّ هذه الأصولِ إلَّا المعصومُ عليه السلام، أمَّا غيرُ المعصومِ فيمكنه أن يستخرج بعضًا منها، لقوَّة أدلَّته، وعدم صمود غيره حين عرضه على طاولة النقد والمناقشة.

الخاتمة:

بعد هذه الرِّحلة العلميَّة في موضوع الدراسة، وما تمَّ عرضه في محطَّاته يصل البحث إلى المحطَّة الأخيرة التي يتمُّ فيها عرض النتائج التي توصَّل إليها الباحث والتوصيات.

أولًا: النتائج

أفرز البحث مجموعة من النتائج التي استنتجها الباحث أهمها:

١- تمّ تلمُّس الفرق بين ادِّعاء القرآنيين أصحاب القول الأوَّل وبين القول الثالث، الذي كان في بادئ الأمر أنَّهما واحد، والحال هناك فرق بينهما وله آثار كبيرة مترتبة عليه.

٢- إنَّ القول الثالث وهو أنَّ القرآن الكريم جامع لأصول الأحكام الشرعيَّة كلِّها إلى يوم القيامة، ولا يعلمها جميعًا إلَّا المعصوم عليه السلام هو القول الأقوى من بين الأقوال الأخرى التي تمَّ عرضها ومناقشتها؛ بدليل ما تقدَّم في الاستدلال على هذا القول.

٣- هناك فرق بين رأي جمهور علماء المسلمين والرأي الثالث، وهو أنَّ الجمهور يعتقدون بجامعيَّة القرآن الكريم للأصول العامة فقط، أمَّا الرأي الثالث فيذهب إلى القول بجامعيَّة القرآن الكريم للأصول العامَّة والجزئيَّات.

ثانيًا: التوصيات

١- يوصي البحث بأن يتمَّ حثّ المؤسَّسات العلميَّة والمراكز البحثيَّة على تسليط الضوء على هذا القول؛ لكي يتعرَّف الناس على كنز القرآن الكريم أكثر فأكثر، وكذا على ريادة أهل البيت عليهم السلام في علمهم بالقرآن الكريم على سائر الخلق.

٢- عقد ندوات ومحاضرات بهذا الصَّدد في الجامعات والمدارس الدينيَّة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقِّ من علم الأصول، محمَّد بن علي بن محمَّد الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٩هـ.

٢- الاستدلال بالدليل القرآني في التفسير، إيمان بنت عبد الإله بن محمَّد باجسير، الجمعية العلميَّة السعوديَّة للقرآن الكريم وعلومه، الرياض- السعوديَّة، ط١، ١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م.

٣- تأريخ تدوين السُّنَّة وشبهات المستشرقين، حاكم عيسان المطيري، جامعة الكويت، الكويت، ط١، ٢٠٠٢م.

٤- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب القصير، دار إحياء التراث العربي، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط١. ١٤٠٩هـ.

٥- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، جُرجي زيدان (ت: ١٣٣٢هـ)، ط٢، [د. ت].

٦- التنقيح في شرح العروة الوثقى لأبي القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣هـ)، تقرير البحث آية اللَّه العظمى السيِّد أبي القاسم الخوئي، تأليف الميرزا علي التبريزي الغرويّ، دار الهادي للمطبوعات، ط٣، قم المقدسة - إيران، ١٤١٠هـ.

٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بتفسير الطبري، محمَّد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسَّسة الرِّسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسننه وأيَّامه (صحيح البخاري)، محمَّد بن إسماعيل أبو عبداللَّه البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمَّد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٩- خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، العلَّامة الحلِّي، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ).

١٠- رجال الطوسي، محمَّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة - إيران، (د. ط)، ١٤١٥هـ.

١١- الرسالة، محمد بن إدريس بن العباس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ.

١٢- السُّنَّة النبوية وعلومها، أحمد عمر هاشم (معاصر)، مكتبة غريب، القاهرة - مصر، ط٢، [د. ت].

١٣- السُّنَّة في مواجهة الأباطيل، محمَّد طاهر حكيم غلام (معاصر)، [د. ط]، رابطة العالم الإسلامي، السعودية، ١٤٠٢هـ .

١٤- شبهات القرآنيِّين حول السُّنَّة النبوية، محمود محمد مزروعة (معاصر)، بحث مقدم في ندوة عناية المملكة العربيَّة السعودية بالقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ.

١٥- شبهات القرآنيِّين، عثمان بن معلم محمود (معاصر)، [د. ط]، مجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، [د. ت].

١٦- شرح أصول الكافي، مولى محمَّد صالح المازندراني (ت: ١٠٨١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٧- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت، ط١، ١٤١٤هـ .

١٨- الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسُّنَّة، محمد الصادقي (معاصر)، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، قم - إيران، ١٤٠٦هـ.

١٩- فلاح السَّائل، أبو جعفر علي بن موسى ابن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، بلا معلومات الطبع (نسخة مكتبة أهل البيت عليهم السلام).

٢٠- فهرست أسماء مصنفي الشيعة المشتهر بـ(رجال النجاشي)، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الأسدي النجاشي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد موسى الشبيري الزنجاني، مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، [د. ط]، ١٤٠٧هـ .

٢١- القرآنيّون وشبهاتهم حول السُّنَّة، إلهي بخش، خادم حسين (ت: ٢٠١٩م) مكتبة الصديق للنشر والتوزيع، الطائف- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ط٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٢- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلاميَّة، إيران، ط٣، ١٣٦٣هـ . ش.

٢٣- المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل (معاصر)، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق وبيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت: ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، [د. ط]، [د.ت].

٢٥- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣هـ)، ط٥، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٦- مفتاح الوصول إلى علم الأصول، أحمد كاظم البهادلي (معاصر)، دار المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٧- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٨- مكانة السُّنَّة في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي (١٣٨٤هـ)، دار الورّاق للنشر والتوزيع، [د. ط]، [د. ت].

٢٩- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفَّان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٠- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (ت: ١٣٤١هـ)، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣١- نظرية السُّنَّة في الفكر الإمامي الشيعي - التكوّن والصيرورة، حيدر محمد كامل حب اللَّه (معاصر)، الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

رِيادَةُ أَهلِ البَيتِ عليهم السلام في تَفسِيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ

-دراسةٌ تطبيقيَّةٌ وتحليليَّةٌ-

م. م. سرمد فاضل علي الصفار

Asst. Lecturer Sarmad Fadel Ali Al-Saffar

الملخَّص:

البحث في تفسير القرآن الكريم له مناهج متعدِّدة كلٌّ منها يأخذ انطباقاته ومساحة تأثيره في مجوع آيات القرآن الكريم، ولكلٍّ من تلك المناهج مزاياها البحثيَّة وامتداداتها المعرفيَّة، وكثيرٌ منها قد أُشِّر عليها جملةً من القصور سواء على مستوى الآليات أو مساحة الانطباق على جملة الخطاب القرآنيّ، ومن تلك المناهج هو تفسير القرآن بالقرآن، وهذا المنهج يُعدُّ من المناهج الفاعلة والمؤثِّرة في تفسير القرآن الكريم، وله من الانطباق على مجالٍ لا يُستهان به من مساحة آيات القرآن الكريم، ولكنَّه لا يُتاح لأيِّ ناظرٍ في الخطاب القرآنيّ؛ لما يحتاجه من عمق رؤيةٍ وكبيرِ معرفةٍ بالمقاصد الإلهيَّة، وكيفيَّة التنسيق والانسجام بين الآيات القرآنيَّة التي تشترك على نحوٍ يُفسِّر بعضها بعضًا، ولا يخفى أيضًا خطورة التصدِّي لهذا النوع من التفسير من دون أن تكون هناك معرفةٌ راسخةٌ بتلك المقاصد، ومن هنا عوَّلنا في هذه الدِّراسة على البحث في ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المنهج، مع بيان ريادتهم فيه وسبقهم في التقنين لبعض مساراته ومساحة اشتغاله في مجمل المساحة العامَّة للآيات القرآنيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: أهل البيت عليهم السلام، تفسير القرآن بالقرآن، دراسة تحليليَّة.

Abstract:

The study of Quranic interpretation encompasses various methodologies, each with its unique application and influence across the verses of the Holy Quran. These methodologies have their research advantages and intellectual expansions, yet many have been noted for certain shortcomings, either in their mechanisms or in their applicability to the entirety of the Quranic discourse. One such methodology is the interpretation of the Quran by the Quran itself, which stands as an effective and influential approach to understanding the Quran. This method covers a significant portion of the Quranic verses but is not easily accessible to any reader; it requires deep insight and substantial knowledge of divine purposes and how to coordinate and align between the verses that collectively explain one another.

It is also important to acknowledge the potential risks of engaging in this type of interpretation without a solid understanding of these purposes. Thus, this study focuses on the contributions of Ahl al-Bayt (peace be upon them) to this method, highlighting their pioneering role and their precedence in formulating certain aspects of it and its scope within the overall Quranic text.

Keywords: Ahl al-Bayt (peace be upon them), interpretation of the Quran by the Quran, analytical study.

مقدِّمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ، أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ، وأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بَادِيًا، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِهِ النَّبِيِّ المُختارِ وآلِهِ الأئمَّة الأطهار صلوات اللَّه عليهم أجمعين وبعد:

لا يخفى على كلِّ متتبِّع أنَّ للتفسير أهمِّيَّة بالغة، وضرورة ملحَّة للكشف عن مراد اللَّه تعالى في آياته القرآنيَّة، وهذا التفسير يعتمد بدرجةٍ كبيرةٍ المنقولَ من القرآن الكريم والسُّنَّة في استظهار معاني النصِّ القرآنيِّ؛ لأنَّ الرافد الرئيس للنقل ينبع من مصادر الدليل الشرعيَّة؛ وهما القرآن الكريم و السُّنَّة الشريفة[1]، وكلاهما حُجَّة بلا ريب.

وإحدى طراق التفسير المعهودة والمعروفة تفسير القرآن بالقرآن الذي يُعدُّ أحد أقسام المنهج النقليِّ؛ لأنَّ الأخير يُقسَّم على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالرواية. وما يهمُّنا هنا من تفسير القرآن بالقرآن هو ما ورد من تفسير بهذه الطريقة عن أهل البيت عليهم السلام؛ إذ يمتدُّ هذا المنهج إلى عصر الرسالة، وجاءنا عن طريق أهل البيت عليهم السلام التفسير به وتعليم أصحابهم إمكان العمل به، بيد أنَّ بحثنا هذا يسعى ليسلِّط الضوء على موارد متنوِّعة؛ بعضها لا يمكن الخوض فيها لغير أهل البيت عليهم السلام، وبعضها الآخر قد يُتاح لغير المعصوم الخوض فيها، إلَّا أنَّ بلوغ ذلك غاية في العسرة، وبذلك فإنَّ في هذه الموارد ريادة خاصَّة للمعصوم بالعمل بهذه الطريقة لربط المؤمنين بالقرآن الكريم.

ومن ثمَّ فإنَّ هذا البحث يصبو إلى إظهار بعض الموارد التي كان لأهل

(١) يتعلَّق الكلام هنا بالسُّنة القوليَّة للمعصومين خاصَّة، وهم الرسول صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام. ينظر: الكافي: ٣ .

البيت عليهم السلام أثرٌ بارزٌ في استعمال منهج تفسير القرآن بالقرآن، ممَّا يصعب أو يستحيل لغيرهم أن يجودوا بمثله، فلا يُعتنى بكلِّ ما ورد من تفسير القرآن بالقرآن من طريق النقل؛ وإنَّما يُراد له أن يكشف عن ريادة أهل البيت عليهم السلام في التفسير.

وعلى أساس ذلك قُسِّم البحث على مبحثَيْنِ؛ هما:

المبحث الأوَّل: تعذُّر تفسير القرآن بالقرآن

وهو ما كان فيه تطبيق هذا المنهج بشكلٍ غير مباشر، فيحتاج إلى تتمَّة من المعصومين عليهم السلام يكشف عن الرابط بين الآية وأختها، فيُتَعذَّر الخوض فيه لغيرهم.

المبحث الثاني: تعسُّر تفسير القرآن بالقرآن

وهو ما كان فيه تطبيق هذا المنهج بشكلٍ مباشرٍ بوساطة تفسير الآية بالأخرى، بيد أنَّ الاهتداء إليه تكتنفه العسرة في التطبيق، فيصعب على غير المعصومين عليهم السلام الخوض فيه.

المبحث الأوَّل: تعذُّر تفسير القرآن بالقرآن

توطئة:

ويُراد بالتعذُّر هنا الاستحالة، ومعناه استحالة تطبيق منهج تفسير القرآن بالقرآن عند غير أهل البيت عليهم السلام؛ وذلك لأنَّ علاقة الآيات بعضها ببعضها الآخر لاتتَّضح إلَّا بعد أن يُقرِّبها المعصوم إلى الفهم، فيصبح كلام المعصوم تمهيدًا موصلًا بين الآية الأولى والثانية، فيكون توضيح المعصومين عليهم السلام للآيات القرآنيَّة حلقة وصل تربط بين الآية وأختها.

وعلى أساس ذلك فإنَّ هذه الطريقة تتعذَّر على غير المعصوم، ولايتسنَّى للمفسِّرين بلوغها على وجهها المراد؛ لأنَّ الربط بين الآيات القرآنيَّة على ضوء تفسير القرآن بالقرآن هنا لايكون بشكلٍ مباشر. وعلى هذا المضمون تطبيقات متعدِّدة في روايات أهل البيت عليهم السلام، ستُذكر المطالب الآتية ثلاث تطبيقات منها:

المطلب الأوَّل: في ميراث الذكر والأنثى

قال تعالى فيما يخصُّ ميراث الذكر والأنثى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[1]، وتساءل بعضهم عن سبب هذا التفاوت في الميراث، فلماذا ترث البنت نصف مايرثه الذكر؟

وقد أصبح هذا الموضوع من المواضيع التي تثار للتشكيك في عدالة الباري عزَّ وجلَّ، وذهب بعض المفسِّرين إلى القول بأنَّ سبب هذا التفاوت هو تفضيل الذكر على الأنثى يستظهر منه ذلك[2]، وسبب ذلك أنَّهم لم يجدوا تعليلًا مناسبًا لتنصيف ميراث البنت عن ميراث الذكر، فقالوا بتفضيل الذكر على الأنثى، لكنَّ

(١) سورة النساء:١١.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل و أسرار التأويل: ٢/ ٦٢، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١/ ٣١١، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٢٦.

المتفحِّص لروايات أهل البيت عليهم السلام، سيجدهم وضَّحوا سبب التفاوت هذا؛ إذ ورد في ما رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام كَتَبَ إِلَيْهِ فِيمَا كَتَبَ مِنْ جَوَابِ مَسَائِلِهِ: ((عِلَّةُ إِعْطَاءِ النِّسَاءِ نِصْفَ مَا يُعْطَى الرِّجَالُ مِنَ الْمِيرَاثِ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا تَزَوَّجَتْ أَخَذَتْ وَالرَّجُلُ يُعْطِي؛ فَلِذَلِكَ وُفِّرَ عَلَى الرِّجَالِ، وَ عِلَّةٌ أُخْرَى فِي إِعْطَاءِ الذَّكَرِ مِثْلَيْ مَا تُعْطَى الْأُنْثَى؛ لِأَنَّ الْأُنْثَى فِي عِيَالِ الذَّكَرِ إِنِ احْتَاجَتْ وَعَلَيْهِ أَنْ يَعُولَهَا وَعَلَيْهِ نَفَقَتُهَا، وَلَيْسَ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَعُولَ الرَّجُلَ، وَلَا تُؤْخَذُ بِنَفَقَتِهِ إِنِ احْتَاجَ، فَوُفِّرَ عَلَى الرَّجُلِ لِذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1]))[2].

فقد بان من نصِّ هذه الرواية الوجه التفسيريُّ لتنصيف حظِّ الأنثى، وهو أنَّها تأخذ الصداق من الرجل في الزواج، وعلى الرجل أن يعيلها؛ ولهذا ذكر الإمام عليه السلام الآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء في قيمومة الرجال على النساء، فأصبحت الآية الثانية مبيِّنة للآية الأولى، بيد أنَّ البيان الذي جاد به الإمام عليه السلام في الرواية من سبب التنصيف كان ممهِّدًا لفهم معنى قيمومة الرجل في الآية الثانية، ولولا هذا البيان تبقى الآيتَانِ كلتاهما محاطتانِ بالغموض.

وأمَّا التفضيل الوارد في الآية الثانية فيُراد التفضيل الخاصُّ بالتدبير فحسب، ولايُراد به التفضيل القربيُّ، وهذا ما وضَّحه السيِّد الطباطبائيُّ بأنَّ المراد ((به إنَّما هو تفضيل في التجهيز بما ينتظم به أمر الحياة الدنيويَّة؛ أعني المعاش أحسن تنظيم، ويصلح به حال المجتمع إصلاحًا جيِّدًا، وليس المراد به الكرامة التي هي الفضيلة الحقيقية في الإسلام، وهي القربى والزُّلفى من اللَّه سبحانه، فإنَّ الإسلام لا يعبأ بشيء من الزيادات الجسمانيَّة التي لا يستفاد منها إلَّا للحياة المادِّيَّة، وإنَّما هي وسائل يُتوسَّل بها لما عند اللَّه))[3].

(١) سورة النساء: ٣٤.
(٢) علل الشرائع: ٢/ ٥٧٠.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٢١٧.

وقال الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ) في ذلك ((إنَّما وجب للذكر ضِعْفُ ما للأنثى؛ لأنَّ عليه العقل والجهاد، وليس ذلك على الإناث، كذلك على الولد الأكبر قضاء الصوم عن أبيه والصَّلاة إذا كان قد فرَّط فيهما، وهو إن يجب عليه قضاء الصَّوم من مرضٍ أو سفرٍ فيسوفه و يخترم دونه، ويجب عليه قضاء الصلاة التي نسيها فيسوفها، وتأتيه المنيَّة قبل قضائها فيلزم الولد الأكبر من الذكور قضاء ذلك فلأجله فُضِّل في الميراث بما ذكرناه))[1].

وعلى أساس ذلك فإنَّ تنصيف سهم الأنثى عن سهم الذكر، استنادًا إلى وظائف كلٍّ منهما، وليس هو تفضيلٌ بمعنى تكريم للذكر على الأنثى، فإنَّ هذا التفضيل الذي ذكرته الآية المباركة لتنظيم حياتهما، وهذا من مقتضيات العدالة الإلهيَّة.

المطلب الثاني: في قطع يد السارق

لا يخفى أنَّ الحكم على السَّارق في الإسلام هو قطع يده لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وهذا الحكم ممَّا اتَّفق عليه جميع المسلمين، بيد أنَّهم اختلفوا في محلِّ القطع، فذهبوا إلى أقوال متعدِّدة، وقد بان ذلك الخلاف في مجلس المعتصم العبَّاسيِّ، كما في الرواية الآتية: فقد رُوِيَ عن زرقان صاحب ابن أبي داود وصديقه بشدة قال: ((رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمٌّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أنِّي قدمت منذ عشرين سنة، قال: قلت له ولِمَ ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبا جعفر محمَّد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم قال: قلت له: وكيف كان ذلك قال: إنَّ سارقًا أقرَّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدِّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر

(١) الفصول المختارة: ١٨٤.
(٢) سورة المائدة: ٣٨.

محمَّدًا بن عليٍّ عليه السلام، فسألنا عن القطع في أيِّ موضع يجب أن يُقطَع قال: فقلت من الكرسوع قال: وما الحجَّة في ذلك؟ قال: قلت: لأنَّ اليد هي الأصابع والكفُّ إلى الكرسوع، لقول اللَّه في التيمُّم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾[1] واتَّفق معي على ذلك قوم. وقال آخرون: بل يجب القطع من المِرْفق، قال: وما الدليل على ذلك قالوا: لأنَّ اللَّه لمَّا قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[2] في الغسل دلَّ ذلك على أنَّ حدَّ اليد هو المرفق. قال: فالتفت إلى محمَّدٍ بن عليٍّ عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلَّم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني ممَّا تكلَّموا به، أيُّ شيء عندك؟ قال: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك باللَّه لما أخبرت بما عندك فيه، فقال: أمَّا إذا أقسمت عليَّ باللَّه إنِّي أقول: إنَّهم أخطؤوا فيه السُّنَّة فإنَّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيُترك الكفُّ، قال: وما الحجَّة في ذلك؟ قال: قول رسول اللَّه صلى الله عليه وآله السُّجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدَيْن، والركبتَيْن، والرجلَيْن، فإذا قُطِعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبقَ له يد يسجد عليها، وقال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾[3]؛ يعني به هذه الأعضاء السَّبعة التي يُسجَد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، و ما كان للَّه لم يُقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك، وأمر بقطع يد السَّارق من مفصل الأصابع دون الكفِّ قال: ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنَّيت أنِّي لم أك حيًّا))[4].

فالملاحظ من هذا الحديث أنَّ الإمام عليه السلام قد أبدى تفسيرًا لم يكن متوقَّعًا من الفقهاء؛ إذ يُلحَظ أنَّهم قد حاولوا أن يستدلُّوا بالقرآن الكريم في تثبيت آرائهم الفقهيَّة، واستعملوا طريقة تفسير القرآن بالقرآن في إسناد آرائهم، إلَّا أنَّ نظرتهم التجزيئيَّة للآيات حال دون بلوغهم عمق الدليل الفقهيِّ، فكلُّ واحدٍ من الفقهاء

(١) سورة النساء: ٤٣ .
(٢) سورة المائدة: ٦ .
(٣) سورة الجنِّ: ١٨ .
(٤) تفسير العياشي: ١/ ٣١٩ – ٣٢٠، جامع أحاديث الشيعة: ٣٠/ ٩١٢.

تشبَّث بآيةٍ من كتاب اللَّه بوصفها مسندًا لفتواه، بيد أنَّ الإمام الجواد عليه السلام أبطل أقوالهم بدليلٍ حاكم على أدلَّتهم، وهذا من باب الأهمِّ والمهمِّ، فإنَّ ما جادوا به من أدلَّة وإن كانت تحكي عن لسان القرآن، إلَّا أنَّ نظرتهم لم تكن شاملةً للدِّين ككلٍّ؛ لأنَّ النظرة الجزئيَّة تعطي موقفًا خاطئًا؛ ممَّا يسبِّب انقلابَ المعنى، وهذه النظرة تخالف التدبُّر في القرآن الكريم(١).

فمع أنَّ تفسير القرآن بالقرآن محبَّب في نفسه إلَّا أنَّ العمل عليه في بعض موارده ليس بالأمر السهل؛ لأنَّه قد يتوقف على تفسير المعصوم له؛ ولهذا علَّق السيِّد السبزواريُّ في دلالة الحديث السالف الذكر بأنَّه: ((يدلُّ على أنَّ القرآن يفسِّر بعضه بعضًا، وأنَّه لا يمكن الأخذ بإطلاق آية مع الإعراض عن القرائن الأخرى مطلقًا، كما يدلُّ على أنَّه لا يمكن الاستغناء عن المعصوم عليه السلام في فهم ظواهر الآيات، فإنَّهما لن يفترقا))(٢). فإنَّ الفقهاء الذين كانوا مُعَدِّين للإفتاء في هذه الحادثة عندما طُلِبت آراؤهم الفقهيَّة حاولوا أن يأتوا بالحكم الشرعيِّ من القرآن الكريم، لكنَّهم أخطأوا؛ إذ إنَّهم لم يستقرؤا الآيات القرآنيَّة جميعها، والدليل أنَّ أحدهم عارض الآخر في استدلاله، فالأوَّل حكم بالقطع من منطقة الكرسوع، بينما الآخر حكم بالقطع من منطقة المِرْفَق، هذا من جانب .

ومن جانبٍ آخر أنَّهم أفتوا بآرائهم، ولم تكن لهم إحاطة تامَّة بأحكام الشريعة؛ لذلك فإنَّهم خالفوا بحكمهم حكمًا آخر، ممَّا كان للإمام الجوادِ موقفًا معارضًا لما حكموا به، فبيَّن لهم أنَّ ما أفتوا به مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٣)، فإنَّ ماحكموا بقطعه هو من المساجد التي هي للَّه، وما كان للَّه لا يُقطَع، فإنَّ هذه الآية لها حاكميَّة على الآيات التي ذكروها في حدِّ السرقة .

(١) ينظر: التدبر في القرآن: ٦٥١ .
(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ١١/ ٢٣٢.
(٣) سورة الجن: ١٨ .

وقد بيَّن لهم الإمام عليه السلام مصاديق المساجد التي ذكرها رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، وهذا المعنى لم يكن ملازمًا للآية الثانية؛ لأنَّه قد يختلفون في المراد بمعنى المساجد، فيقال ما المراد بالمساجد في هذه الآية ؟

فكان الحديث الوارد عن المعصوم – الرسول صلى الله عليه وآله- كاشفًا عن معناها، وبذلك فتحديد تلك المصاديق هي حلقة وصل بين الآيَتَيْن.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا المثال ممَّا ساقه الشيخ محمَّد هادي معرفة في بيانه للنوع الثاني من أنواع تفسير القرآن بالقرآن، وأنَّ الآية الثانية ليس لها ارتباط لفظيٌّ ولامعنويٌّ بموضع الإبهام، لكن يمكن أن تكون شاهدًا لرفع ذلك الإبهام[١].

المطلب الثالث: في دلالة لفظة (لا جناح):

لكي يتَّضح معنى (لاجناح) لابدَّ أن نفهم معناها اللغويَّ، فإنَّ لفظ الجناح ورد في اللغة بمعنى الميل[٢]، وأطلق على الإثم؛ وذلك لميله عن طريق الحقِّ، وعلى أساس ذلك فإنَّ (لاجناح) يُستفاد منه نفي الإثم؛ ممَّا يعني التخيير[٣]، وقد ورد في القرآن الكريم في موارد متعدِّدة؛ أحدها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[٤]، فإنَّ المتبادر من ظاهر لفظ لاجناح هو التخيير وعدم وجوب التقصير في السفر جريًا مع المعنى اللغويِّ، وهذا ما ظنَّ به أصحاب الإمام الباقر عليه السلام في ما رُوي عنهم.

قد رُوي ((عَنْ زُرَارَةَ وَ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُمَا قَالا قُلْنَا لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ كَيْفَ هِيَ وَكَمْ هِيَ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ فَصَارَ التَّقْصِيرُ

(١) ينظر: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ٢/ ٢٥ .
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: ١/ ٤٨٤
(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٢/ ٤٣، ومجمع البيان: ٢/ ٥٩٢
(٤) سورة النساء: ١٠١ .

في السَّفَرِ وَاجِبًا كَوُجُوبِ التَّمَامِ فِي الْحَضَرِ، قَالا قُلْنَا: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وَلَمْ يَقُلْ افْعَلُوا فَكَيْفَ أَوْجَبَ ذَلِكَ كَمَا أَوْجَبَ التَّمَامَ فِي الْحَضَرِ فَقَالَ عليه السلام: أَ وَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عز وجل فِي الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[1] أَ لَا تَرَوْنَ أَنَّ الطَّوَافَ بِهِمَا وَاجِبٌ مَفْرُوضٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عز وجل ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ وَصَنَعَهُ نَبِيُّهُ صلى الله عليه وآله، كَذَلِكَ التَّقْصِيرُ فِي السَّفَرِ شَيْءٌ صَنَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله، وَذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي كِتَابِهِ))[2].

فقد ذهبت أذهان الأصحاب إلى المعنى المتبادر من لفظ لا جناح، فظنُّوا أنَّ المراد به في آية المسافر عدم الوجوب، بيد أنَّ الإمام عليه السلام ألفت أذهانهم إلى آية الحجِّ التي ورد فيها نفي الجناح أيضًا في الطواف، وكانت دلالتها على الوجوب؛ لاستنادها على سُنَّةِ الرسول صلى الله عليه وآله،فكذلك هذه الآية.

فمن هذه الرواية تستبين ريادة المعصوم في بيان العلاقة بين الآيَتَيْن الكريمتَيْن في دلالتهما على الوجوب، فإنَّ السُّنَّة المطهَّرة كانت مبيِّنة لذلك، ومن دونها لايمكن الوصول إلى حكم الوجوب في كلا الآيَتَيْن.

(١) سورة البقرة: ١٥٨ .

(٢) تفسير العياشي: ١/ ٢٧١، ودعائم الإسلام: ١/ ١٩٥، ومن لا يحضره الفقيه: ١/ ٤٣٤ .

المبحث الثاني: تعسُّر تفسير القرآن بالقرآن

توطئة:

في هذا المبحث تتمُّ عمليَّة تفسير القرآن بالقرآن عن طريق أهل البيت عليهم السلام، التي منها يوظِّف المعصوم عليه السلام مقابلة الآية بالآية الأخرى في بيانه، مع وضوح دلالة الآية والأخرى المقابلة لها؛ إذ يمكن فهم علاقة الآية الأولى بالثانية، إلَّا أنَّ تحديد العلاقة بين تلك الآيات وطريقة الاستدلال لا تتيسَّر لأيِّ أحد؛ بل تخصُّ المعصوم عليه السلام ومن يقتفي أثره من العلماء.

والحاجة إلى المعصوم عليه السلام هنا تكمن في تحديد الآيات المتقاربة، والمشتركة في الموضوع نفسه، فإذا تمَّ تحديد مصاديق الآيات التي تخصُّ الموضوع، يمكن التعرُّف على عمليَّة إجراء تفسير القرآن بالقرآن؛ لأنَّ عمليَّة مقابلة الآيات هنا تتمُّ بشكلٍ مباشر.

وعلى أساس ذلك فإنَّ هذه العمليَّة ربما لا تتعذَّر على غير المعصوم عليه السلام، وغاية ما في الأمر أنَّ إمكانها لا يتيسَّر لأيِّ أحد؛ لأنَّها عمليَّة يكتنفها بعض التعقيد؛ لأنَّها قد تستدعي استقراءً تامًّا للآيات القرآنيَّة، والاطِّلاع الدقيق على المنظومة الدِّينيَّة، فلا يغادر المتصدِّي لعمليَّة التفسير مسألة من مسائل الدِّين إلَّا وأحاط بها فهمًا وعلمًا؛ حتَّى لا يقع في محذور التفسير بالرأي .

وعليه فإنَّ هذه العمليَّة خطرة تحتاج غالبًا إلى المعصوم عليه السلام في الكشف عنها، وإن كان يتاح لغير المعصوم عليه السلام أن يستشفي بعض المطالب، إلَّا أنَّ العمل بشكلٍ عامٍّ قد يتوقَّف على من لا يشوب عمله الخطأ وهو المعصوم عليه السلام.

ولهذا النوع من تفسير القرآن بالقرآن تطبيقات كثيرة تزيَّنت بها الكتب الروائيَّة عن المعصومين عليهم السلام نذكر منها ثلاثة نماذج على سبيل المثال لا الحصر على النحو الآتي:

المطلب الأوَّل: الكبائر من كتاب اللَّه تعالى:

ممَّا ورد في تحديد الكبائر من كتاب اللَّه الكريم وبيان التدرُّج فيها ما رُوي ((عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الرِّضا عليه السلام قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي الرِّضَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عليه السلام، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام، يَقُولُ: دَخَلَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ الْبَصْرِيُّ[1] عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَلَمَّا سَلَّمَ وَجَلَسَ عِنْدَهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[2]، ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مَا أَسْكَتَكَ؟ قَالَ: أُحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ الْكَبَائِرَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل، فَقَالَ: نَعَمْ يَا عَمْرُو أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾، وَبَعْدَهُ الْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وَمِنْهَا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْعَاقَّ ﴿جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، وَقَتْلُ النَّفْسِ ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى أن قال عليه السلام: وَنَقْضُ الْعَهْدِ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ قَالَ: فَخَرَجَ عَمْرٌو وَلَهُ صُرَاخٌ مِنْ بُكَائِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: هَلَكَ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَنَازَعَكُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ))[3].

(١) عمرو بن عبيد البصري: أبو مروان، هو ابن باب، ويكنَّى أبا عثمان، عُدَّ من أصحاب الصادق عليه السلام؛ قال السيِّد الخوئيُّ فيه بخصوص الرواية المذكورة: هذه الرواية ظاهرة الدلالة على أنَّ عمرو بن عبيد كان شيعيًّا، ولكن المستفاد من تاريخ حاله: أنَّه كان من العامَّة؛ إذ ورد في كتاب وفيات الأعيان والأعلام للزركلي بأنَّه شيخ المعتزلة في عصره، ومفتيها، فهو أوَّل من لحق بواصل بن عطاء بعد اعتزاله، وتوفِّي سنة ١٤٤ هـ، ودُفن بمران على ليال من مكة طريق البصرة. ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٧/ ٢٧٣، ووفيات الأعيان، ابن خلكان:٣/ ٤٦٠، والأعلام،الزركلي: ٥/ ٨١، ومعجم رجال الحديث، الخوئي: ١٤/ ٨٣ .

(٢) سورة الشورى: ٣٧ .

(٣) علل الشرائع: ٢/ ٣٩١ – ٣٩٢، وإرشاد القلوب إلى الصواب: ١/ ١٧٦ .

وما يمكن ملاحظته من هذه الرواية أنَّ الإمام عليه السلام حدَّد أكبر الكبائر، ثم تدرَّج بما يأتي بعدها، وهذا ليس بالأمر السهل، مع أنَّ الإمام عليه السلام استدلَّ بطريقة تفسير القرآن بالقرآن بشكلٍ مباشرٍ إلَّا أنَّ العمل عليه ليس بالهيِّن فيما لو كان المفسِّر غير المعصوم عليه السلام.

وأنَّ تحديد أكبر الكبائر وذكر مايأتي بعدها مباشرة، وحصر الكبائر بهذا العدد في الرواية يدلُّ على الاستقراء التامِّ لما في القرآن الكريم من مصاديق؛ ولهذا فالذي يحاول أن يقتفي أثر المعصوم عليه السلام في تفسير القرآن بالقرآن لابدَّ من تحقيق الاستقراء التامِّ؛ ولاسيَّما في المواضيع الخطيرة .

ومن اللَّافت للنظر، ما ذُكر في ذيل الرواية من الأثر المتولِّد على شخص السائل ممَّا تلمَّسه من تفسير (فَخَرَجَ وَلَهُ صُرَاخٌ مِنْ بُكَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: هَلَكَ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَنَازَعَكُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ)؛ ممَّا يكشف عن تعجُّبه من هذا التفسير، وممَّا يظهر أنَّ طبيعة هذا التفسير لايهتدي إليها إلَّا المعصوم عليه السلام أو خواصَّه .

المطلب الثاني: عدم استجابة الدعاء:

لقد وعد اللَّه تعالى عباده المؤمنين في القرآن الكريم استجابة دعائهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]؛ لكن اللَّافت للنظر أنَّ كثيرًا ممَّن يدعو لا يستجيب اللَّه له دعاءه، فيثار لديه تساؤل بإزاء ذلك، ومن ذلك ما رُوي ((عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ جَمِيلٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: قَالَ لَهُ رَجُلٌ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢]، وَإِنَّا نَدْعُو فَلَا يُسْتَجَابُ لَنَا، قَالَ: لِأَنَّكُمْ لَا تَفُونَ اللَّهَ بِعَهْدِهِ وَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٣] وَاللَّهِ لَوْ وَفَيْتُمْ لِلَّهِ لَوَفَى اللَّهُ لَكُم))[٤]

فمن مفاد الآية الثانية بيَّن الإمام عليه السلام العلَّة الأساسيَّة في عدم استجابة الدعاء؛ إذ لو كان العباد يوفون بما عاهدوا اللَّه عليه؛ لما تأخَّرتْ عنهم الإجابة، بَيْدَ أنَّهم ابتعدوا وتنكَّروا لعهودهم ممَّا استتبع ذلك عدم الاستجابة لأدعيتهم. فالإمام عليه السلام قد أضاف قيدًا للآية الأولى، ووضَّح أنَّها ليست شاملة لكلِّ الداعين، وإنَّما تختصُّ بمن يفي بعهد اللَّه تبارك وتعالى، كما تدلُّ الآية الثانية على أنَّ وفاء اللَّه عزَّ اسمه بعهوده لعباده – بما فيها عهده باستجابة الدعاء – مشروط بوفائهم بعهودهم اتِّجاهه سبحانه من قبيل الطاعة والإيمان[٥].

وقريب من ذلك ما ورد ((عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ قُلْتُ لِلصَّادِقِ عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِ إِذَا دَعَا رُبَّمَا اسْتُجِيبَ لَهُ وَرُبَّمَا لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فَقَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا اللَّهَ تَبَارَكَ

---

(١) سورة غافر: ٦٠ .
(٢) سورة غافر: ٦٠ .
(٣) سورة البقرة: ٤٠ .
(٤) تفسير القمي: ١/ ٤٦ .
(٥) ينظر: منهج تفسير القرآن بالقران في روايات أهل البيت عليهم السلام (بحث): ٢٣٠ .

وَتَعَالَى بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَقَلْبٍ مُخْلِصٍ اسْتُجِيبَ لَهُ بَعْدَ وَفَائِهِ بِعَهْدِ اللَّهِ ﷻ، وَإِذَا دَعَا اللَّهَ ﷻ لِغَيْرِ نِيَّةٍ وَإِخْلَاصٍ لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ، أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ فَمَنْ وَفَى أُوفِيَ لَهُ))[1]. فقد دلَّت على شرط وفاء العبد بعهده إلى اللَّه تعالى؛ لكي تُستجاب أدعيته، ويتَّضح أنَّ الطريق الذي بيَّن به الإمام عليه السلام سبب عدم استجابة الدعاء لم يكن بالأمر السهل الواضح، ولم يتفطَّنوا إلى طريق الآية الأولى ومعناها في عدم استجابة الدعاء، حتَّى توارد السؤال من أصحاب الإمام عليه السلام.

(١) الاختصاص: ٢٤٢، وبحار الأنوار: ٩٠/ ٣٧٩.

المطلب الثالث: معنى الشاهد والمشهود

تعدَّدت أقوال المفسِّرين في تحديد معنى الشاهد والمشهود الجاري مجرى القسم في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[١]، وقيل: إنَّ بعضهم أنهاها إلى ثلاثين قولًا[٢].

ويبدو أنَّ هذا الاختلاف كان منذ عهدٍ قريب من نزول النصِّ، ومن ذلك ما رُوي بطرق العامَّة ((أَنَّ رَجُلًا قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ فَقُلْتُ لَهُ أَخْبِرْنِي عَنْ ﴿شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[٣]، فَقَالَ: نَعَمْ أَمَّا الشَّاهِدُ فَيَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَأَمَّا الْمَشْهُودُ فَيَوْمُ عَرَفَةَ، فَجُزْتُهُ إِلَى آخَرَ يُحَدِّثُ فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ ﴿شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فَقَالَ: نَعَمْ أَمَّا الشَّاهِدُ فَيَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَأَمَّا الْمَشْهُودُ فَيَوْمُ النَّحْرِ، فَجُزْتُهُمَا إِلَى غُلَامٍ كَأَنَّ وَجْهَهُ الدِّينَارُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ ﴿شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فَقَالَ: نَعَمْ أَمَّا الشَّاهِدُ فَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله، وَأَمَّا الْمَشْهُودُ فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِدًا﴾[٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[٥]. سَأَلْتُ عَنِ الْأَوَّلِ فَقَالُوا: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَأَلْتُ عَنِ الثَّانِي فَقَالُوا: ابْنُ عُمَرَ، وَسَأَلْتُ عَنِ الثَّالِثِ فَقَالُوا: الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليهما السلام، وَكَانَ قَوْلُ الْحَسَنِ أَحْسَنَ))[٦]. ولعلَّ الاختلاف الوارد في تحديد المعنى قد لا يتعارض مع بعض المصاديق؛ إذ إنَّ الآيات القرآنيَّة تحمل أوجه متعدِّدة ولا تقف على معنىً واحد، وهذا ما ذهب إليه صاحب تفسير الفرقان؛ إذ قال: (من هنا نعرف أنَّ

---

(١) سورة البروج: ١ – ٣.
(٢) ينظر: الميزان: ٢٠/ ٢٥٠.
(٣) سورة البروج: ٣.
(٤) سورة الأحزاب: ٤٥.
(٥) سورة هود: ١٠٣.
(٦) كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة: ١/ ٥٤٣، وبحار الأنوار: ٤٣/ ٣٤٥.

مختلف الروايات في تفسير ﴿شاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ تعني المصاديق التي تشملانها)[١]، بيد أنَّ ما يهمُّ البحث هنا هو القول الأخير في الرواية التي جاد بها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وقد عزَّزها بدليلٍ قرآنيٍّ، بطريقة تفسير القرآن بالقرآن.

ويبدو أنَّ سبب وقوع الغموض في لفظتي (الشاهد والمشهود) لدى السائل والمجيبين قبل الإمام الحسن عليه السلام، هو تنكير هاتين اللفظتين؛ ذلك أنَّهما وردتا نكرةً في سياق إثبات، وهذه الكيفيَّة الخطابيَّة توحي بالدَّلالة على الإطلاق أو العموم[٢]؛ ولهذا اختلفت أقوال المفسِّرين؛ لكنَّ الإمام الحسن عليه السلام، لمَّا استدلَّ بالقرآن كشف عن المصداق الأوضح، وإن كانت مصاديق اللفظين أوسع[٣].

والحاصل ممَّا تقدَّم أنَّ تفسير القرآن بالقرآن لا يُتاح الخوض به لكلِّ أحد، بل فيه بعض الموارد التي قد يتعسَّر الخوض فيها، فبها حاجة إلى متابعةٍ حثيثةٍ لأقوال أهل البيت عليهم السلام الذين هم ترجمان القرآن، فإذا تتبَّع أقوالهم مع استقراء جميع نصوص القرآن الكريم، قد يصل إلى بعض هذه الثمرات، كما أنَّ بعض موارد التفسير على هذه الطريقة تتعذَّر على غير المعصومين عليهم السلام بلوغها؛ لأنَّ النصَّ الأوَّل مغلق عن النصِّ الآخر، ولا يمكن إدراك العلاقة بين الآيات المتقابلة إلَّا بوساطة المعصوم عليه السلام، فيكشف عن تلك العلاقة بإيضاح منه يمهِّد السبيل بينهما.

(١) محمد الصادقي الطهراني: ٣٠/ ٢٦٠ .
(٢) ينظر: فكر ائمة اهل البيت: ٢٢٤ .
(٣) ينظر: مفاهيم القرآن: ٩/ ٤٣٠ .

الخاتمة والنتائج:

وفي الختام لا يسع الباحث إلَّا أن يجمل ما نتج عن بحثه بنقاطٍ؛ أهمُّها:

١. أنَّ لأهل البيت عليهم السلام ريادة واضحة في الكشف عن مراد اللَّه تعالى في القرآن الكريم، ولهذه الريادة مصاديق كشف البحث عن بعضها، ويظهر بذلك علوُّ مكانة أهل البيت عليهم السلام، ولا يسع الناس أن يستغنوا عنهم في التفسير مهما بلغت حذاقتهم.

٢. يعدُّ منهج تفسير القرآن بالقرآن ذا أهمِّيَّةٍ بالغةٍ وله ثمار تفسيريَّة مهمَّة؛ إذ يعتمد القرآن نفسه في بيان الآية المراد فهمها، الذي يعدُّ المصدر الأوَّل للتشريع، وما كان نابعًا من القرآن فهو الأصل الذي لايدانيه أصل في العلوِّ ولا يبلغ مكانته السَّامية.

٣. أنَّ وجود أهل البيت عليهم السلام لطف بين العباد، وهم ترجمان القرآن فبياناتهم حجَّة تلازم حجِّيَّة القرآن، ومن ثمَّ لا يمكن أن يُقاس المعصوم عليه السلام بغيره من المفسِّرين مهما بلغت حذاقة المفسِّر غير المعصوم.

٤. بعض الموارد التطبيقيَّة من تفسير القرآن بالقرآن يتعسَّر الخوض بها إلَّا بالاستعانة بالمعصوم عليه السلام لفهم المراد من الآيات القرآنيَّة، وإذا أُتيح للمفسِّر الخوض بها فلابدَّ أن يكون قد أحاط بأحكام الشريعة، واستجمع ما في القرآن من الآيات استقراءً وفهما وعلمًا.

٥. بعض موارد تفسير القرآن بالقرآن يتعذَّر على غير المعصوم عليه السلام الخوض فيها؛ بمعنى عدم إمكانيَّة التفسير بهذه الطريقة عند غير المعصوم؛ لأنَّ العلاقة بين بعض الآيات غير واضحة، فلابدَّ من ورود توضيح من أهل البيت المعصومين عليهم السلام لهذه العلاقة ببيان يمهِّد ويربط بين الآية وأختها؛ لفهم ما يعطي النصَّ الأوَّل من مفادٍ يجعله مساوقًا للنصِّ الآخر ومكمِّلًا له.

٦. لقد جاء البحث ليكشف عن ريادة أهل البيت عليهم السلام في إحدى طرائق التفسير، وهي طريقة تفسير القرآن بالقرآن، نسأل اللَّه تعالى أن ينفع به الباحثين.

والحمد للَّه ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمَّد وآله الطاهرين.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١- الاختصاص، محمَّد بن محمَّد المفيد (ت: ٤١٣ هـ)، المؤتمر العالمي لألفيَّة الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ .

٢- إرشاد القلوب إلى الصواب، حسن بن محمد الديلمي (ت: ٨٤١ هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، ط١، ١٤١٢ هـ .

٣- الإرشاد في معرفة حجج اللَّه على العباد، محمَّد بن محمَّد المفيد (ت:٤١٣هـ)، منشورات مؤتمر الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٤- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٤٠١ هـ.

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد اللَّه بن عمر البيضاوي (ت: ٦٩١هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

٦- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام،الشيخ محمَّد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت: ١١١١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ.

٧- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ)، د.م، د.ت.

٨- التبيان في تفسير القرآن، الشيخ محمَّد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، د ت .

٩- التدبر في القران، السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٣١ هـ.

١٠- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي (ت: ٣٢٠هـ)، المطبعة العلمية، طهران، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتاب، قم، ط٣، ١٤٠٤ هـ.

١٢- التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمَّد هادي معرفة، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مشهد، ط١، د.ت.

١٣- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٤- جامع أحاديث الشيعة، آغا حسين البروجردي (ت: ١٣٨٠هـ)، منشورات فرهنك سبز، طهران، ط١، ١٤٢٨ هـ.

١٥- الدرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، مكتبة آية اللَّه المرعشي النجفي، قم، ط١، ١٤٠٠ هـ.

١٦- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، نعمان بن محمد المغربي ابن حيون (ت: ٣٦٣ هـ)، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط٢، ١٤٢٧ م.

١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، السيِّد محمود الآلوسي البغدادي (ت: ١٢٧هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨- الطبقات الكبرى، محمَّد بن سعد بن منيع أبو عبداللَّه البصري الزهري (ت: ٢٣٠ هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، ط١، ١٣٨٨هـ .

١٩- علل الشرائع، الشيخ الصدوق محمد بن علي ابن بابويه القمي (ت: ٣٨١هـ)، مكتبة داوري، قم، ط١ ،١٤٢٧ هـ .

٢٠- الفرقان في تفسير القران بالقران والسُّنة، محمَّد الصادقي الطهراني، منشورات الثقافة الإسلامية، قم، ط٢، ١٤٠٧ هـ .

٢١- الفصول المختارة، محمد بن محمد المفيد (ت: ٤١٣ هـ)، منشورات مؤتمر الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣ هـ .

٢٢- فكر أئمَّة أهل البيت عليهم السلام في حلِّ الإشكالات التفسيريَّة للنصِّ القرآني، د. سيروان عبد الزهرة الجنابي، منشورات مركز كربلاء للدراسات والبحوث، مؤسِّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٣٦ هـ .

٢٣- كشف الغمَّة في معرفة الأئمَّة، علي بن عيسى الأربلي (ت: ٦٩٢هـ)، منشورات بني هاشمي، تبريز، ط١، ١٤٢٣ هـ .

٢٤- الكليني والكافي، د.عبد الرسول الغفاري، مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط١، ١٤١٦ هـ .

٢٥- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت: ٩٧٥ هـ)، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، د ط، ١٤٠٩ هـ .

٢٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسيّ، تحقيق محمَّد جواد بلاغي، منشورات ناصر خسرو، طهران، ط٣، ١٤١٣ هـ .

٢٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (ت: ٧١٠هـ)، عبد اللَّه بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ .

٢٨- مصنَّف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت:٢١١هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ .

٢٩- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥ هـ)، تحقيق عبد السلام محمَّد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٤ هـ .

٣٠- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، السيد أبو القاسم الخوئي، النجف الأشرف، ط٥، ١٤١٣ هـ .

٣١- مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسَّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ط٤، ١٤٢١هـ .

٣٢- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق محمَّد بن علي ابن بابويه القميّ (ت: ٣٨١ هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط٢، ١٤١٣ هـ .

٣٣- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيِّد عبد الأعلى السبزواري، مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام بيروت، ط٢، ١٤٠٩ هـ .

٣٤- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمَّد حسين الطباطبائي، مؤسَّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط٥، ١٤١٧هـ .

٣٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣١٨ هـ .

المجلات العلمية

١- مجلَّة المصباح، بحث: منهج تفسير القرآن بالقرآن في روايات أهل البيت عليهم السلام، زيد البطاط، العدد ٢٤، ١٤٣٧ هـ .

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّه الصَّادق عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّه عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزَّمل: 4] قَالَ: (قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بَيِّنْه تِبْيَاناً، ولَا تَهُذَّه هَذَّ الشِّعْرِ، ولَا تَنْثُرْه نَثْرَ الرَّمْلِ؛ ولَكِنْ أَفْزِعُوا قُلُوبَكُمُ الْقَاسِيَةَ، ولَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)

الكافي: 2/ 614

مَذهَبُ الثَّقَلَيْنِ في توحِيدِ اللَّهِ وَصِفاتِهِ

الشيخ محمَّد مصطفى مصري العامليِّ
الحوزة العلميَّة في قم المقدَّسة

Sheikh Muhammad Mustafa Masri Al-Amili
(Hawza Ilmiyya in Qom, Holy City)

الملخَّص:

يأخذ البحث في العقائد ودراستها مساحةً واسعةً بين المسلمين أنفسهم، ثمَّ بينهم وبين الأديان المختلفة، وما لبث أن تَطوَّر بشكلٍ متسارع؛ ولا سيَّما البحث في أصول الدِّين، وسارع من وتيرة ذلك نموّ التيارات الدِّينيَّة والفرق والمذاهب، ودخول الترجمة لمصادر الأمم الأخرى، ولا سيَّما ثقافات الملحدين واليهود والنصارى، ومن هنا نشأت أو تطوَّرَت آراء متعدِّدة اتِّجاه تصوُّرات بعض العقائد؛ ولا سيَّما التوحيد وهو الأهمُّ بين الأصول العقائديَّة، وقد نشأت فيه جملةٌ من التصوُّرات اتِّجاه الذات الإلهيَّة المقدَّسة؛ منها السليم ومنها الذي لا ينسجم مع كمال الذات ووحدانيَّتها، ومن هنا عَرَضنَا لهذا الموضوع بوصفه أساس الإيمان ومنطلقه، وعمدنا إلى عرض الآراء الخاصَّة حوله، ثمَّ نقدها على وفق الموازين العلميَّة الصحيحة؛ لتمييز الصالح منها من غيره، وذلك بالاستضاءة بأقوال المعصومين عليهم السلام ومعالجاتهم وردودهم على إشكالات المستفهمين والمشكلين، وعلى آراء الفرق الضَّالة، مع بيان الوجهة السليمة، فَهُم عِدلُ القرآن، وعندهم ظواهره وبواطنه وتمام تفسيره، وهم الذي يستثيرون دفائن العقول كما الأنبياء عليهم السلام.

الكلمات المفتاحيَّة: العقائد، التوحيد، أهل البيت عليهم السلام، صفات اللَّه تعالى.

Abstract:

The study of doctrines occupies a significant space among Muslims themselves and between them and other religions. This field has evolved rapidly, particularly in the study of the fundamentals of religion, accelerated by the emergence of various religious currents, sects, and schools of thought, and the translation of sources from other nations, including the cultures of atheists, Jews, and Christians. Consequently, various views on certain doctrines have developed, especially concerning the concept of monotheism, which is the most critical of the foundational beliefs. This has led to a range of conceptions regarding the divine essence, some of which are sound, while others do not align with the perfection and oneness of the divine essence.

Given this, we addressed the topic as it forms the basis and starting point of faith. We presented the various opinions on it and critiqued them according to proper scientific standards to distinguish between valid and flawed views. This was done with reference to the teachings of the Infallibles (peace be upon them), their responses to objections and questions, and their refutations of the views of deviant sects, providing a clear path forward. The Ahl al-Bayt (peace be upon them) are the equals of the Quran; they possess its outward and inward meanings and complete interpretation. They, like the prophets (peace be upon them), stimulate the hidden potentials of the intellect.

Keywords: doctrines, monotheism, Ahl al-Bayt (peace be upon them), attributes of God.

المقدِّمة:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه ربِّ العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، وخالق الأوَّلين والآخرين.

والصَّلاة والسَّلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

تملأ الكتب العقائديَّة والكلاميَّة رفوف المكتبات الكبرى في العالم، وتنتشر الأبحاث التي تعالج أصول الدين في مختلف وسائل المعرفة الحديثة، ويتبارى المختلفون في إثبات صوابيَّة عقيدتهم في (التوحيد) الذي يُعدُّ أهمّ أصلٍ اعتقادي عند البشر، إثباتًا ونفيًا، قبولًا وَرَدًّا.

وعلى الرغم من ذلك ظَلَّ تقليدُ الآباء في هذه المسألة نهجًا يسير عليه أكثر الناس من دون تدبُّرٍ وتأمُّلٍ، فأورث ذلك خللًا في العقيدة، وجهلًا عند كثيرٍ من الموحِّدين بحقيقة التوحيد.

فذهبَ قومٌ إلى تشبيه اللَّه تعالى بخلقه، لأنَّ اللَّه تعالى يوصف بالعلم والقدرة كما يوصف الناس. وذهب آخرون إلى تنزيه اللَّه تعالى عن المشابهة للخلق، لكن منهم من لم يعرف كيفيَّة التنزيه، فنفى عنه تعالى الصفات كالعلم والقدرة، فصاروا مُعَطِّلة.

ولذا فإنَّ هذه الدراسة أخذت على عاتقها بيان حقيقة التوحيد بناءً على حكم العقل، وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الأئمَّة المعصومين عليهم السلام، تثبيتًا لعقيدة الشيعة الأبرار أعلى اللَّه شأنهم، وتخلُّصًا من العقائد والتصوُّرات الفاسدة التي وقع فيها أتباع الأديان والمذاهب المختلفة.

وعلى الرغم من أنَّ المؤمنين يستندون في عقيدتهم إلى أحكام العقل، إلَّا أنَّهم يعلمون أنَّ له حَدًّا يقفُ عنده: فهو من جهةٍ يُدركُ وجود الإله العظيم الغنيِّ المتَّصف بصفات الكمال لنفسه، الذي لا تعدُّد فيه ولا تركُّب، ومِن جهةٍ أخرى يُدركُ أنَّ اللَّه تعالى أجلُّ وأعظمُ من أن تخضع ذاته لعقلٍ أو قلبٍ.

ومن جهةٍ ثالثة يقرُّ أنَّه لا يصحُّ نَفيُ القدرة والعلم عن اللَّه تعالى، ولا يصحُّ إثباتها بما يماثلُ ويشابه قدرة الخلق وعلمهم، فإنَّ الاشتراك في الصِّفات بينه تعالى وبين مخلوقاته هو اشتراكٌ في الاسم لا في حقيقة المعنى، فليس علمه كعلم أحدٍ منَّا، ولا قدرته ولا حياته.

ويُرشد الأئمَّة الأطهار كما يُبيِّنُ هذا البحث إلى أنَّ إثبات كمال الذات الإلهيَّة المقدَّسة ووحدانيَّتها وانحصار الأزليَّة بالذات المقدَّسة يعني عينيَّة الصفات للذات، وعدم تكثُّرها حقيقة، فلا يصحُّ إثبات الصفات للَّه تعالى إذا كانت تغاير؛ بل نثبت صفةً هي عين الموصوف، ثابتةً منذ الأزل بلا تعدُّد ولا تركُّب.

يُبيِّنُ هذا البحث المذاهب في هذه المسائل العقائديَّة الخطيرة وغيرها، ويعرض لحقيقة معناها، ويُعين الباحثين عن الحقِّ بتوضيح غوامضها، ويعرض لمعنى الصِّفات الثبوتيَّة والسلبيَّة، والاحتمالات التي قيلت في تفسيرها، مع بيان الحقِّ في كلِّ مفردةٍ منها.

تمهيد:

التوحيد هو محورُ الخلاف الأعظم بين الموحِّدين والمشركين والملحدين واللا أدريِّين، بل إنَّه يشكِّل هُوَّةً كبيرةً حتَّى بين الموحِّدين أنفسهم، فليست حقيقته عندهم على معنًى ومذهبٍ واحد.

ويُعلم بعض أهمِّيَّته من أنَّ اللَّه تعالى ما أرسلَ رسولًا إلَّا بالتوحيد، قال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[١].

وممَّا قاله الصادق عليه السلام: ((إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ أَجْسَادَ المُوَحِّدِينَ عَلَى النَّارِ))[٢]. بل صار التلفُّظ بكلمة التوحيد خير العبادة كما قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: ((خَيْرُ العِبَادَةِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه))[٣]. من ثمَّ صارت كلمةُ التوحيد ثمن الجنَّة، وهي كلمةٌ عظيمةٌ كريمةٌ على اللَّه ﷻ، وهي حصنُ اللَّه الذي يأمن داخلُه ومُوَفِّي شروطه من العذاب، ومن أعظم شروطه محمَّدٌ وآله عليهم السلام.

لقد أرشدَ الأنبياء عليهم السلام أممَهم إلى ما دلَّ عليه العقل، من أنَّ اللَّه تعالى مُتَّصفٌ بكلِّ صفات الكمال، مُنَزَّهٌ عن كلِّ نقص، لا يتثنَّى ولا يتركَّب، ولا يُدرَك كنهه بقلبٍ أو عقلٍ أو وهمٍ أو شيءٍ من الحواس، ولا يصحُّ التفكُّر في ذاته، ولا الخوض فيها.

فخَشَعَ المؤمنون أمام عظمة اللَّه تعالى، وخضعوا عند البحث في باب توحيده، وأقرُّوا بالعجز والقصور والضعف.

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.
(٢) التوحيد: ٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٨.

ولقد كان للصادق عليه السلام بيانٌ بديعٌ يَجبَهُ الإنسانَ القاصرَ عن اقتحام سدف الغيوب؛ إذ قال عليه السلام:

((يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ أَكَلَ قَلْبَكَ طَائِرٌ لَمْ يُشْبِعْهُ! وَبَصَرُكَ لَوْ وُضِعَ عَلَيْهِ خَرْقُ إِبْرَةٍ لَغَطَّاهُ! تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ بِهِمَا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟! إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَهَذِهِ الشَّمْسُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَإِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَمْلَأَ عَيْنَيْكَ مِنْهَا فَهُوَ كَمَا تَقُولُ!))[١].

هي كلماتٌ تهزُّ وُجدان العاقل، وتملأ كيانه رهبةً وخشوعًا أمام الإله العظيم، فيطرق البحث في التوحيد من بابه، معتمدًا على الثَّقلين، فهما: ((خَلِيفَتَانِ بَصِيرَانِ، لَا يَفْتَرِقَانِ))[٢]؛ بل هما: ((صَاحِبَانِ مُؤْتَلِفَانِ، يَشْهَدُ كُلُّ وَاحِدٍ لِصَاحِبِهِ بِتَصْدِيقٍ))[٣]. فالقرآن الكريم يشهدُ ويهدي إلى العترة الطاهرة: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]. والعترة تهدي إلى القرآن الكريم وتدلُّ عليه: ((وَلِكُلِّ أَهْلِ زَمَانٍ هَادٍ وَدَلِيلٌ وَإِمَامٌ، يَهْدِيهِمْ وَيَدُلُّهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ))[٥].

إنَّ دفائن العقول تُستثار بكلام اللَّه ورسوله وأوليائه، فيسترشدُ المؤمن بكلام الخالق وأوليائه إلى حقيقة التوحيد، وإلى الحقِّ في تنزيه اللَّه تعالى وتعظيمه بعد توحيده. في هذا البحث أربعة محاور في مذاهب التوحيد وحقيقته، وصفات اللَّه واكتناهها.

(١) الكافي: ٩٣.
(٢) الأمالي، الطوسي: ٤٧٩.
(٣) بصائر الدرجات: ١/ ٤١٣.
(٤) سورة الأنبياء: ٧.
(٥) كتاب سليم بن قيس: ٢/ ٨٨٥.

المحور الأوَّل- مذاهب التوحيد:

إنَّ المذاهب التي تُنسبُ إلى التوحيد تنقسمُ على بعض الاعتبارات والجهات والوجوه على ثلاثة:

المذهب الأوَّل- مذهب التشبيه:

وأصحابه قائلون بالمشابهة بين اللَّه تعالى ومخلوقاته، وليس بممتنعٍ عندهم ذلك، فينزل الخالق مثلًا على حمار! ويحلُّ في المكان! ويجري عليه ما يجري على المخلوقات! وهو باطلٌ محضٌ، فإنَّ الخالق العظيم مُنَزَّهٌ عن كلِّ صفةٍ من صفات المخلوق؛ بل عن كلِّ مشابهةٍ بينه وبين سواه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]. وقد كان للأئمَّة عليهم السلام موقفٌ واضحٌ من هذا المذهب، ومن ذلك قول الإمام الرضا عليه السلام: ((مَنْ شَبَّهَ اللَّه بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ وَصَفَهُ بِالمَكَانِ فَهُوَ كَافِر))[2].

المذهب الثاني- مذهب التعطيل:

وقد أراد أصحاب هذا المذهب تنزيه اللَّه تعالى عن المشابهة مع المخلوقات، لكنَّهم عجزوا عن معرفة كيفيَّة التنزيه، ولمَّا نظروا في صفاته تعالى وجدوه موجودًا قادرًا عالمًا، ووجد أحدهم نفسه أيضًا موجودًا قادرًا عالمًا، فتوهَّم أنَّ إثبات الوجود والعلم والقدرة للَّه تعالى وإثباتها للمخلوق يعني المشابهة، ولمَّا كانت المشابهةُ منفيَّةً، نفى الوجود والعلم والقدرة عن اللَّه تعالى! فصار في الشناعة شريكًا للأوَّل؛ إذ أثبت الأوَّل وجوده تعالى مُشَبَّهًا بخلقه، ونفى الثاني وجوده أو قدرته وعلمه وسائر صفاته!

والحال أنَّ اللَّه تعالى قد أثبت هذه الصفات لنفسه في القرآن الكريم.

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) التوحيد: ٦٩.

أما وجوده تعالى، فالقرآن بوجوده وإعجازه يدلُّ عليه تعالى، ثمَّ تؤكدُّ نصوصه وجوده تعالى وربوبيَّته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[١]، وتثبت ألوهيَّته وحده، كقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢].

وأمّا قدرته تعالى، فقد ذُكِرَت في الكتاب العزيز ألفاظٌ تدلُّ على كونه تعالى على كلِّ شيء قدير ما يقرب من (٣٥) مرَّة، بدءًا من (سورة البقرة): ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣]، وانتهاءً (بسورة الملك): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

وأمّا علمه تعالى، فقد وُصِفَ تعالى في القرآن الكريم أنَّه عليمٌ أكثر من (١٠٠) مرَّة، وأنَّه بكلِّ شيء عليم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٥]، وأنَّه عالمُ الغيب والشهادة، كقوله تعالى:﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٦].

وهكذا سائر صفات اللَّه تعالى، لكنَّ أصحاب هذا القول قالوا بالتعطيل، فنفوا الصفات عن اللَّه تعالى. وقد قيل في بيان حقيقة التعطيل: ((الخروجُ عن الوجود، وعن الصفات الكماليّة والفعليّة والإضافيّة))[٧]. أو: ((نفيه وإنكار وجوده وربوبيَّته وإبطال صفاته على الوجه الّذي يليق به))[٨]. ونموذج ذلك ما وقع بين الإمام الرضا عليه السلام والزنديق الذي لمَّا سمع أنَّ اللَّه تعالى هو الذي أيَّنَ

(١) سورة الأعراف: ٥٤.
(٢) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٣) سورة البقرة: ٢٠.
(٤) سورة الملك: ١.
(٥) سورة النور: ٣٥.
(٦) سورة التغابن: ١٨.
(٧) الكشف الوافي: ٥٨٣.
(٨) شرح الكافي: ٣/ ٨٢.

الأين، وكيَّف الكيف، وأنَّه لا يُعرَف بكيفوفيَّة ولا أينونيَّة، وأنَّه لا يُدرَك بحاسَّة، ولا يُقَاس بشيء؛ أي لمَّا سمع أنَّه منزَّه عن المشابهة مع المخلوقين، قال: ((فَإِذَا إِنَّهُ لَا شَيْءَ إِذَا لَمْ يُدْرَكْ بِحَاسَّةٍ مِنَ الحَوَاسِّ! فقد نفاه؛ لأنَّه عجز عن إدراكه بحواسِّه، وهذه صورةٌ من صُوَر التعطيل.

أجابه الإمام عليه السلام: وَيْلَكَ، لمَّا عَجَزَتْ حَوَاسُّكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ أَنْكَرْتَ رُبُوبِيَّتَهُ! ونَحْنُ إِذَا عَجَزَتْ حَوَاسُّنَا عَنْ إِدْرَاكِهِ أَيْقَنَّا أَنَّهُ رَبُّنَا بِخِلَافِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ))[1]، وهكذا تَوَهَّمَ آخرُ أنَّ في إثبات وجوده تحديدٌ له، فأجابه الإمام عليه السلام: ((لَمْ أَحُدَّهُ وَلَكِنِّي أَثْبَتُّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ مَنْزِلَة))[2].

وهكذا يدخلُ في مذهب التعطيل من نفى صفةً من صفات اللَّه تعالى، كنفْي العلم أو القدرة أو الحياة وما شابه.

المذهب الثالث: مذهب الإثبات بغير تشبيه

وهو مذهب الشيعة الإماميَّة أعزَّهم اللَّه تعالى، ورثوه عن أئمَّتهم عليهم السلام وعن كتاب اللَّه العزيز، وحقيقته قائمةٌ على إثبات الوجود والعلم والقدرة للَّه تعالى، لكن من دون أيِّ مشابهةٍ بين هذه الصفات وصفات المخلوقات، وبهذا تخلَّصوا من الإشكال الوارد على المذهب الأوَّل؛ إذ نفوا التشبيه، ومن الإشكال الوارد على المذهب الثاني؛ إذ نفوا التعطيل.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ((اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّه أَنَّ المَذْهَبَ الصَّحِيحَ فِي التَّوْحِيدِ مَا نَزَلَ بِهِ القُرْآنُ مِنْ صِفَاتِ اللَّه عز وجل: فَانْفِ عَنِ اللَّه تَعَالَى البُطْلَانَ والتَّشْبِيهَ، فَلَا نَفْيَ ولَا تَشْبِيهَ، هُوَ اللَّه الثَّابِتُ المَوْجُودُ، تَعَالَى اللَّه عَمَّا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ))[3].

(١) الكافي: ١/ ٧٨.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٨٤.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٠٠.

وهكذا في إثبات الشيئيَّة، فقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[١]، وقال في سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[٢].

فأثبتت الآية الأولى الشيئيَّة للَّه تعالى، ونفت الآية الثانية؛ أي مشابهة بينه وبين شيءٍ من الأشياء، فكلُّ الأشياء الأُخر مخلوقاته، ولقد سأل الإمامُ الرضا عليه السلام بعضَ أصحابه مُعَلِّمًا، فقال عليه السلام لمحمَّد بن عيسى بن عبيد: ((مَا تَقُولُ إِذَا قِيلَ لَكَ: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ شَيْءٌ هُوَ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ نَفْسَهُ شَيْئًا حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّه شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، فَأَقُولُ: إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ؛ إِذْ فِي نَفْيِ الشَّيْئِيَّةِ عَنْهُ إِبْطَالُهُ وَنَفْيُهُ. قَالَ لِي: صَدَقْتَ وَأَصَبْتَ. ثُمَّ قَالَ لِي الرِّضَا عليه السلام: لِلنَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ: نَفْيٌ، وَتَشْبِيهٌ، وَإِثْبَاتٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهٍ، فَمَذْهَبُ النَّفْيِ لَا يَجُوزُ، وَمَذْهَبُ التَّشْبِيهِ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، وَالسَّبِيلُ فِي الطَّرِيقَةِ الثَّالِثَةِ: إِثْبَاتٌ بِلَا تَشْبِيهٍ))[٣].

وقد سُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: ((أَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، يُخْرِجُهُ عَنِ الحَدَّيْنِ: حَدِّ التَّعْطِيلِ وَحَدِّ التَّشْبِيهِ))[٤].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِلزِّنْدِيقِ حِينَ سَأَلَهُ: ((مَا هُوَ؟ قَالَ: هُوَ شَيْءٌ بِخِلَافِ الأَشْيَاءِ، ارْجِعْ بِقَوْلِي شَيْءٌ إِلَى إِثْبَاتِ مَعْنًى، وَأَنَّهُ شَيْءٌ بِحَقِيقَةِ الشَّيْئِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ))[٥] فاللَّه تعالى ثابتٌ، موجودٌ، لا يشبه شيئٌ من خلقه، وهو شيءٌ لا كالأشياء، لا يُجانسُها، ولا يشابهها ولا يماثلها.

(١) سورة الأنعام: ١٩.
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) التوحيد: ١٠٧.
(٤) المصدر نفسه: ١٠٤.
(٥) التوحيد: ١٠٤.

هذا هو مذهبُ آل محمَّدٍ عليهم السلام؛ جليًّا نقيًّا صافيًا خاليًا من كلِّ شُبهَةٍ، يضمنُ توحيد اللَّه تعالى كما هو أهله.

على أنَّ الشيء قد يُطلق ويُراد منه المخلوق، قال الفراهيديُّ (ت: ١٧٥ هـ): ((إنَّه اسم الآدميِّين وغيرهم من الخلق))[١]، وليس هذا هو المُراد من إثبات الشيئيَّة للَّه تعالى جزمًا.

وقد يُطلق ويُراد منه مفهومٌ عامٌّ جدًّا، فيشمل كلَّ ما أُخبرَ عنه، سواءٌ كان موجودًا أم معدومًا؛ بل ولو كان مُحالًا، قال الحميريِّ (ت: ٥٧٣هـ): إنَّه ((كلُّ ما صَحَّ أَنْ يُعلم ويُخبر عنه فهو شيء، وشيء أعمُّ الأسماء كلِّها، وهو على ضربَيْن: معدومٌ وموجود))[٢]، وهو كسابقه غير مُرادٍ من إثبات الشيئيَّة للَّه تعالى؛ إذ قد يساوقُ إثباته كون الشيء معدومًا أو موهومًا.وقد يُطلق ويُراد منه الثابت الموجود، فقد قيل إنَّ الشيء: ((عبارةٌ عن الموجود))[٣]، فيوصفُ اللَّه تعالى به؛ لأنَّ في نفْيِه عنه إبطاله ونفْي وجوده، فنثبت الشيئيَّة للَّه تعالى مع نفْي المشابهة بينه وبين سائر الموجودات.

(١) كتاب العين: ٦/ ٢٩٥.
(٢) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: ٦/ ٣٥٩٤.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤٧١.

المحور الثاني- حقيقة صفات اللَّه:

لقد ثبتَ أنَّ اللَّه تعالى متَّصفٌ بصفات الكمال، كالعلم والقدرة والحياة، ثمَّ ثبتَ أنَّ اللَّه تعالى لا يوصَف إلَّا بما وصف به نفسه، فعن الإمام الرضا عليه السلام: ((مَنْ وَصَفَ اللَّه بِخِلَافِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَى اللَّه))[١].

وعنه عليه السلام: ((إِنَّ الخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ))[٢].

فلزمَ أوَّلًا ألَّا نثبت للَّه تعالى أيَّ صفةٍ لم يُثبتها لنفسه، وهو ما يُعرَف بتوقيفيَّة الصفات؛ أي إنَّ وصفه بشيءٍ موقوفٌ على ورود نصٍّ يكشف عن إذن اللَّه تعالى لعباده بأن يصفوه به.

ولعلَّ السرَّ في ذلك هو أنَّ كلَّ وصفٍ نتصوَّرُهُ في عقولنا فهو يتناسب معنا لا مع الخالق العظيم؛ فلا يصحُّ أن نصفه من عنديّاتنا. ولمَّا كان الغرض من الخلقة المعرفة والعبادة، كان لا بدَّ من وصف اللَّه عزَّ وجلَّ بأوصاف تدلُّ على كماله ليُعرَفَ بها، وكان هو الأعلم بما يناسب وصفه به، فتوقَّف الإقدام على إذنه تعالى.

قال الإمام الرضا عليه السلام: ((وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا البَابِ حَتَّى تَاهُوا وَتَحَيَّرُوا وَطَلَبُوا الخَلَاصَ مِنَ الظُّلْمَةِ بِالظُّلْمَةِ فِي وَصْفِهِمُ اللَّه بِصِفَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَازْدَادُوا مِنَ الحَقِّ بُعْدًا، وَلَوْ وَصَفُوا اللَّه عزَّ وجلَّ بِصِفَاتِهِ، وَوَصَفُوا المَخْلُوقِينَ بِصِفَاتِهِمْ لَقَالُوا بِالفَهْمِ وَاليَقِينِ، وَلَمَا اخْتَلَفُوا))[٣]. وفي كلماته عليه السلام إشارةٌ إلى المباينة بين صفات المخلوق والخالق، وأنَّ التداخل بينهما طريقٌ للتيه والحيرة، والانغماس في الظلمات.فكلُّ صفةٍ ثبتت في الخالق والمخلوق لم يكن المعنى المُراد منها واحدًا قطعًا، حتَّى الوحدانيَّة، فقد قيل للإمام عليه السلام: ((اللَّه وَاحِدٌ وَالإِنْسَانُ وَاحِدٌ، أَ لَيْسَ قَدْ تَشَابَهَتِ الوَحْدَانِيَّةُ؟ فقال عليه السلام: يَا فَتْحُ أَحَلْتَ- أي قلت بالمحال-

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٧٣.
(٢) التوحيد: ٦١.
(٣) المصدر نفسه: ٤٣٩.

ثَبَّتَكَ اللَّه، إِنَّمَا التَّشْبِيهُ فِي المَعَانِي، فَأَمَّا فِي الأَسْمَاءِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ... فَالإِنْسَانُ وَاحِدٌ فِي الاِسْمِ وَلَا وَاحِدٌ فِي المَعْنَى، وَاللَّه جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ وَاحِدٌ لَا وَاحِدَ غَيْرُهُ، لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ))[1] فالمشابهة في إطلاق لفظ الواحد هنا هي مشابهةٌ في الاسم فقط، وأمَّا في المعنى، فالمشابهة ممنوعةٌ منفيَّة.

فالوحدةُ في المخلوق هي وحدةُ عددٍ تارةً، ووحدة نوعٍ وجنسٍ أخرى، وكلاهما منفيَّان عن اللَّه تعالى، والوحدة في اللَّه تعالى هي وحدة نفي الشريك، ونفي التركُّب، وكلاهما ثابتان في المخلوق، وهكذا سائر الصفات، فإنَّ اللَّه تعالى وصفَ نفسه بها؛ لكن لا على نحو وصف المخلوق بها.

قال الإمام الرضا عليه السلام: إِنَّ اللَّه تعالى: ((وَصَفَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَسْمَاءٍ دَعَا الخَلْقَ؛ إِذْ خَلَقَهُمْ وَتَعَبَّدَهُمْ وَابْتَلَاهُمْ إِلَى أَنْ يَدْعُوهُ بِهَا، فَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا قَادِرًا قَائِمًا نَاطِقًا ظَاهِرًا بَاطِنًا لَطِيفًا خَبِيرًا قَوِيًّا عَزِيزًا حَكِيمًا عَلِيمًا، وَمَا أَشْبَهَ هَذِهِ الأَسْمَاءَ))[2].

أورثَ ذلك شُبهَةً عند المكذِّبين؛ إذ كيف يثبت العلم والقدرة للَّه ثمَّ يثبت العلم والقدرة للعباد، والحال أنَّه تعالى لا يشبهه شيء من خلقه؟! فتوهَّموا المشاركة بين الخالق والمخلوق في بعض الحالات أو كلِّها، فكان الجواب عن لسانه عليه السلام: ((إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْزَمَ العِبَادَ أَسْمَاءً مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَى اخْتِلَافِ المَعَانِي، وَذَلِكَ كَمَا يَجْمَعُ الاِسْمُ الوَاحِدُ مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ))[3].

وهذا سائغٌ جارٍ في مختلف اللغات؛ إذ يُقال للرجل الشجاع إنَّه أسدٌ، وليس هو أسدٌ حقيقةً، فيطلق اللفظ على الأسد وعلى الإنسان وإن لم يكن الأسدُ إنسانًا.

(١) الكافي: ١/ ١١٩.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٢٠-١٢١.

وهكذا هو الحال في كلِّ الصفات التي ثبتت للَّه تعالى ولمخلوقاته، كالسميع والبصير والخبير واللطيف والظاهر والباطن والقاهر..وسواءٌ كان ذلك من باب المشترك اللفظيِّ كما عليه بعضهم، أم المشترك المعنويِّ كما عليه آخرون، أم من باب المجاز، فإنَّه لا بُدَّ من نفي التشابه بين ما يُوصَف به الخالق وما يُوصَف به المخلوق، ومن تنزيه الخالق عن كلِّ ما يمكن أن يوجد في المخلوق.

إنَّا وإن وصفنا ربَّنا تعالى بالسمع إلَّا أنَّا: ((لَمْ نَصِفْهُ بِالسَّمْعِ المَعْقُولِ فِي الرَّأْسِ... ولَمْ نَصِفْهُ بِبَصَرِ لَحْظَةِ العَيْنِ... قَوِيًّا لَا بِقُوَّةِ البَطْشِ المَعْرُوفِ مِنَ المَخْلُوقِ))[1].

والشاهدُ القرآنيُّ في ذلك هو آية إثبات السَّمع والبصر نفسها؛ إذ أثبتت السَّمع والبصر بعد نفي المشابهة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

وهكذا بيَّنَ الإمامُ الجوادُ عليه السلام أنَّ كلَّ صفةٍ من هذه الصفاتِ لو كانَت كنظيرتها في الخلقِ لوقعَ التشبيهُ بينهما، وهو تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك، وموصوفٌ بالكمالِ المطلقِ، ولعلَّ هذا هو المُرادُ من قول الإمام العسكريِّ عليه السلام عندما سُئِل عن التوحيد واختلاف الناس، فقال عليه السلام: ((سَألتَ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا عَنْكُمْ مَعْزُولٌ، اللَّه وَاحِدٌ أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، خَالِقٌ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير))[3].

فإنَّ اللَّه تعالى لا يُدرَك، وصفاته لا تُدرَك، فوجوده وحقيقته وصفاته على كنهها معزولةٌ عنَّا، لكنَّها ثابتةٌ بلا شكٍّ ولا ريب، فلا نفي ولا تشبيه، بل إثباتٌ بغير تشبيه، ولا يُكلَّف المخلوق فوق ذلك شيئًا؛ لأنَّه لا سبيلَ له إلى ما زادَ عن ذلك.

(١) الكافي: ١/ ١١٧.
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) الكافي: ١/ ١٠٣.

المحور الثالث- صفات اللَّه عين ذاته:

اتَّصَفَ اللَّه تعالى بصفاتٍ، كالعلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١]. والقدرة: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]. والحياة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٣]. ولم تكُن هذه الصفات عارضةً على اللَّه تعالى؛ لأنَّ عروضها يعني احتياجه إليها، وافتقاره، وتركُّب الأزليِّ منها، وغير ذلك من اللوازم الفاسدة، كان لا بدَّ من نفيِّ أيِّ صفةٍ بهذه المثابة، ولهذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ((وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الموْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّه سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ))[٤].

فكلُّ صفةٍ تشهدُ أنَّها غيرُ الموصوف منفيَّةٌ عن اللَّه تعالى؛ لثبوت التعدُّد أو الأجزاء، واللَّه تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك.

وهذا حال قوله عليه السلام: ((المُمْتَنِعَةِ مِنَ الصِّفَاتِ ذَاتُه))[٥] ومثلها قول الإمام الرضا عليه السلام: ((وَنِظَامُ تَوْحِيدِ اللَّه تَعَالَى نَفْيُ الصِّفَاتِ، عَنْهُ لِشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوقٌ». فإنَّ هذه الفقرة تنفي الوصف رأسًا، لكنَّ ما بعدها يشهد أن المُراد هو الوصفُ المشابه لوصف المخلوقين، حيث يعود ويقول عليه السلام: ((فَلَيْسَ اللَّهَ [عَرَفَ] مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَهُ))[٦].

فهنا احتمالاتٌ عدِّة؛ أهمُّها:

١. أن ننفي الصفات الكماليَّة عن اللَّه تعالى، فلا نقول: إنَّه عالمٌ ولا إنَّه قادر

---

(١) سورة فاطر: ٣٨.
(٢) سورة البقرة: ٢٨٤.
(٣) سورة الشورى: ١١.
(٤) نهج البلاغة: ٣٩.
(٥) الكافي: ١/ ١٢٩.
(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ١٥٠.

ولا إنَّه حيٌّ، ويلزم من هذا التعطيل، وقد تقدَّم بطلانه، لما فيه من نسبة النقص إلى اللَّه تعالى.

٢. أن نثبت الصفات الكماليَّة للَّه تعالى بما هو زائدٌ على الذَّات، فنقول: إنَّه عالمٌ بعلمٍ قديم، وقادرٌ بقدرةٍ قديمة، والعلم مغايرٌ له وللقدرة ولسائر الصفات، فيلزم من هذا تعدُّد القديم، وهو باطلٌ؛ لأنَّه شركٌ باللَّه تعالى.

ولمَّا سُئِل الإمام عليه السلام عن القوم الذين يقولون بأنَّه عزَّ وجلَّ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِعِلْمٍ، وقَادِرًا بِقُدْرَةٍ، وحَيًّا بِحَيَاةٍ، وقَدِيمًا بِقِدَمٍ، وسَمِيعًا بِسَمْعٍ، وبَصِيرًا بِبَصَرٍ.

أجاب عليه السلام: ((مَنْ قَالَ ذَلِكَ ودَانَ بِهِ فَقَدِ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى، ولَيْسَ مِنْ وَلَايَتِنَا عَلَى شَيْءٍ))[1].

٣. أن نثبت الصفات الكماليَّة للَّه عزَّ وجلَّ، لكن لا على نحوٍ تشهد فيه كلُّ صفةٍ أنَّها غير الموصوف، بل على نحو تكونُ الصفةُ فيه عين الموصوف، من دون أيِّ تشبيه للَّه بخلقه، ويكون امتناع ذاته عن الصفات يعني وجودها بوجوده تعالى، لا بوجودٍ زائد على ذاته.

والقول الثالثُ هذا هو قولُ محمَّدٍ وآله الأطهار عليهم السلام، وقد نطقت به الروايات صريحًا عنهم عليهم السلام، ومن ذلك ما رُوي عن الصادق عليه السلام أنَّه قال: ((لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ رَبَّنَا وَالعِلْمُ ذَاتُهُ وَلَا مَعْلُومَ، وَالسَّمْعُ ذَاتُهُ وَلَا مَسْمُوعَ، وَالبَصَرُ ذَاتُهُ وَلَا مُبْصَرَ، وَالقُدْرَةُ ذَاتُهُ وَلَا مَقْدُورَ))[2] فهوُ صريحٌ بأنَّ العلمَ ذات اللَّه تعالى، والسمع ذاته، والبصر ذاته، والقدرة ذاته؛ أي إنَّه ليس هناك صفاتٌ مغايرةٌ لذاته.فإنَّ إثبات العلم مثلًا لا يخلو من أحد أمرَيْن: إمَّا أن يكون العلمُ مُغايرًا له، وإمَّا ألَّا يكون مغايرًا له تعالى، وليس بين النفي والإثبات منزلةٌ.

(١) التوحيد: ١٤٠.
(٢) الكافي: ١/ ١٠٧.

والأوَّل يلزم منه الشِّرك كما تقدَّم، فلم يبقَ إلَّا الاحتمال الثاني؛ أي أن تكون هذه الصفات غير مغايرة له، وهو معنى قوله عليه السلام (العلمُ ذاتُه)، وهو معنى ما ورد عن الإمام عليه السلام من قوله: إنَّه تعالى ((السَّمِيع البَصِيرُ، العَالِمُ الخَبِيرُ، بِلَا اخْتِلَافِ الذَّاتِ، وَلَا اخْتِلَافِ المعْنَى))[1].

ولقد قال الإمام عليه السلام هذه الكلمات من بعد ما بيَّنَ أنَّ اللَّه تعالى (يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ ويُبْصِرُ بِنَفْسِهِ) لكن لا على نحوٍ يكون هو (شَيْءٌ والنَّفْسُ شَيْءٌ آخَرُ) بل إنَّ ذلك كائنٌ من دون اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى؛ أي إنَّه ليس في اللَّه تعالى عارضٌ ومعروضٌ، ولا اختلاف في ذاته بينها وبين العلم والقدرة، فوجوده وعلمه وقدرته كلُّها عينُ ذاته، لا أنَّها شيءٌ مغايرٌ له.

وهو -أيضًا- معنى قوله عليه السلام: ((لَمْ يَزَلِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ عَلِيمًا قَادِرًا حَيًّا قَدِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا لِذَاتِه))[2]، وهو -أيضًا- معنى ما ورد عنهم عليهم السلام: ((إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وتَعَالَى ذَاتٌ عَلَّامَةٌ سَمِيعَةٌ بَصِيرَةٌ قَادِرَةٌ))[3]، وقولهم عليهم السلام: ((لَمْ يَزَلِ اللَّه عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا، ذَاتٌ عَلَّامَةٌ سَمِيعَةٌ بَصِيرَةٌ))[4].

فهذه النصوص أثبتت أنَّ اللَّه تعالى بصيرٌ لذاته؛ أي إنَّ البصر ليس شيئًا سواه، وأنَّه ذات علامة، فالذات إشارةٌ إلى المعنى المعبود؛ إلى اللَّه تعالى، وهو عليمٌ منذ الأزل، لا بعلمٍ مُغايرٍ له، لئلَّا يشهد هذا العلم أنَّه غيره تعالى، فيثبت التعدُّد وهذا هو معنى عينيَّة الصفات للذات.

ومن النصوص الصريحة في ذمِّ من جعل القدرة غيره، ما رُوي عن محمَّد بن عرفة قال: ((قُلْتُ لِلرِّضَا عليه السلام: خَلَقَ اللَّه الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ أَمْ بِغَيْرِ القُدْرَةِ؟ فَقَالَ:

(١) الكافي: ١/ ٨٣.
(٢) التوحيد: ١٤٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٤٤.
(٤) المصدر نفسه: ١٣٩.

لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: خَلَقَ الأَشْيَاءَ بِالقُدْرَةِ، فَكَأَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ القُدْرَةَ شَيْئًا غَيْرَهُ، وجَعَلْتَهَا آلَةً لَهُ بِهَا خَلَقَ الأَشْيَاءَ، وهَذَا شِرْكٌ)) [1].

فَجَعلُ القُدرة شيئًا غيره يوجب الشِّرك باللَّه تعالى، فلا بدَّ من أن تكون القدرة ليست شيئًا غيره، وهذا أيضًا هو معنى عينيَّة الصفات للذات.

ومنَ النصوص الجليَّة في هذا المعنى قولهعليه السلام: ((رَبُّنَا نُورِيُّ الذَّاتِ، حَيُّ الذَّاتِ، عَالِمُ الذَّاتِ، صَمَدِيُّ الذَّاتِ))[2].

بهذا يظهر أنَّ صفات اللَّه تعالى الثبوتيَّة ليست شيئًا مغايرًا له تعالى، لئلَّا يلزم التعدُّد في الأزليِّ، أو التركُّب منه تعالى ومنها، جلَّ ربُّنا عن ذلك، وكما كان اللَّهعزوجل لا يُدرَكُ كنهه، ولا يُحاط به علمًا، كذلك صفاته فهي عين ذاته، فإنَّا وإن اشتركنا معه في بعض هذه الصفات كالعلم والقدرة، إلَّا أنَّه اشتراكٌ في الاسم من دون المعنى الذي قد يُدرَكُ فينا، ولا يُدرَك فيه تعالى بحالٍ من الأحوال.

وتظهر خلاصة الكلام في سؤالَيْن:

١. هل للَّه صفات؟ الجواب: نعم، بأدلَّةٍ قطعيَّةٍ؛ عقليَّة ونقليَّة.

٢. هل هناك أدلَّةٌ على نفي صفات اللَّه؟

الجواب: هناك رواياتٌ قد يُدَّعى ظهورُها في نفي صفات اللَّه تعالى (وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ) لكنَّها تُحمَل على نفي الصفات المغايرة لذاته، لئلَّا يلزم التعدُّد، ونفي الصفات المشابهة لخلقه، لئلَّا يلزم التشبيه.

تذييل مهم: وقفةٌ مع الصفات قَد يُقال: إنَّ اللَّه تعالى لمَّا لم يكن مركَّبًا من

(١) التوحيد: ١٣٠.
(٢) المصدر نفسه: ١٤١.

علمٍ وقدرةٍ وحياةٍ، ولمَّا كانت هذه الصِّفاتُ ثابتةً منذ الأزل ومتباينةً فيما بينها لم يكن هناك معنى للقول بعينيَّة الصفات للذات، فإنَّ لازم أزليَّة هذه الصفات وتَبايُنها هو التعدُّد فيه حقيقةً.

فكأنَّكم أيُّها الشيعة قد هربتم من إشكال الشِّرك كما هَرَبَ النصارى؛ إذ قالوا إنَّ اللَّه واحدٌ حال كون الأزليِّ متعدِّدًا مثلَّثَ الأقانيم، فما معنى أن تكون الصفات أزليَّة متعدِّدَةً وهي عينُ ذاته؟ والجواب عليه: أنَّ النصارى قد التزموا بتعدُّد الأزليِّ، ووقعوا في التناقض من جهة التزامهم بالتوحيد في عين التثليث، وهو ما لا يمكن المصير إليه إلَّا بالتناقض، لكنَّ حقيقة اعتقادنا بأنَّ الصفات عين الذات ترجع إلى أنَّ اللَّه تعالى بذاته واحدٌ أحديُّ الذات والمعنى، لا تعدُّد فيه ولا تركُّب حقيقة، وأنَّ ما نصفه به من أوصافٍ لا يرجعُ لتعدُّدٍ في ذاته حقيقةً، ولا لتعدُّدٍ في صفاته، فهذه الصفاتُ لا تُباينُهُ ولا يُباينُ بعضها بعضًا.

وقد عَبَّرنا عنها بكون الصفة عين الذات تبعًا للمعصومين عليهم السلام، وإلَّا فإنَّ اللَّه تعالى ليس له صفةٌ زائدةٌ عليه.

قال الشهيد الثاني رحمه اللَّه: ((وبالجملة فالحقُّ أنَّ صفاته تعالى اعتبارات تحدثها عقولنا عند مقايسة ذاته تعالى إلى غيرها، ونظرًا إلى الآثار الصادرة عنه تعالى، فإنَّه لمَّا أوجد مقدورًا صادرًا عنه تعالى اعتبر له قدرةٌ كما في الشاهد.

وهكذا حين أوجد هناك معلومًا اعتبر له علمٌ، الى غير ذلك، والَّا فذاته المقدَّسة لا صفة له زائدة عليها، والَّا لزم كونه محلًّا لغيره أن قامت به، وقيام صفته بغيره ان لم تقم به، وكلاهما بدهيُّ البطلان، وعدم قيامها بشيء بل بنفسها أظهر بطلانا.

فالكل راجعٌ إلى كمال الذات المقدَّسة وغنائها، لكن لما كانت عقول الخلق

متفاوتةً في الاستعداد، حتَّى أنَّها تدرك كثرةً عظيمةً متى اطَّلعت على كثرة صفاته الجميلة، كما هو الواقع في المشاهد، لوحظت هذه الصفات والاعتبارات، ليتوصَّل بها الخلق الى معرفة خالقهم على حسب استعدادهم.

ثم أنَّه قد ينكشف عليهم بسببها أنوار كبريائه عند الإحاطة بحقائقها، وأنَّها ليست إلَّا اعتبارات، فلا يجدون في الوجود إلَّا ذاتًا واحدةً واجبةً مقدسة))[1].

الشهيد الثاني –رحمه اللَّه– بكلامه هذا قد أوجز وأجاد، فجمع بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نفي الصفات عن اللَّه تعالى؛ لأنَّ المنفيَّ هو كلُّ صفةٍ تغايره، وأثبت له الصفات الذاتيَّة الحقيقة، التي لا تكون شيئًا مغايرًا له، بل تكون هي عين ذاته الواحدة التي لا تعدُّد فيها.

وبيَّنَ في الوقت نفسه حال ما يشير إلى كون الصفات مخلوقةً، فإنَّ المخلوق منها ليس هو ما اتَّصف به اللَّه تعالى حقيقةً، بل المخلوق منها هو الأوصاف والاعتبارات التي سوَّغَ اللَّه لنا وصفه بها، التي تنقدح في أذهاننا، فهي أوصافٌ مخلوقةٌ راجعةٌ في حقيقة الأمر إلى مقدار فهمنا وإدراكنا لتقريب التوحيد إلى أذهاننا.

ولعلَّ قول الصادق عليه السلام يشير إلى هذا المعنى: ((فَأَمَّا مَا عَبَّرَتْهُ الْأَلْسُنُ أَوْ عَمِلَتِ الْأَيْدِي فَهُوَ مَخْلُوقٌ... وَكُلُّ مَوْصُوفٍ مَصْنُوعٌ، وَصَانِعُ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِحَدٍّ مُسَمًّى... وَلَمْ يَتَنَاهَ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا كَانَتْ غَيْرَهُ))[2]، فكلُّ صفةٍ نَصِفُ اللَّه تعالى بها في حقيقة أمرها مصنوعةٌ، ولو كانت الصفة تبلغ غايته وتنتهي إلى ذاته فتحدُّه لكان هو مصنوعًا أيضًا، جَلَّ ربُّنا عن ذلك. وهذا المعنى لا غُبار عليه، فكلُّ معنى يمكن أن يُتَوَهَّم مصنوعٌ، حتى لو كان معنى (العلم والقدرة والحياة)،

(١) حقائق الإيمان: ١٤٦-١٤٧.
(٢) الكافي: ١/ ١١٣.

فصفات العلم والقدرة ليست بحسب المفهوم والمُدرَك ذاتَ اللَّه بحالٍ، وإلَّا لكانت ذاتُه مدرَكَةً ومفهومةً، نعم هي بحسب الحقيقة التي لا ندركها ذاته تعالى.

بعبارة أخرى: إنَّ التوحيد في الحقيقة يلزم منه القول بأنَّ الصفات عين الذات، فلا تعدُّد ولا تركُّب في اللَّه تعالى، وإنَّ التوحيد الذي ينقدح في الأذهان يُلزمُنا القول بأنَّ كلَّ صفةٍ نصف بها اللَّه تعالى هي أمرٌ اعتباريٌّ راجعٌ إلينا؛ لأنَّه لا تعدُّد في ذاته حقيقةً؛ لذا قال الشيخ المظفر -رحمه اللَّه- بعدما بيَّنَ أنَّ الصفات الثبوتيَّة الحقيقية الكماليَّة كالعلم والقدرة والحياة هي كلُّها عين ذاته، وليست زائدة عليها، وليس وجودها إلَّا وجود الذات، وأنَّه لا إثنينيَّة في صفاته ووجودها، قال: ((نعم، هي مختلفةٌ في معانيها ومفاهيمها، لا في حقائقها ووجوداتها؛ لأنَّه لو كانت مختلفةً في الوجود، وهي بحسب الفرض قديمة وواجبة كالذات للزم تعدّد واجب الوجود، ولانثلمت الوحدة الحقيقيَّة، وهذا ما ينافي عقيدة التوحيد))[١].

وهذا ما عناه الفيض الكاشانيُّ -رحمه اللَّه- بقوله: ((يعنى أنَّ ذاته بذاته من حيث هو هو مع كمال فرديَّته منشأ لهذه الصفات، ومستحقٌّ لهذه الأسماء، فيكون هو نفس هذه الصفات وجودًا وعينًا وفعلًا وتأثيرًا، وإن كانت هي غيره بحسب المعنى والمفهوم))[٢].

وإليه أشار المقداد السيوريُّ -رحمه اللَّه- في شرح الباب الحادي عشر((وما يُتصوَّر من الزيادة من قولنا: (ذاتٌ عالمةٌ وقادرة) فتلك أمورٌ اعتباريَّة زائدةٌ في الذهن لا في الخارج، وهو الحقُّ)) [٣].

وهو ما يدلُّ عليه قول الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئِل عن الأسماء والصفات: ((إِنْ كُنْتَ تَقُولُ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَالْأَسْمَاءُ لَمْ تَزَلْ، فَإِنَّ (لَمْ تَزَلْ) مُحْتَمِلٌ مَعْنَيَيْنِ:

(١) عقائد الإمامية: ٣١.
(٢) أصول المعارف: ٢٦.
(٣) شرح الباب الحادي عشر: ٦٠.

فَإِنْ قُلْتَ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ فِي عِلْمِهِ وَهُوَ مُسْتَحِقُّهَا، فَنَعَمْ. وإِنْ كُنْتَ تَقُولُ: لَمْ يَزَلْ تَصْوِيرُهَا وَهِجَاؤُهَا وَتَقْطِيعُ حُرُوفِهَا، فَمَعَاذَ اللَّه أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، بَلْ كَانَ اللَّه وَلَا خَلْقَ، ثُمَّ خَلَقَهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِه يَتَضَرَّعُونَ بِهَا إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ، وَهِيَ ذِكْرُهُ، وَكَانَ اللَّه وَلَا ذِكْرَ، وَالمَذْكُورُ بِالذِّكْرِ هُوَ اللَّه القَدِيمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ، وَالأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ مَخْلُوقَاتٌ وَالمَعَانِي، (وَالْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ مَخْلُوقَاتُ المَعَانِي) وَالمَعْنِيُّ بِهَا هُوَ اللَّه... وَلَكِنَّهُ القَدِيمُ فِي ذَاتِهِ))[1].

لا يقال: إنَّ قوله عليه السلام عن الصفات (لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ فِي عِلْمِهِ) ينفي عينيَّة الصفات للذات؛ إذ يلزم منه المباينة.

لأنَّا نقول: نعم يلزم المباينة بين هذه الصفات المخلوقة وبينه، ويلزم العينيَّة بين علمه وبينه تعالى؛ لأنَّ هذه الصفات لم تزل عنده في علمه، وعلمه أزليٌّ، بخلاف الصفات المخلوقة المصوَّرة المقطَّعة الحروف.

ويدلُّ على خلق الصفات بهذا المعنى أيضًا حديث الإمام عليه السلام عندما أثبت معرفة اللَّه تعالى بغيره، ولمَّا سُئِل عن ذلك الغير، قال: ((مَشِيَّتُهُ وَاسْمُهُ وَصِفَتُهُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّر))[2].

فالصفات هنا:

١. إمَّا صفات الفعل كما يظهر من المشيئة والاسم وأشباههما، وهي السبعة التي لا تكون الأشياء إلَّا بها، ومنها القضاء والقدر والكتاب والأجل والإذن.

٢. أو الصفات التي نتصوَّرها عن اللَّه التي تدلُّ عليه؛ فهي مخلوقةٌ للدلالة عليه، وهو أجلُّ منها، وكلُّ ما سواه مخلوق.

(١) الكافي: ١/ ١١٦، وينظر: التوحيد: ١٩٣.
(٢) التوحيد: ٤٣٣.

وبهذا التقريب ليس هناك من غبارٍ على القول بعينيَّة الصفات للذَّات بحسب الحقيقة، ولا على القول بأنَّ ما نتصوَّره منها متغايرٌ بحسب المفهوم، مصنوعٌ مردودٌ إلينا، ولا يصحُّ القول بأنَّ الصفات مطلقًا مهما كانت مخلوقة؛ لأنَّ لازم ذلك أنَّ اللَّه تعالى لم يكن متَّصفًا بها قبل خلقها وخلق الخلق؛ أي إنَّه لم يكن عالمًا ولا قادرًا.

وقد سُئل الإمام الرضا عليه السلام: ((هَلْ كَانَ اللَّهﷻ عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. ثمَّ أكمل الإمام فقال: هُوَ نَفْسُهُ، وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا))[1].

فقد كان عارفًا بنفسه قبل اختيار الأسماء لغيره، فعلمه أزليٌّ، وكان عالمًا بما سيخلق قبل أن يخلق، وليس علمه وقدرته بشيءٍ آخر زائدٍ على نفسه، وإلَّا تعدُّد القديم، وهذا معنى عينيَّة الصفات للذَّات، وهي غير الصفات والأسماء المخلوقة التي اختارها لعباده كي يدعوه بها.

وتظهر خلاصة الكلام في سؤالَيْن:

١. هل صفات اللَّه (كالعلم والقدرة) أزليَّة؟ الجواب: نعم، بأدلَّة قطعيَّة؛ عقليَّة ونقليَّة.

٢. هل هناك أدلَّة على نفي أزليَّتها وأنَّها مخلوقة؟

الجواب: هناك رواياتٌ قد يُدَّعى ظهورها في كون الصفات مخلوقة؛ مَشِيَّتُهُ وَاسْمُهُ وصِفَتُهُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَكُلُّ ذَلِكَ مُحْدَثٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّر، وَالأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ مَخْلُوقَاتٌ، لكنَّها تُحمَلُ على الصفات والأسماء التي خلقها اللَّه تعالى؛ ليعرفه بها الخلق، لا على صفات الذات؛ لأنَّه لولا ذلك لزم أن يكون تعالى قبل خلق الخلق غير عالم، وغير قادر، وهذا باطلٌ بلا ريب؛ فالعلمُ والقدرة ذاته تعالى.

(١) الكافي: ١/ ١١٣.

المحور الرابع- الصفات الثبوتيَّة والصفات السلبيَّة:

يوصفُ اللَّه تعالى بأنَّه واحدٌ عالمٌ قادرٌ، وتُصَنَّفُ هذه الصفات بأنَّها صفاتٌ ثبوتيَّة؛ لأنَّنا نثبت بها صفةً للَّه تعالى، لكن هذه الصفة ليست شيئًا مغايرًا له تعالى كما تقدَّم، ويوصَفُ اللَّه تعالى بأنَّه غير مركَّب، وغير متجزِّئ، وأنَّه لا يجهل شيئًا، ولا يعجزه شيء، وأنَّه ليس بجسم، وأنَّه لا يحلُّ في الأماكن، وتُصنَّفُ هذه الصفات بأنَّها صفاتٌ سلبيَّة؛ إذ إنَّها تعني سلبَ شيءٍ كسلب التركيب والجسميَّة والحلول وما شابه ذلك، وههنا احتمالات في كيفيَّة فهم هذين الصنفَين من الصفات:

الاحتمال الأوَّل- أن ترجع الصفات السلبيَّة إلى صفاتٍ ثبوتيَّة:

بأن يُقال: ثَبَتَ أنَّ اللَّه تعالى واحدٌ: ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ [١] وهو يلازم نفي الشَّريك: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾[٢] ونفي التركيب والأجزاء، فيرجع نفي التركيب والأجزاء إلى إثبات الوحدانيَّة، وبما أنَّ كلَّ صفةٍ تنفي ضدَّها، فإذا أثبتنا العلم فقد نفينا الجهل؛ للملازمة بين إثبات الأوَّل ونفي الثاني، فقولنا: اللَّه ليس بجاهل، يرجع لثبوت العلم.

وقولنا: إنَّ اللَّه لا يعجزه شيء ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾[٣] يرجع إلى إثبات قدرته تعالى: ﴿إِنَّهُ كانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [٤].

ولعلَّه إلى هذا المعنى أشار الشيخ الكلينيُّ رحمه اللَّه بقوله: ((وَصِفَاتُ الذَّاتِ تَنْفِي عَنْهُ بِكُلِّ صِفَةٍ مِنْهَا ضِدَّهَا، يُقَالُ: حَيٌّ وعَالِمٌ وسَمِيعٌ وبَصِيرٌ وعَزِيزٌ وحَكِيمٌ غَنِيٌّ مَلِكٌ حَلِيمٌ عَدْلٌ كَرِيمٌ. فَالعِلْمُ ضِدُّهُ الجَهْلُ، والقُدْرَةُ ضِدُّهَا العَجْزُ، والحَيَاةُ ضِدُّهَا المَوْتُ، والعِزَّةُ ضِدُّهَا الذِّلَّةُ، والحِكْمَةُ ضِدُّهَا الخَطَأُ، وضِدُّ

(١) سورة البقرة: ١٦٣.
(٢) سورة الأنعام: ١٦٣.
(٣) سورة فاطر: ٤٤.
(٤) سورة فاطر: ٤٤.

الحِلْم العَجَلَةُ والجَهْلُ، وضِدُّ العَدْلِ الجَوْرُ والظُّلْمُ))[1] هكذا يلزم من إثبات كلِّ صفةٍ نفيُ ضدِّها.

ومثلُ هذا المعنى ليس بعيدًا عن لسان النصوص الشريفة؛ إذ رُوي عن الصادق عليه السلام: ((النُّعُوتُ نُعُوتُ الذَّاتِ، لَا تَلِيقُ إِلَّا باللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَاللَّه نُورٌ لَا ظَلَامَ فِيهِ، وَحَيٌّ لَا مَوْتَ لَهُ، وَعَالِمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَصَمَدٌ لَا مَدْخَلَ فِيهِ، رَبُّنَا نُورِيُّ الذَّاتِ، حَيُّ الذَّاتِ، عَالِمُ الذَّاتِ، صَمَدِيُّ الذَّاتِ))[2].

فإثبات كلِّ صفةٍ يلازم نفي ضدِّها، وقد وصف اللَّه تعالى نفسه بالصفات الثبوتيَّة، فيلزم من ذلك نفي أضدادها، فلو قلنا: إنَّ الصفات الثبوتيَّة كلَّها ترجع إلى صفاتٍ سلبيَّة، لكان مآل قولنا في الحقيقة تعطيل نسبة الصفات للَّه تعالى.

فإنَّ معنى ذلك عدم ثبوت العلم حقيقة ولا الحياة ولا القدرة، بل نفي الجهل والموت والعجز فقط، وهو من مصاديق التعطيل الذي تقدَّم نفيه من الإمام عليه السلام.

فلو قلنا: إنَّ الكمال يعني نفي النقص فقط، يكون اللَّه تعالى إذن سُلوبًا فقط! بمعنى أنه: ليس جاهلًا، وليس عاجزًا، وليس ضعيفًا! لكنَّه حقيقةً: غير عالم! وغير قادر! وغير قويٍّ! وهذا هو التعطيل بعينه؛ تمامًا كمن قال إنَّه لا شيء! فقد أبطله ونفاه وعطَّله؛ لذا قلنا هناك: هو شيء لا كالأشياء، وقلنا هنا: هو عالم لا كأيِّ عالم؛ قال المجلسيُّ رحمه اللَّه: ((وأمَّا الصفات الحقيقيَّة؛ فالحكماء والإماميَّة على أنَّها غير زائدةٍ على ذاته تعالى، وليس عينيَّتُها وعدم زيادتها بمعنى نفي أضدادها عنه تعالى، حتى يكون علمه سبحانه عبارة عن نفي الجهل ليلزم التعطيل))[3].

(١) الكافي: ١/ ١١٢.
(٢) التوحيد: ١٤٠.
(٣) مرآة العقول: ٢/ ١٠.

وهذا القولُ هو قولُ الإماميَّة هَرَبًا مِنَ التعطيل، وهو ظاهرٌ في نفي الإماميَّة رجوع الصفات الثبوتيَّة إلى سلبيَّة، فإذا ضممت لذلك:

١. قولهم بأنَّ الصفات عين الذات.

٢. وقولهم أنَّ لا شكَّ في كون ((السلوب والإضافات زائدةً على الذات))[1] علمتَ أنَّ الصفات الثبوتيَّة الحقيقيَّة هي عينُ الذَّات فقط، وأنَّ (السلوب)؛ أي الصفات السلبيَّة، و(الإضافات) أي صفات الفعل، زائدةٌ على الذَّات، وما كان زائدًا على الذَّات لم يكن أزليًّا، إلَّا أن يرجع إلى صفةٍ من صفات الثبوت، وهو المطلوب، فالجهل منفيٌّ عن اللَّه تعالى منذ الأزل؛ لأنَّه راجعٌ إلى إثبات العلم له تعالى منذ الأزل.

نعم ههنا لا بدَّ من التمييز بين أمرَيْن:

الأوَّل: عدم رجوع الصفات الذاتيَّة الثبوتيَّة إلى سلبيَّة في نفسه، لئلَّا يلزم التعطيل كما تقدَّم.

الآخر: رجوع الصفات الثبوتيَّة إلى سلبيَّة؛ بمعنى أن المُدرَكَ من الصفات هو سلب الضدِّ فقط؛ أي أنَّا لما أثبتنا للَّه تعالى العلم، ولم تكن حقيقة هذا العلم قابلةً للإدراك عندنا، وكان لازمه نفي الجهل، كان السلبُ فقط هو المدرَك لنا؛ أي نفي الجهل، من دون إدراك حقيقة العلم.

ولعلَّه إليه يشير المقداد السيوريُّ -رحمه اللَّه- في شرحه على الباب الحادي عشر بقوله: ((وإن شئت كان مجموع صفاته صفات جلال، فإنَّ اثبات قدرته باعتبار سلب العجز عنه، وإثبات العلم باعتبار سلب الجهل عنه، وكذا باقي الصفات، وفي الحقيقة المعقول لنا من صفاته ليس إلَّا السّلوب والإضافات،

(١) مرآة العقول: ٢/ ١٠.

وأمَّا كنه ذاته، وصفاته، فمحجوب عن نظر العقول، ولا يعلم ما هو إلَّا هو))[1].

فقوله: (المعقول لنا) إشارةٌ إلى ما ذكرنا، وليس بعيدًا أن يكون هذا -أيضًا- هو مراد الشيخ الصدوق -رحمه اللَّه- حين أرجع الصفات الثبوتيَّة إلى سلبيَّة[2]، وإن لم يكن ظاهرًا من كلامه، وهو الذي روى روايات نفي التعطيل، وعينيَّة الصفات مع الذات، وعلى هذا القول قَد يُقال برجوع الصفات السلبيَّة إلى صفةٍ سلبيَّةٍ واحدة، ثمَّ رجوع هذه السلبيَّة إلى صفةٍ ثبوتيَّةٍ أخرى.

قال الشيخ المظفر رحمه اللَّه: ((وأمَّا الصفات السلبيَّة التي تسمَّى بصفات الجلال، فهي ترجع جميعها إلى سلبٍ واحدٍ هو سلبُ الإمكان عنه... ثمَّ أنَّ مرجع سلب الاِمكان - في الحقيقة - إلى وجوب الوجود، ووجوب الوجود من الصفات الثبوتيَّة الكماليَّة، فترجع الصفات الجلاليَّة (السلبيَّة) آخر الاَمر إلى الصفات الكماليَّة (الثبوتيَّة)، واللَّه تعالى واحدٌ من جميع الجهات، لا تكثُّر في ذاته المقدَّسة، ولا تركيب في حقيقة الواحد الصمد))[3].

الاحتمال الثاني- أن ترجع الصفات الثبوتيَّة إلى صفاتٍ سلبيَّة:

بأن يُقال: إنَّ إثبات العلم يرجعُ حقيقةً لنفي الجهل، فقولنا: (اللَّه عالمٌ)، لا نقصد به إلَّا نفي الجهل عنه تعالى، وهذا مخالفٌ لما عليه الإماميَّة كما تقدَّم، ويلزم منه التعطيل ببعض معانيه، لكن ربَّما يُتوهَّمُ أنَّه الحقُّ، لأمرَيْن:

الأمر الأوَّل: وجودُ إشاراتٍ في بعض النصوص قد يُفهَمُ منها الدلالة عليه؛ أي رجوع الصفات الثبوتيَّة إلى صفات سلبيَّة؛ منها قول الإمام الرضا عليه السلام: ((وَإِنَّمَا سُمِّيَ اللَّه تَعَالَى بِالعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ حَادِثٍ عَلِمَ بِهِ الأَشْيَاءَ، كَمَا أَنَّا لَوْ رَأَيْنَا عُلَمَاءَ الخَلْقِ إِنَّمَا سُمُّوا بِالعِلْمِ لِعِلْمٍ حَادِثٍ إِذْ كَانُوا فِيهِ جَهَلَةً، وإِنَّمَا سُمِّيَ اللَّه عَالِمًا لِأَنَّهُ لَا يَجْهَلُ

(١) شرح الباب الحادي عشر: ٤٩.
(٢) التوحيد: ١٤٨.
(٣) عقائد الإمامية: ٣٢.

شَيْئًا، فَقَدْ جَمَعَ الخَالِقَ والمَخْلُوقَ اسْمُ العَالِمِ واخْتَلَفَ المَعْنَى)) [١] بتقريب أنَّ أصل التسمية بالعالم يرجع إلى نفي الجهل.

والحال أنَّ الحديث لا يدلُّ على ذلك، فإنَّ الإمام عليه السلام بعدما بيَّنَ في الحديث أنَّ الاسم الواحد قد يجمع معنيين مختلفين كما في الأسد والإنسان الموصوف بأنه أسد، بيَّنَ أن العلم في اللَّه تعالى ليس كالعلم في المخلوقين، فعلمُ اللَّه تعالى غير حادثٍ، بغير أداةٍ، بغير رويَّة وتفكُّر، بغير حَدٍّ (لا يجهل شيئًا) بينما علم المخلوقين ليس كذلك، فإنَّه علمٌ بعد جهلٍ، ربَّما يعلمون يومًا ويجهلون آخر، فلا يكون الحديثُ دالًّا على ذلك بوجه.

ومن النصوص التي قد يُستدلُّ بها على ذلك قول الإمام عليه السلام: ((فَقَوْلُكَ إِنَّ اللَّه قَدِيرٌ؛ خَبَّرْتَ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَنَفَيْتَ بِالكَلِمَةِ العَجْزَ، وَجَعَلْتَ العَجْزَ سِوَاهُ. وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ: عَالِمٌ، إِنَّمَا نَفَيْتَ بِالكَلِمَةِ الجَهْلَ، وَجَعَلْتَ الجَهْلَ سِوَاهُ)) [٢].

وهو كذلك لا يدلُّ على المطلوب؛ لأنَّ نفي العجز عند إثبات القدرة يمكن أن يكون بالملازمة كما تقدَّم، بل هو المتعيِّن، فمن أثبت شيئًا نفى ضدَّه، والجهل ضدُّ العلم، فمن أثبت العلم نفى الجهل من باب نفي الضدِّ لا من باب التفسير.

وبذلك ينسجم قولهم عليهم السلام: إنَّ (العلم ذاته) (والقدرة ذاته) مع قولهم بأنَّ العلم ينفي الجهل، والقدرة تنفي العجز، فلا يكون الحديثُ دالًّا على ذلك بوجه.

أما الأمر الثاني: الذي يوهِمُ وجود مانعٍ من الاحتمال الأوَّل؛ فهو أنَّ الصفات الثبوتيَّة لو لم ترجع إلى الصفات السلبيَّة لزم إمَّا تعدُّد القديم، أو الشبه بين الخالق والمخلوق، والأوَّل لا يتوافق مع الوحدانيَّة، والثاني لا يتوافق مع تنزيه اللَّه تعالى.

(١) الكافي: ١/ ١٢١.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١١٧.

لكن كلا هذين الأمرين لا يلزمان على مذهب الإماميَّة:

أمَّا الأوَّل، فلأنَّهم قائلون جميعًا بكون الصفات عين الذات، فلا يتعدَّد القديم.

وأمَّا الثاني، فلأنَّهم جميعًا ينفون الشبه بين الخالق والمخلوق، ولا يثبتون له صفةً كصفاتهم كما تقدَّم.

قال الشيخ المظفر رحمه اللَّه: ((ولا ينقضي العجب من قول من يذهب إلى رجوع الصفات الثبوتيَّة إلى الصفات السلبيَّة؛ لمَّا عزَّ عليه أن يفهم كيف أنَّ صفاته عين ذاته، فتخيَّل أنَّ الصفات الثبوتيَّة ترجع إلى السلب؛ ليطمئنَّ إلى القول بوحدة الذات وعدم تكثُّرها، فوقع بما هو أسوأ؛ إذ جعل الذات التي هي عين الوجود، ومحض الوجود، والفاقدة لكلِّ نقص وجهة إمكان، جعلها عين العدم ومحض السلب، أعاذنا اللَّه من شطحات الأَوهام، وزلَّات الأَقلام))[1].

ونحنُ -كما أشرنا سابقًا- لا نعتقد أنَّ الشيخ الصدوق -رحمه اللَّه- قد التزم بهذا الاحتمال وإن كان ظاهرًا من بعض كلماته، فإنَّا نُرجِّحُ أن يكون مراده هو ما ندركه من صفات الذات، وهو السلب فقط، لا أنَّ حقيقة الصفة هي محض السلب وعين العدم.

الاحتمال الثالث- ألَّا ترجع إحدى الصفات للأخرى:

وذلك بأن يُقال: إنَّ بعضَ الصِّفات ثبوتيَّة، وبعضُها سلبيَّة، ولا يلزم أن ترجع فئةٌ منهما للفئة الأخرى، فاللَّه تعالى عالمٌ، واللَّه تعالى ليس بجاهل، وكلٌّ منهما صفةٌ لا ترجع للأخرى، لكنَّ يُلاحظ على هذا القول، أنَّ الصفات الحقيقيَّة الثبوتيَّة كالعلم والقُدرة أزليَّةٌ، وهي عينُ الذات، أمَّا الصفات السلبيَّة فليست كذلك؛ إذ ليست حقيقتها سوى السَّلب والنفي، والسَّلبُ لا يصحُّ أن يكون عين الذَّات؛ إذ تصيرُ حينها الذات المقدَّسة (عين العدم ومحض السَّلب).

(١) عقائد الإمامية: ٣٢.

ثمَّ لو قلنا: إنَّ اللَّه تعالى (عالمٌ)، وإنَّه (ليس بجاهل)، ولم يرجع نفي الجهل لإثبات العلم، بل كان صفةً بنفسه، فأيُّ معنى يثبته نفي الجهل هنا غير ثبوت العلم؟

فالحقُّ أنَّ صفات السلب يُرادُ منها نفي النقص والضعف والعجز والحاجة والفقر وأمثال ذلك، وهو منفيٌّ فعلًا لثبوت الكمال والقدرة والقوَّة والغنى للَّه تعالى، بل لازمٌ لثبوت صفات الكمال، فلا تكونُ الصفات السلبيَّة صفاتٍ مستقلَّةً، بل راجعة إلى إثبات الكمال للَّه تعالى.

بهذا يظهر عدم تماميَّة الاحتمالَيْن الأخيرَيْن، وأنَّ الحقَّ في الاحتمال الأوَّل؛ أي إرجاع الصفات السلبيَّة إلى صفاتٍ ثبوتيَّة، تنفي أضدادها.

الخاتمة:

١. إنَّ التوحيد حصنُ اللَّه تعالى، وقبوله مشروطٌ بولاية آل محمدٍ عليهم السلام.

٢. إنَّ حقيقة التوحيد معزولةٌ عنَّا، فاللَّه تعالى أجلُّ وأعظمُ من أن يُدرَك بعقلٍ أو قلبٍ أو وهمٍ أو أيِّ أداةٍ أخرى.

٣. إنَّ المُدرَكَ من التوحيد هو وجود الإله العظيم الغنيِّ المتَّصف بصفات الكمال لنفسه، الذي لا تعدُّد فيه ولا تركُّب.

٤. لا مشابهة بين اللَّه تعالى وخلقه في شيء من الصفات، ومَن شَبَّهَهُ بخلقه فهو مشرك.

٥. إنَّ نفيَ التعطيل واجبٌ كنفي التشبيه، فلا يصحُّ إنكار وجوده تعالى، ولا نفي صفاته، ولا شيئيَّته.

٦. إنَّ مذهب آل محمدٍ عليهم السلام هو: الإثبات بغير تشبيه، فنثبت للَّه تعالى الوجود والقدرة والعلم والحياة وسائر الصفات، من غير تشبيه لها بشيء من صفات الخلق.

٧. لا يصحُّ وصف اللَّه تعالى إلَّا بما وصف به نفسه، وما نعقله من أسماء أو أوصاف للَّه تعالى هي ما تعبَّدَنَا بها وجعلها طريقًا إليه.

٨. إنَّ الاشتراك في الصفة بين اللَّه تعالى ومخلوقاته هو اشتراكٌ في الاسم لا في حقيقة المعنى المُدرَك، فليس علمه كعلم أحدٍ منا، ولا قدرته ولا حياته.

٩. إنَّ كلَّ صفةٍ تغاير الموصوف منفيَّةٌ عن اللَّه تعالى؛ لأنَّه تعالى كان موصوفًا بالعلم والقدرة والحياة منذ الأزل، دون تعدُّدٍ فيه.

١٠. إنَّ ثبوت الصفات في الأزل يعني أنَّها ليست شيئًا مغايرًا له، فلو كانت مغايرة له لزم الشرك، وهذا معنى عينيَّة الصفات للذات.

١١. إنَّ صفات الذات واحدةٌ في حقيقتها، مختلفةٌ في مفاهيمها، وهذه المفاهيم والألفاظ والخواطر المُدرَكة كلُّها مخلوقةٌ لا تعني حقيقة الذات الواحدة غير المتعدِّدة.

١٢. إنَّ كلَّ صفةٍ ثبوتيَّة تنفي عن اللَّه تعالى ضدَّها، فالعلم ينفي الجهل، والقدرةُ تنفي العجز، وهكذا.

١٣. إنَّ مذهب الإماميَّة لا يقرُّ بأن معنى العلم هو نفي الجهل، بل لازمه ذلك.

١٤. إنَّ الصفات الثبوتيَّة وإن كانت غير مُدرَكَةٍ لنا بكنهها كذات اللَّه تعالى، بل المُدرَكُ لنا منها نفي السَّلب، إلَّا أنَّ هذا لا يلازم إرجاع الصفات الثبوتيَّة إلى السلبيَّة، بل الحق إرجاع الصفات السلبيَّة إلى الثبوتيَّة.

والحمد للَّه رب العالمين

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- أصول المعارف، الفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١ هـ)، دفتر تبليغات اسلامى - قم، ط٣، ١٣٧٥ ش

٢- الأمالي، الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ)، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - قم، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، ط١، ١٤١٤ هـ.

٣- الباب الحادي عشر (مع شرحيه النافع يوم الحشر للسيوري ومفتاح الباب للحسيني)، العلَّامة الحلِّي (ت: ٧٢٦ هـ)، آستان قدس رضوى، موسسه چاپ و انتشارات - إيران - مشهد مقدس، تحقيق: مهدي المحقق، شارح: فاضل مقداد، مقداد بن عبداللَّه، (ت: ٨٢٦ هـ . ق)، أبوالفتح بن مخدوم (ت: ٩٧٦ هـ . ق)، ط٢، ١٣٧٠ هـ . ش.

٤- التوحيد، الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ)، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د ط)، (د ت) .

٥- الكافي، الشيخ الكليني (ت: ٣٢٩ هـ)، تحقيق: صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، مطبعة: چاپخانه حيدري، دار الكتب الإسلامية - طهران - إيران، ط٥، ١٣٦٣ ش .

٦- الكشف الوافي في شرح أصول الكافي، محمد هادي الشيرازي (آصف شيرازي) (ت: ١٠٨١ هـ)، تحقيق: علي فاضلي، دار الحديث - قم، ط١، ١٤٣٠ ق-١٣٨٨ ش.

٧- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ .

٨- بصائر الدرجات في فضائل آل محمدعليهم السلام، أبو جعفر محمد بن فروخ الصفار، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي (عجل اللَّه فرجه)، مطبعة إعتماد، ط١، (د ت).

٩- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي (ت: ٣٢٠ هـ)، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران (د ط)، (د ت).

١٠- حقائق الإيمان، الشهيد الثاني (ت: ٩٦٥ هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف: السيد محمود المرعشي مكتبة آية اللَّه العظمى المرعشي النجفي العامة - قم المقدسة، ط١، ١٤٠٩هـ.

١١- شرح أصول الكافي، مولى محمد صالح المازندراني (ت: ١٠٨١هـ)، تعليق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: السيد علي عاشور، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

١٢- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: د حسين بن عبد اللَّه العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد اللَّه، دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان، دار الفكر دمشق - سورية، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

١٣- عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر (ت: ١٣٨٣ هـ)، تقديم: الدكتور حامد حفني داود، انتشارات أنصاريان - قم - إيران.

١٤-عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، مطابع مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان، (د ط)، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

١٥-كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د ط)، (د ت).

١٦-كتاب سليم بن قيس الهلالي، التابعي الكبير من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والإمامين الحسنين، والإمام زين العابدين، والإمام الباقر عليهم السلام (ت: ٧٦هـ)، تحقيق: محمَّد باقر الأنصاري، مطبعة نكارش، إيران- قم، ط٥، ١٤٢٨ هـ.

١٧- مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، العلامة المجلسي (ت: ١١١١ هـ)، قدّم له: العلم الحجّة السيّد مرتضى العسكري، إخراج ومقابلة وتصحيح السيد هاشم الرّسولي، مطبعة مروي، دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ ش.

١٨-نهج البلاغة، ما اختاره وجمعه الشريف الرضي من كلام الإمام علي عليه السلام، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: د. صبحي صالح، ط:١، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.